المشرق
بيروت

السنة الحادية والاربعون — تشرين الاول – كانون الاول ١٩٦٧

ازياء الاكمام

وما كانت تصلح له في الملابس العربية

بقلم حبيب زيات

في كتاب المدخل لابن الحاج من الفقهاء المالكية آراء واحكام انكر في بعضها كثيرًا مما كان جاريًا في زمانه من العادات والمصطلحات والبدع. وهي اذا تأملها الباحث المتطلع الى معرفة احوال المتقدمين واوضاف معيشتهم في الحضارة الاسلامية لا تخلو من طُرَف ولُقَط قلّ ان توجد نظائر لها في كتب الاخبار والادب والتاريخ. ومما توسع بذكره من البدع المنهي عنها طول الاكمام واتساعها الخارق قال: «ألا ترى الى ما ورد عن عمر بن الخطاب (رضه) حين لبس ثوبًا فوجد كمّه يزيد على اطراف اصابعه فطلب شيئًا يقطعه به فلم يجد فاخذ حجرًا والقى كمه عليه ثم اخذ حجرًا آخر فجعل يرضّه به حتى قطع ما فضل من اصابعه ثم تركه كذلك مدلّى حتى خرجت الخيوط منه

وتدلّت فقيل له في خياطته . فقال رأيت رسول الله (صلعم) فعل بثوب كذلك ولم يَخِطهُ بعد حتى تقطع الثوب .»[١]

ولا ندري هل كانت الأكمام قبل الهجرة بين البدو وفي ديار العرب مفرطة الطول وقد فاتنا علم معظم ما يتعلق بالملابس العربية واوصافها منذ الفتح . ولا شك انه طرأ عليها تدريجاً بمخالطة الاعاجم من اهل البلاد والروم والفرس كثير من التبديل والتعديل ، ولكن لا سبيل ان نعرف متى بدأت هذه الأكمام بالطول والاتساع ، ولم يرد في ما بين ايدينا من الاسفار القليلة الباقية اشارة اليها قبل العصر العباسي ، وذهب المسعودي الى ان المستعين بالله هو اول من « احدث لبس الأكمام الواسعة ولم يكن يُعهد ذلك فجعل عرضها ثلاثة اشبار ونحو ذلك وصغّر القلانس وكانت قبل ذلك طوالاً كاقباع القضاة[٢] . وقد فاته ان يحكي لنا طول هذه الأكمام ، ولا محالة انه زاد ايضاً لاعتقاد القوم في تلك الاعصار ان الزيادة في الطول والعرض ادعى الى الهيبة والتعظيم . ولذلك امر المنصور بتطويل القلانس في خلافته فكانت تُدعم بعيدان من داخلها حتى قيل فيها :

تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جُلّلت بالبرانس[٣]

وبلغ من اتساع الأكمام وطولها على التوالي انه لما ملك اليمن بعد ابيه المعز اسمعيل بن سيف الاسلام ظهير الدين بن نجم الدين بن ايوب « لبس ثياب الخلافة وعمل طول كل كم خمسة وعشرين شبراً في سعة ستة اشبار »[٤] وهو ما لا يكاد يصدَّق لغرابته . ويظهر ان سعة الأكمام وطولها كانا يختلفان باختلاف الطبقات والمراتب فكان العلماء ، والقضاة واهل القرآن يؤثرون الازدياد منها حباً بالتهويل والتعظيم . ولما سأل الناس بواسط علي بن محمد بن دينار بعد موت ابي محمد عبدالله العلوي « ان يجلس لهم صدراً فيُقرئهم امتنع وقال :

١) كتاب المدخل ١ : ١٠٦

٢) مروج الذهب، بهامش الكامل، ٩ : ٢١٤ - ٢١٥

٣) الاغاني، طبعة بولاق، ٩ : ١٣١

٤) الاول من السلوك للمقريزي، خزانة باريس ١٧٢٦، ص ٥٣

انا اتعمّم مدوّرة وكمّي ضيق وليست هذه حلية اهل القرآن » [١] .

ولم نقف الا مرة واحدة على وزن الكم في ما عـدا طوله وعرضه . « حدث ابو الحسن بن حباب صاحب ابن الكرنبي قال اوصى ابن الكرنبي برقعته فوزنتُ فرد كمٍّ من اكمامها فاذا فيه احد عشر رطلاً قال جعفر الخلدي: وكانت المرقعات تسمى في ذلك الوقت الكَبَل » [٢].

وغلب على بعض القضاة حب التجمل بكبر العمامة وفحش الاكمام حتى سخر بهم اهل اللهو ممن يتعاطى عمل خيال الظل فكانوا « اذا عملوا الخيال بحضرة بعض العوام وغيرهم في بعض الاوقات يخرجون في اثناء لعبهم لعبة يسمونها « بابة القاضي » فيلبسون زيّه من كبر العمامة وسعة الاكمام وطولها وطول الطيلسان فيرقصون به ويذكرون عليه فواحش كثيرة وينسبونها اليـه فيكثر ضحك منهناك ويسخرون به ويكثرون النقوط عليهم بسبب ذلك» [٣].

وما زالت الاكمام تطول وتتسع حتى اصبحت كالاعدال تشتمل على كل ما شاء صاحبها حمله وستره . ومن المُلَح المرويّة في ذلك ما حكاه هبة الله ابن ابرهيم المهدي قال :حدثني عمي منصور بن المهدي انه كان عند ابي في يوم كانت عليه فيه نوبة لمحمد الامين . . . فدخلنا وكانت طريقنا على حجرة توضع فيها الملاهي فقال لي اخي : اذهب فـاختر منها عودًا ترضاه وأصلِحهُ غاية الاصلاح حتى لا تحتاج الى تغييره عند الضرب ففعلت وجعلته في كمي» [٤] . ومن أهزل ما رواه الجاحظ او تخيّله من غرائب البخلاء قول احدهم وقـد عيب بكثرة مشيه واتساخ سراويله وتخرّق نعله في سبيل خمسة دراهم : « اني من لدن خروجي من منزلي الى ان اقرب من باب صاحبي فـانما نعلي في يـدي وسراويلي في كمي» [٥] .

ولا نخال وصفًا اوضح وادهش في تعداد عيوب الاكمام الواسعة من قول

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ٢٧٨

٢) تاريخ بغداد للخطيب ١٤ : ٤١٤

٣) كتاب المدخل ١ : ١٣١

٤) الاغاني ٩ : ٥٦

٥) كتاب البخلاء ١١٧

ابن الحاج ان الرجل « اذا جمع ركبتيه وهو قاعد او اضطجع ورفع ركبتيه فانه قد تنكشف العورة ايضاً لسعة كمه قال: وهذا بيّن مشاهد مرئيّ.»[1] وانكر على بعض اهل الترف والخيلاء المبالغة ايضاً في تطويلها باضافة ذيل لها من الحرير تزييناً لها كما يفعله بعض اهل العلم قال: « فتجد كمّ احدهم له سجاف من حرير نحو شبر.»[2] ولعلهم قلدوا في ذلك زيّ النساء . واذا اعتبرنا هذا الطول والاتساع المفرطين يتضح لنا ان ابن الحاج لم يبالغ بقوله: «ان كمّ بعض من ينسب الى العلم اليوم فيه اضاعة مال لانه قد يُفصَّل من ذلك الكم ثوب لغيره»[3].

وليس لدينا اقلّ وصف لازياء اكمام النساء ولعلها لم تكن تتميز عن اكمام الرجال الا ببعض الزخرفة والترويق والتطريز وقد انكر عليهن ابن الحاج « توسيع الاكمام التي احدثنها مع قصر الكم فانها اذا وضعت يدها ظهرت اعكانها ونهودها وغير ذلك وهذا من فعل من لا خير فيه من المتبرّجات»[4] وكانت المتظرّفة منهن اذا مشت أسبلت كمّا تيهاً واختيالاً. قال ابن الساعاتي في تشبيه غصن البان :

وكأنّ غصن البان في اوراقه هيفاء خاطرة بكمّ مُسبَلِ[5]

وهذه المشية بالكم المُرخى كانت مشية الشطّار من الغلمان، ولذلك قال مروان الصغير في قصيدة له انشدها المتوكل على الله العباسي :

بيضاء خالط وجهها ورد فكيف لنا بشمّه
تمشي كما يمشي الغلام وكمّها مُرخىً ككمّه[6]

ولابي نواس في بعض المُرد من اهل الشطارة :

وكيف اخشاك يا من يصدّ عمداً ويهجر
تمرّ مُسبِلَ كمّ مهدّداً لي بخنجر[7]

---

١) كتاب المدخل ١ : ١٢١
٢) كتاب المدخل ١ : ١٢٠ – ١٢١
٣) كتاب المدخل ١ : ١٠٨
٤) كتاب المدخل ١ : ٢٠٢
٥) ديوانه ٢ : ١١٠
٦) ديوان ابي نواس، رواية الاصبهاني، خزانة باريس ٣٠٨٤، ص ٢٠١
٧) ديوان ابي نواس، باريس ٣٠٨٤، ص ٢١٩ – ٢٢٠

والوزير ابي عامر بن شُهيد من شعراء الاندلس في غزله :

هبَّ من مرقده منكرًا مُسبلًا للكم مرخيَّ الرداء[1]

وفي عكس هؤلاء الشطّار كان اللصوص يقصون من أكمامهم ليكونوا اخفّ يدًا في الطرّ والسرقة . ولما ولي عمر بن هبيرة العراق قال الفرزدق يخاطب الخليفة هشام بن عبد الملك :

أوليتَ العراق ورافديه فزاريًا احذَّ يد القميص

« ويد القميص هو الكم والسارق يقصر كمه ويخففه ليكون اقدر على العمل »[2].

ولما ملك المغرب ابو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن من الموحدين « امر ان يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من اقدامهم وبدلًا من العمائم كلوتات على اشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم »[3].

- وغنيّ عن القول ان الاسراف في سعة الاكمام وطولها ونقلها كان يزيد كثيرًا في وزنها وهي فارغة فكيف بها وهي ملأى مفعمة فكانت من ثم بمثابة الحمل المشاة وشغلًا شاغلًا للمصلّين . وربما غفل احدهم عن امساكها فتبدد ما فيها ولذلك عدّ ابن الحاج الخروج بالكم الخارق خروجًا عن السمت والوقار قال : « ولا يخفى على ذي بصيرة حالهم به كيف هو لخروجهم عن زيّ سائر الناس وتكلفهم في حمله ان تركوه مدلّى ثقل عليهم في مشيهم فتقلّ مروءة احدهم بسببه فلا يقدر على المشي الكثير بسببه ولا يقدر على تعاطي قضاء الحوائج بسببه وان رفع يده به احتاج الى حمله وفي حمله كلفة وان كان يصلي ثقل عليه في صلاته سيما اذا كان ببطانة وتركه مدلّى وان رفع يده به كان حاملًا لثقل في صلاته فهو شغل في الصلاة »[4].

ومن اغرب ما اتُّخذ الكمّ احيانًا للتهديد والضرب كالسوط نظرًا

١) نفح الطيب للمقري ٢ : ٣٣٢
٢) النهاية في التعريض والكناية للثعالبي ٣٢
٣) المعجب في اخبار المغرب للمراكشي ٢٢٣
٤) كتاب المدخل ١ : ١٩ - ١١٠

للينه وطوله ونقائه. «ولما مات كثيّر عزة قال ابو جعفر محمد بن علي: افرجوا لي عن جنازة كثيّر لارفعها قال فجعلنا ندفع عنها النساء. وجعل يضربهنّ محمد بن علي بكمّه.»[1]

ولقرب مُتناوَله من اليد كان الكم يستعمل كالمنديل لمسح الدموع وكالنقاب لتغطية الوجه وحجب النظر. ولابي الفرج احمد بن حسنيل الهمداني في غلام جلس في اخريات الناس وتنقّب بكمه:

جلستَ في اخريات الناس يا قمري بخلًا عليّ بان اروى من النظر
فصرت من فُرج الاشخاص تلمع لي كحاجب الشمس ناغى طرة الشجر
لم تقتنع بقناعي زحمةٍ ونوىً حتى تنقبت بالاكمام عن بصري[2]

ولصاعد في تشبيه الوردة:

كعذراء ابصرها مبصر فغطَّت باكمامها رأسها[3]

وفي تعليق على مجموع احاديث شتى من مخطوطات باريس[4]:

لما بدت في ثياب من ملابسها خفيفة النسج لا يعيا بها النظرُ
خافت عيونًا فغطت وجهها خجلًا بكمها وعلاها الدلّ والخفر
فخلتُ اثوابها اللاتي بها استترت غيمًا يضيء لنا من دونه القمر[4]

وربما تناول بعض الكتاب كمه لمسح ما نقط من الحبر على صحيفته. «حدّث ابو العيناء. قال: كنت عند ابراهيم بن العباس وهو يكتب كتاباً فنقط من القلم نقطة مفسدة فمسحها بكمه. فتعجبت من ذلك فقال: «لا تعجب المال فرع والقلم اصل ومن هذا السواد جاءت هذه الثياب.»[5] وفي ضد هذه الاستهانة الغريبة كانت الاكمام هي التي تُقبَّل عند خدمة الرؤساء في موضع اليد او حبًا بالاتضاع للقضاة ورجال الدين. قال ابن بطوطة وقد اعطاه سلطان ما وراء النهر فروة سمّور كان طلبها منه لاجل البرد: «لما

١) الاغاني ٨ : ٤٢
٢) تتمة اليتيمة ١ : ١٥٦
٣) ارشاد الاريب ٤ : ١٠٥
٤) مخطوط رقم ٩٨٦ عُدّ غلطًا في الفهرست بين المخطوطات التركية.
٥) الاغاني ٩ : ٢٠ - ٢١

ذكرتها له اخذ اكمامي وجعل يقبلها بيده تواضعاً منه.»[١] ولعمارة اليمني في جفاء بعض كتاب الدواوين من الاقباط :

وما ضرَّ ارباب الدواوين انهم نصارى وان لم يؤمنوا بمحمد
وها نحن ان ردنا سلاماً عليهم دُفعنا عن الاكمام فضلاً عن اليد[٢]

ومن هذا القبيل قول الاستاذ ابي الفرج بن هندو لبعض الرؤساء وقد انصبَّت الخمر على كمّه :

انصبَّت الخمر على كمّه فلثم منه كمّه خدمه
لو لم ترد خدمته باللتي قد فعلت ما خصّصت كمه[٣]

وكانت بعض اكمام الغلمان تُطرّز كاكمام النساء زخرفة وتزييناً ولصلاح الدين الصفدي في وصف مليح مطرّز الكم :

ومليح طراز كمّيه اضحى مثل خط العذار في حسن رقم
قال قلت الظباء؟ مثلي وما عاز ظباء الفلا سوى طرز كمي[٤]

ومن البديهي ان يحاول اهل الذمة تقليد المسلمين في ازيائهم ومصطلحاتهم وان يتخذوا نظيرهم الاكمام الخارقة والعمائم المائلة خوفاً ان يتميزوا عنهم ويعرفوا فيهانوا. «وفي سنة ٨٢٢ (١٤١٩م) الزم المحتسب اليهود والنصارى بتضييق الاكمام وتصغير العمائم وبالغ في ذلك.»[٥]

ولنذكر الآن بعض ما كان يحمل او يوضع في الكم نختار ما في تعداده فكاهة او فائدة ادبية واولُ ما كان يصلح الكم لامساك الدراهم قيل : «خرج طاهر بن الحسين لقتال عيسى بن ماهان فخرج وفي كمه دراهم يفرقها على الفقراء. ثم سها واسبل كمه فتبددت فتطير. فقال له شاعر في ذلك :

هذا تفرُّق جمعهم لا غيره وذهابه منا ذهاب الهمّ
شيء يكون الهمّ نصف حروفه لا خير في امساكه في الكمّ»[٦]

١) رحلته ١ : ٢٢٨
٢) تكملة شعر عمارة اليمني وترسلاته، مطبعة شالون، ٤٤١
٣) تتمة اليتيمة ١ : ١٣٨
٤) الحسن الصريح في مئة مليح دار الكتب المصرية رقم ١٢٠ ادب ص؟
٥) الثاني من ابناء الغمر للعسقلاني، باريس ١٦٠٢، ص ٩٣
٦) كتاب الاذكياء لابن الجوزي ١١٢ – ١١٣

وحدّث عمرو بن بانة قال: «كنا في دار ام جعفر جماعة من الشعراء والمغنين فخرجت جارية لها وكمها مملوء دراهم ... فنثرتها في حجر العباس ابن الاحنف»[1].

ولما جلس المتوكل على الله لإعذار ابنه المعتزّ «احضر الامراء والقواد والندماء. فاجلسوا على مراتبهم وجعل بين صوانيهم والسماط فرجة وجاء الفراشون بزُبُل قد غُشيت بأدم مملوءة دنانير ودراهم نصفين فصبّت في تلك الفُرَج حتى ارتفعت وقام الغلمان فوقها وامروا الناس عن الخليفة بالشرب وان ينتقل كل من شرب ثلث حفنات مما حملت يداه من ذلك المال. فكان اذا اثقل الواحد منهم ما اجتمع في كمه اخرجه الى غلمانه فدفعه اليهم وعاد الى مجلسه»[2].

ولابي الحسين الجزار في وصف حاله:

ولا تفرتك منه جوخة فصّلها وهو عليها نادم
كم اعجبته نفسه فيها الى ان نفدت من كمه الدراهم[3]

وفي الاكمام كان يحمل العلماء والادباء والكتّاب والطلّاب الكتب والالواح للدرس والتقييد. ومن اغرب ما روي عن ابي دواد صاحب السنن انه كان له كم واسع وكم ضيق فقيل له في ذلك فقال: «الواسع للكتب والآخر لا يحتاج اليه»[4] وكان الفتح بن خاقان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا اراد القيام لحاجة اخرج كتاباً من كمه او خفّه وقرأه من في مجلس المتوكل الى ان يعود من الخلاء[5].

وللجلال الدين ابن خطيب داريا من ابيات:

بُعدًا لبُغْياري وفرجيّتي ومشيتي كالخائف المُبلس
وكمّي المهدول مما به من كتب محفوظها قد نسي[6]

---

١) الاغاني ٨ : ٣٢ - ٣٤
٢) الديارات للشابشتي ٦٥
٣) المغرب لابن سعيد ١٣٦
٤) المجلس عشر من الوافي بالوفيات للصفدي، باريس ٢٠٦٠، ص ٤٦؛ وتاريخ بغداد للخطيب ٩ : ٥٨
٥) تحفة ذوي الالباب للصفدي، باريس ٥٨٢٧، ص ٨٣
٦) روض الاداب للشهاب الحجازي، خزانة بريتيش موزيوم Add. 19489, f° 35

ولما دخل الشافعي العراق في خلافة هرون الرشيد قال: «فعند دخولي الباب تعلق بي غلام فلاطفني وقال ما اسمك فقلت محمد قال ابن من قلت ابن ادريس الشافعي فقال مطّلبي ؟ فقلت اجل فكتب ذلك في لوح كان في كمه وخلّى سبيلي»[١].

وفي الكم او الخف كانت تجمع ايضاً رقاع اصحاب الحوائج والمتظلمين وتُرفع الى الوزراء «حدّث علي بن الجنيد قال: كانت بيني وبين يحيى بن خالد مودة وأنس وكنت اعرض عليه الرقاع في الحوائج فكثرت رقاع الناس عندي واتصل شغله فقصدته يوماً وقلت له يا سيدي قد كثرت الرقاع وامتلا خفي وكمي فاما تطولتَ بالنظر فيها واما رددتُها»[٢].

ولما جُليت بوران على المأمون نثر عليها حبًّا كبارًا كان في كمه (من الدرّ) فوقع على حصير ذهب كان تحته فقال لله درّ الحسن بن هاني حيث يقول:

كأنّ صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على ارض من الذهب[٣]

وفي ضدّ ذلك كان المبخّرون في فتح الخليج بمصر يضعون الفحم في الاكمام للتبخير ذكر المقريزي ان «عدة المبخرين في المواكب ستة ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال وكل منهم مشدود الوسط وفي كمه فحم برسم تعجيل المدخنة والمداخن فضة.»[٤]

ومن المُلح الجديرة بالحفظ انه في سنة ٤٢١ (١٠٣٠م) «جرى بين معز الدولة ثمال وبين زوجته كلام فغضبت عليه وخرجت الى المحلة بظاهر حلب فأمر ثمال ان يصاغ لها لالكة[٥] من ذهب مرصعة بالجواهر فلما استوت اخذها في كمه وخرج»[٦].

١) ثمرات الاوراق لابن حجة ١٧٣!
٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ٢٢٨
٣) الديارات للشابشتي ٦٧ – ٦٨
٤) الخطط ٢ : ٢٧٣ – ٢٧٤
٥) اللالكة لفظة فارسية يراد بها نوع من الاحذية ولم ترد في المعجمات وتجمع على لوالك وجاءت «لكالك» غلطاً في البيتين المقولين في ابن المرحّل المعروف بابن الوكيل وتشبيه بسوق اللبادين بدمشق:

وداد ابن الوكيل له شبيه بلبّادين جلق في المسالك
فاوله حليٌّ ثم طيب وآخره زجاج مع لكالك

(فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٢١٧٠).
٦) زبدة الحلب لابن العديم، باريس ١٦٦٦، ص ٦٢

وكان المشعوذون يعولون كثيراً على اكمامهم لستر حِيَلهم وتمويه مخارقهم « ذكر هلال بن المحسّن ان رجلاً كان يقال له ابو العجب لم يُرَ مثله في ما كان يعمل من الشعبذة دخل يوماً الى دار المقتدر بالله فرأى خادماً من خواصه يبكي على بلبل مات له فقال له : ما عليك ايها الاستاذ اذا احييتُه ؟ فقال ما تريد فاخذ البلبل الميت فادخله كمه وادخل رأسه واخرج بعد ساعة بلبلاً حياً فماجت الدار وعجب الحاضرون فاستدعاه علي بن عيسى (الوزير) وقال: والله ان لم تصدقني عن حقيقة الامر لاضربنَّ عنقك فقال: اني شاهدت الخادم يبكي على بلبله فطمعت بما آخذه منه فمضيت الى السوق وابتعت بلبلاً وخبأته في كمي وعدت الى الخادم فقلت ما قلت واخذت البلبل الميت وادخلت رأسه في كمي واكلته واخرجت الحي فلم يشك انهُ بلبله وهذا رأس الميت»[1].

ومن عوائدهم خاصة بمصر اذا حضروا الولائم والاسمطة في المواسم ان يحشوا في اكمامهم كل ما يُنتهب من المأكولات بين جامد وسائل ورطب وجافٍّ من فضلات السماط وقد وصف المقريزي سماط العيد فقال :« وقُدمت جفان القطائف على الرسم مع الحلوى فجروا على عادتهم وملأوا اكمامهم »[2] ولما ذكر ركوب الخليفة في اول شهر رمضان قال : « وأُحضرت جفان القطائف وجرار الجُلاب فاكلوا وملأوا اكمامهم .»[3]

ومن اغرب ما عيب حمله في الكم المفتاح « قال ابو نصر بن المرزبان: اربع تذهب بالمروءة . . . حمل المفتاح في الكم»[4]. وقد خفي علينا سبب هذا العيب.

واكثر ما كانت تتخذ اكمام النساء في الخلافة العباسية لحفظ الدراهم والطيب والريحان والزهر . وفي الاغاني : « كانت مُتيّم يعجبها البنفسج جداً فكان عندها آثر من كل ريحان وطيب حتى انها من شدة اعجابها لا يكاد يخلو من كمها الريحان ولا تراه الا كما قُطف في البستان .»[5]

وقد فاتنا كثير من اخبار الاكمام واوصافها في العراق من ازياء النساء بخلاف

---

١) كتاب الاذكياء لابن الجوزي ١٠٦

٢و٣) الخطط ٢ : ٣٢٤ – ٣٢٥ و٣٨٢

٤) برد الاكباد في الاعداد للثعالبي ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣١٧ ادب

٥) الاغاني ٧ : ٢٦ – ٢٧

ازيائهن في مصر والشام أشير اليها غير مرة في تضاعيف المجموعات الادبية والمصنفات التاريخية ولكن شرحها يقتضي مقالة خاصة تتناول كل ملابسهن وضروب زينتهن وتبرجهن، وفيها كل غريب وعجيب. فحسبنا هنا ان لا نتجاوز التنبيه على سعة اكمامهن وطولها وقد افرطن فيها احياناً غاية الافراط حتى اضطر النواب والامراء الى منعها بالقوة والعنف. وكنّ يقلّدن فيها غالباً الخوندات اي نساء الملوك والسلاطين وجواريهن. وفي سنة ٧٥٠ (١٣٤٩ م) احدث الخواتين نساء السلطان «قمصاناً طوالاً تسحب اذيالها على الارض باكمام سعة الكم منها ثلاثة اذرع فاذا ارخته غطى رجلها ... وتشبَّه نساء القاهرة بهنّ في ذلك حتى لم تبقَ امرأة الا وقميصها كذلك فقام الوزير بابطالها وطلب والي القاهرة ورسم له بقطع اكمام النساء واخذ ما عليهنّ ... وبعث اعوانه الى بيوت ارباب الملهى فهجموا عليهن واخذوا ما عندهن من ذلك وكبس مناشر الغسّالين ودكاكين البابية واخذ ما فيها من قمصان النساء وقطّعها ووكل مماليكه بالشوارع والطرقات فقطعوا اكمام النساء ... »[1]

« وفي سنة ٧٧٠ (١٣٦٨ م) نودي بدمشق ان لا تلبس النساء الاكمام الطوال العراض ولا البزّ الحرير ولا سائر الثياب الثمينة ولا الاقبية القصار عن كتاب ورد بذلك من مصر »[2].

« وفي سنة ٧٩٣ (١٣٩١ م) نودي بالقاهرة ان لا تلبس امرأة قميصاً واسعاً ولا يزيد على تفصيل القميص من اربعة عشر ذراعاً وكان النساء بالغن في سعة القمصان حتى كان يفصل القميص الواحد من اثنين وتسعين ذراعاً من البندقي الذي عرضه ثلاثة اذرع ونصف فتكون مساحة القميص زيادة على ثلثمائة وعشرين ذراعاً وَفُحْشُ هذا حتى تشبه عوام النساء في اللبس بنساء الملوك والاعيان.»[3] « وفي ثاني ذي القعدة ارسل الامير كشبُغا جماعة من المماليك والوشاقية فداروا الاسواق والقياسير والطرقات بالقاهرة وظواهرها فقطعوا اكمام النساء الواسعة بالسكاكين وحصل للنساء خوف عظيم لانهم كانوا

١) السلوك للمقريزي المجلد الاول، باريس ١٧٢٦، ص ٦٠١ – ٦٠٢

٢) ذيل ابن قاضي شهبة باريس ١٥٩٨، ص١٢٥

٣) السلوك المجلد الثاني ١٧٢٧، ص ٢٢٢

يأتون المرأة على غفلة ويمسكونها حتى يقطعوا كمها. فامتنع النساء من لبس القمصان بالاكمام الواسعة وتفصيلها ولو تم ذلك لكان خيراً عظيماً ولكن عاد النساء الى ذلك بعد حضور السلطان من الشام »[1].

ومن هذه المقتطفات يستدلّ على ما لتاريخ ازياء النساء من الجدّة والطرافة والغرابة. ومن سوء حظ الادب والفنون ان لا يكون احد من المتقدمين تفطّن لما في كتابته وجمعه من الخطر والشأن والامتاع في تاريخ الحضارة الاسلامية في العراق ومصر والشام.

ويؤخذ من اقوال بعض الباحثين ان الاكمام الطويلة الواسعة كانت معروفة في الشرق وفي مملكة اشور وبابل ، ثم شاعت عند الروم البيزنطيين فكان القياصرة يلبسونها مُسبلة تتدلّى الى الاقدام وكذلك نساؤهم كما تشهد بذلك بعض الصور المحفوظة وآخر من رُئي منهم مصوراً بهذا الزي الكسيوس الثالث قيصر طرابزندة (١٣٥٠ - ١٣٩٠ م) وكان لبعض رجال الدولة والاراخنة حق بلبس هذه الاكمام على شرط ان تبقى مرفوعة منوطة بالزنار في الظهر[2]. ونُقل عن اهل الصين انه كان من هيئاتهم في اللباس توسيع الاكمام وتطويل الذيول والمناطق[3].

ولا سبيل لنا اليوم لمعرفة الزمن الذي بطلت به الاكمام الواسعة العريضة التي كانت كالجوالق والاكياس وقام مقامها في الخبء والستر الجيوب المعروفة اليوم التي تُشَقّ في الاقبية والملابس. وقد اغفلت المعجمات التنبيه على المعنى المولَّد من الجيب واقتصرت على معناه القديم اي الطوق المحيط بالعنق ويقال له ايضاً الجُربان ويظهر ان اللفظة بمعناها المُحدَث كانت معروفة في زمن العباسيين ، وان لم يشر اليها احد من اللغويين والمنشئين ويدل على ذلك قول علية اخت الرشيد.

خبأتُ في شعري اسم الذي اردته كالخبء في الجيب[4]

ولبديع الزمان الهمذاني في احدى رسائله : « قليل في الجيب خير من كثير في الغيب »[5].

---

١) ذيل ابن قاضي شهبة، باريس ١٥٩٩، ص ٦٩

٢) J. Ebersolt, *Les Art somptuaires de Byzance*. Paris, 1923 , p.122-124

٣) مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط ، دار الكتب المصرية رقم ٣٥٩ العلوم الطبيعية ، ج ٢ ص ٢٨٦

٤) الاغاني ٩ : ٨٥

٥) رسائله، طبعة الاستانة، ٤٣

لغة الحضارة

الفتوّة والفتيان والفتيانيّة

للفتوّة في الحضارة الاسلامية معانٍ متباينة ترجع الى طبيعة الفتاء اي الشباب، وما قد يصحبها من حسن الخلق وبذل المعروف[1]، والحرية والكرم[2]؛ او ما يغلب عليها من حب اللهو والقصف ومعاقرة الشراب والانقياد الى الشهوات، كما سيجيء. ولم نجد من اشار الى كلّ منها في كتب اللغة. واقتصرت مجلة لغة العرب في بغداد (١٩٣٠/٤، ص ٢٤١ - ٢٤٩) على شرح «طريقة الفتوّة» وسياقة اخبارها منذ شهرها الخليفة العباسي الناصر لدين الله في بدء القرن السابع للهجرة اي سنة ١٢١٠/٦٠٧، وجعل شعارها «شرب الكاس ولباس السراويل»، ودعا اليها من احب تشريفه من الملوك والامراء والرؤساء في زمانه. وفي زعمها ان لفظ الفتوة في معناها المذهبي مأخوذ من القول المشهور «لا فتى الا علي». وقد انكر ابن تيمية هذه الطريقة المحدثة ووضع فيها رسالة دعاها «الكلام على بطلان الفتوة المصطلحة بين العوام وليسَ لها اصل متصل بعلي»[3]. ولم يشر احد الى الزمن الذي بدأت فيه هذه البدعة ولا اين نشأت قبلاً أفي العراق ام مصر. وقد تقدمت خلافة الناصر بما قد يزيد على قرنين وربما اتخذت احياناً وسيلة او ستاراً للدعوة للفاطميين، وهو ما يُتحصل من قول ابن الجوزي:

«سنة ٤٧٣ (١٠٨٠م) في ذي الحجة قُبض على انسان يعرف بابن الرسولي الخبّاز وعلى عبد القادر الهاشمي البزّاز وجماعة انتسبوا الى الفتوّة. وكان هذا

---

١) سُئل محمد ابو بكر البيهقي النيسابوري عن الفتوّة فقال: هي حسن الخلق وبذل المعروف (خزانة اكسفرد Hunt. 198 f° 209)

٢) اساس البلاغة للزمخشري، طبعة الدار ٢: ١٨٤

٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢: ٥٧

ابن الرسولي قد صنف في معنى الفتوة وفضائلها وقانونها وجعل عبد القادر المتقدم على من يدخل في الفتوة وان يكونوا تلامذته . وكتب لكل منهم منشورًا وقلده صقعًا ولقب نفسه « كاتب الفتيان » وجعل ذلك طريقًا الى دعوات ومجتمعات تعود لمصلحته وكتب الى خادم لصاحب مصر بمدينة النبي يعرف بخالصة الملك ريحان الاسكندراني قد درّب نفسه لرئاسة الفتيان وصارت المكاتبات من جميع البلدان صادرة منه واليه والتعويل في هذا الفن وقف عليه.

« وعنّ لابن الرسولي ان جعل اجتماعهم بمسجد براثا وكان مسدود الباب مهجورًا فتتح بابه ونصب عليه بابًا ورتّب فيه من يراعيه. فعرف ذلك اصحاب عبد الصمد[1] . فانكروه وشكوه الى الديوان وعظموا ما يكون منه وما يتفرع عنه وقالوا : ان هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر ويجعلون ذكر الفتوة عنوانًا لجمع الكلمة على هذا الباطن . فطالع الوزير عميد الدولة بالحال فتقدم حينئذٍ بالقبض على ابن الرسولي وعبد القادر والكشف عن الحال. ووُجد لابن الرسولي في هذا المعنى كتب كثيرة وكتاب منه الى الخادم المتقدم ذكره فاستخلاه الوزير عميد الدولة وسأله عن الداخلين في هذا الجهل وطُلبوا فقُبض على من وجد منهم وهرب الباقون . وجعل الشحنة والوالي ذلك دليلًا الى الشنقصة[2] وقطع المصانعات عليهم . ونُهبت دورهم ثم أخذت فتاوى الفقهاء عليهم بوجوب كفهم عن هذا الفساد.»[3]

وقلّ جدًا من اشار الى هذا المعنى من الفتوة قبل القرن الخامس . ومن

---

١) ذكر ابن الجوزي « اصحاب عبد الصمد » فقال : « م اصحاب المساجد » (المنتظم ٨ : ٢٥١ ، طبعة حيدراباد) ونقل من اخبارهم سنة ٤٥٠ ما يأتي : « في شهر رمضان تجدد للعوام المتدينين المتسبين باصحاب عبد الصمد الزام اهل الذمة بلبس الغيار » (٨ : ١٩٠) ويستدلّ من ذلك انهم كانوا فئة من العامة المتحمسين في الدين اجتمعوا على الامر بالمعروف كما كان يقال ، والنهي عن المنكر ، واحياء السنة واقامة رسوم الشرع ولم نقف على شيء من ترجمة زعيمهم عبد الصمد الذي انتسبوا اليه .

٢) الشنقصة لفظة مولدة مصدر شنقص الرجل المخبر اي استقصاه ، عرفت بها طائفة من الجند يقال لهم الشناقصة الواحد شنقاصي ، ويراد بها تتبع الاخبار والتسلط على الناس ومصادرتهم .

٣) المنتظم ٨ : ٣٢٧

تتبع كتب الاخبار والادب يجد ان المراد من الفتوة في اللغة واقوال الكتاب والشعرا. كان بضدّ ذلك مرادفاً لمعنى الصبوة، اي جهل الشباب من اتّباع الاهوا. والانصباب على اللذات ومعاقرة الشراب واستماع الغنا. والميل الى الغزل والتحدث الى النسا. . ولا بأس ان نتوسع قليلًا في ايراد الشواهد الدالة على هذا المعنى. واول ما نذكر منها قول الاعشى في احدى الروايتين :

وكأسٍ شربت على لذّة   واخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس اني امرؤ   اتيت الفتوّة من بابها[1]

فجعل شرب الخمر باب الفتوّة.

والجاحظ في كتابه طبقات المغنين : « وجدنا لكل دهر دولة للمغنين يحملون الغناء عنهم ويطارحون به فتيان زمانهم وجواري عصرهم وخُصصنا في ايامنا وزماننا بقية اشراف وخلّان نظاف انتظم لهم من آلات الفتوّة واسباب المروّة ما كان محجوباً عن غيرهم . »[2]

ومن كلامه ايضاً : « نزع الى الفتوة بعد التوبة والى اخلاق الحداثة بعد الحنكة. »[3] « ومن لم يشرب على الريق فهو « نَكس في الفتوة »[4] وعدّ المبرّد الغناء من آلات الفتوّة في كلامه على خليلان الاموي فقال : « كان يتغنى ويرى ذاك زائدًا في الفتوة. »[5]

ولما اشار المسعودي الى خلافة الوليد بن يزيد قال : « كان الوليد صاحب شراب وفتوّة ومجون»[6] فقرن الفتوة بالهزل والاستهتار.

وفي كتاب الاغاني : « كان العرجي صاحب غزل وفتوّة. »[7] وفي وصف دقاق المغنية « كانت مشهورة بالظرف والمجون والفتوة. »[8] وفي الكلام على

١) نهاية الارب للنويرى ٤ : ٢٠٥ وشرح المقامات للشريشي ١ : ٢٠٩
٢) طبقات المغنين بهامش الكامل للمبرد ١ : ١٢٤–١٢٥
٣) مختارات فصول الجاحظ ، خزانة بريتيش موزيوم Or. 3138, f° 51
٤) كتاب البخلاء ، طبعة مصر ، ٨٣
٥) الكامل للمبرد ٢ : ٣٢
٦) مروج الذهب ، بهامش نفح الطيب ، ٢ : ٢٦١
٧) الاغاني ، طبعة بولاق ، ١ : ١٥٤
٨) الاغاني ١١ : ٦٨

عمرو الغزال : « كان ظريفاً اديباً نظيف الوجه واللباس معه كل ما يحتاج اليه من آلة الفتوّة.»[١] وفيه ايضاً : « قال رجل من اهل المدينة : ما ذُكر بيت حسّان بن ثابت :

أهوى حديث الندمان في فلق الصبح وصوت المسامر الغرِد

الّا عدت في الفتوّة كما كنت .»[٢]

ولابي اسحق ابرهيم المعروف بالرقيق النديم في كلامه على والبة بن الحباب : «لو قلت انه سنّ الفتوّة وشرع المنادمة لقلت حقًّا . . . وكان لوالبة اخوان مثله في الفتوّة والظرف وادمان القصف . . . اما عبد الصمد بن المعذّل فسلك طريقة ابي نواس والحسين بن الضحاك فتوةً وظرفاً وإدماناً وشعراً».[٣] وجاء في ترجمة اسحق بن خلف المعروف بابن الطبيب «كان رجلًا شأنه الفتوّة ومعاشرة الشطّار والتصيّد بالكلاب وايثار اصحاب الطنابير . . . ولم يزل على رسم الفتوّة وضرب الطنبور الى ان توفي في حدود الثلاثين ومائتين»[٤]

وكانت بعض الحانات وبيوت الخمّارين معروفة بتردد اصحاب الفتوّة اليها مشهورة باجتماعهم فيها ولذلك قال القلقشندي في تعريفه ما كان كاتب الانشاء الشريف يحتاج اليه « ربّما احتاج الى معرفة مصطلح الفتيان فيما يكتب به في ذكر فتوّة ونحو ذلك »[٥].

وهذه الشواهد صريحة في النصّ على معنى الفتوّة قديماً ، وانه كان يُراد بها رسم الشبان الازوال في الطيش والتلذّذ بطيّبات العيش ومنها يتضح ايضاً معنى « الفتيان » الصحيح في قول كتاب الاغاني في اخبار المغني الحيري حنين بن بلوع « كان حنين اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير اهل الكوفة واصحاب القيان والمتطرّبين . . . استحلّوه ». وقول حنين : « خرجت الى حمص فسألت عن

---

١) الاغاني ، طبعة بولاق ٢٠ : ٦٤

٢) الاغاني ، طبعة بولاق ١٦ : ١٨

٣) قطب السرور في وصف الخمور بريتش موزيوم Or. 3628, *f°* 46 *b*, 73 *b*

٤) فوات الوفيات للكتبي ١ : ١٢

٥) صبح الاعشى ١ : ١٤٦

الفتيان واين يجتمعون فقيل لي: عليك بالحامات فانهم يجتمعون بها اذا اصبحوا»[1] وما ندري كيف التبس مدلول هذه اللفظة على من فسّرها في مجلة لغة العرب او علّق عليهـا حاشية الاغاني في طبعة الدار حتى ظنّ كلاهما ان الفتيان هنا «طائفة يدينون بالفتوّة وخصال الرجولة وهم اشدّ الناس احتفالاً بالغرباء واسرع الى اطعام الطعام»[2] وان الفتوّة وهي «استجماع النعوت الكريمة والاخلاق القوية والطباع السليمة كانت في زمن الامويين». [3] فهل لم يكن يجد الفتيان وتتنذر لمارسة الاخلاق القوية وخصال الرجولة الا الحامات وبيوت اصحاب القيان والمتطربين ؟ وكيف التوى المعنى المراد مع دلالة القرينة عليه من ذكر اللهو والطرب والاستحمام ؟ ومع ذلك فلئلا تبقى شبهة في صحة الوجه اللغوي ننقل هنا بعض الشواهد ايضاً على معنى «الفتيان» قديماً قبل ان يُطلق على امثال «البنويّة والاخيّة» الذين ورد وصفهم في رحلة ابن جبير (طبعة ليدن ٢٨٠) وابن بطوطة (طبعة باريس ٢: ٢٦٠ — ٢٦٥) او يتناول احياناً معنى اللصوص كما ورد في ترجمة الفارابي في تاريخ الحكماء للبيهقي (طبعة دمشق، ص ٣٣).

قال أوس بن حجر الأُسَيدي يرثي فضالة بن كلدة:

ليبكِكَ الشرب والمدامة والفتيـان طرّاً وطامع طمعا (٤

وقال محمد بن ادريس بن سليمان بن ابي حفصة: «قبر الاعشى بمنفوحة وانا رأيته فاذا اراد الفتيان ان يشربوا خرجوا الى قبره فشربوا عنده وصبّوا عنده فضلات الاقداح»[4].

وللحسن بن هانئ:

اذا كان يومي ليس يوم مدامة ولا يوم فتيان فما هو من عمري(٥

وله ايضاً:

يارب مجلس فتيان لهوت به والليل مستتنس في ثوب ظلماء(٦

١) الاغاني، طبعة الدار، ٣: ٣٤٦
٢) الاغاني، طبعة الدار، ٣: ٣٤٦، حاشية ٤
٣) لغة العرب ٤/١٩٣٠، ص ٢٤١ و٢٤٢
٤) الاغاني ٨: ٨٦
٥) قطب السرور المذكور آنفاً، ص ١٩٨
٦) اخبار ابي نواس لابن منظور، ٢٢٩

ومن ابيات شواهد النحو :

وفتيانٍ على شرف جميعاً دلفت لهم بباطية هدور
فلا تشرب بلا لهوٍ لاني رأيت الخيل تشرب بالصفير(١

ومن العقد الفريد لابن عبد ربه:

« قال عبدالله بن صفوان لعبدالله بن جعفر بن ابي طالب : ابا جعفر لقد صرت حجة لفتياننا علينا اذا نهيناهم عن الملاهي »(٢).

« كانت البغايا في الجاهلية لهنّ رايات يعرفن بها وينتحيها الفتيان »(٣).

« قال الاوقص المخزومي : قالت لي ابي : اي بني انك خلقت في صورة لا تصلح معها لمجالسة الفتيان في بيوت القيان »(٤).

« قيل للحسن بن هاني : ما السرور ? قال: مجالسة الفتيان في بيوت القيان. ومنادمة الاخوان على قضب الريحان »(٥).

وغنيّ عن القول ان المراد بالفتيان في كل هذه الشواهد معناها اللغوي المشهور لا معناها المذهبي المحدَث اي الشبان والغلمان الذين لا ارب لهم الا في الاستمتاع بالحياة وطيبها وتتبع اللذات من الشرب والغناء والغزل والتحدث الى النساء . ولذلك قيل « فتياني » لكل من نهج منهجهم من الرجال والكهول. قال الجاحظ: «ادركت رواة المسجديين والمربديين . . . ما يروي عندهم نسيب الاعراب الا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر او فتياني متغزّل »(٦).

ومن كانت هذه سبيله في التلذذ والتنعم والتقرب والتحبب كان في الغالب ارق اخلاقاً واطيب حديثاً ومذاقاً واشهر كياسة ولطفاً ولذلك نُسب الظرف الى الفتيان والفتاء الى الظرفاء فقيل « فتيانية الظرفاء » ومُدح بها المبرّد في قصيدة لاحمد بن عبد السلام قال فيها:

---

١) العقد الفريد: ٣ : ١٩٩
٢) 〃 〃 ٢ : ١٢٥
٣) 〃 〃 ٣ : ٢
٤) 〃 〃 ٣ : ١٩٢
٥) 〃 〃 ٣ : ٢٢٩
٦) البيان والتبين، (طبعة سنة ١٣١١) ، ٢ : ١٦٤

جليس خلائف وغذيّ ملك   وأعلم من رأيت بكل أمر
وفتيانية الظرفاء فيه   وأبّهة الكبير بغير كبر[١]

بقي من معاني الفتوّة ما حكاه ابو اسحق ابرهيم المعروف بالرقيق النديم قال:

« دعا محمد بن عبدالله بن طاهر رجل من اصحابه دعوة احتفل فيها فلما حضر محمد طالبه بالطعام فطله ليتلاحق ويتكامل على ما احبه من الكثرة والاحتفال حتى تدرّم اكثر النهار ومسّ محمدًا الجوع وتنغّص عليه يومه فشرب عنده اقداحًا وانصرف ... »

(وسافر بعد ذلك محمد بن طاهر) «فشيّعه هذا الرجل فلما دنا منه ليودّعه قال له : ايأمر الامير بشيء ؟ قال: نعم اجمل طريقك في عودتك على محمد بن الحارث بن بسخنّر فسَلْهُ ان يعلمك الفتوّة . فمضى حتى دخل على محمد بغتة وقال: بعثني الامير اليك لتعلمني الفتوّة . فضحك وقال : ياغلام هات ما حضر . فجيء بطبق كبير عليه ثلاثة ارغفة من انظف الخبز وثلاث سكرجات مُري وخل وملح من اجود ما يتخذ من هذه الاصناف فابتدأ يأكل فجاءته فضلة باردة من مطبخه وتداركها الطبّاخ بطباهجة ثم وافاه من منزل حرمه فضلة اخرى واهدى اليه بعض غلمانه جام حلواء فانتظم له امر خفيف ظريف في زمان يسير بغير احتشام ولا انتظار الى ان ادرك الطعام واخذ في الشراب فقال له: اذا دعوت احدًا من اخوانك فليكن هكذا عملك ولا تنتظر استكمال الطعام»[٢].

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٧ : ١٢٦

٢) قطب السرور Or. 3628, f° 30 b

اهمية ومُهمّ وصنيع

الاهمية لفظة محدثة وردت في كتابات المتأخرين في القرنين الماضيين . ولعلها اول ما اتخذت في تعريب الكلمة الفرنسية importance . وكان يقال قديماً في معناها امر « ذو بال » اي يُبالى به ويُهتمّ به لقدره وعظمه ، وامر « ذو شأن » وهو كل ما جلّ وعظم من الامور والاحوال . قال عبد الملك بن عبد الحميد من ابيات في الهجاء :

الماء في دار عثمان لـه ثمن والخبز فيها له شان من الشان (١

ومن هذا الباب ايضاً قولهم امر ورجل « ذو خطر » اي له قدر ورفعة . قال قابوس بن وشمكير :

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا هل عاند الدهر الا من له خطرُ (٢

وهو اخفّ وارشق من لفظ « الخطورة » التي ولع بها الكتّاب اليوم ، وهي لم ترد في كتابات احد من فحول المنشئين المتقدمين . والخطورة مصدر خطر الرجل صار خطيراً فلفظ « الخطر » اقعد في مكانها وادلّ على الاهمية ، واذا استعمل في معناها تعذّر جدًّا ان يلتبس بمعناه الآخر اي الخوف من العطب والاشراف على الهلاك .

وقد تحامى الكتّاب منذ سنوات استعمال لفظ « الاهمية » بعد شيوعها ورواجها ، وخفي علينا سبب اطّراحها هل هو لشك في توجيهها اللغوي ام لانكار نسبتها والحاق ياء المصدرية بها . ولا يبعد ان يكون اول جانٍ عليها المجمع العربي بدمشق ، حين عنّ له ان يستدرك على كتاب تذكرة الكاتب قوله « التنبيه على اهم الغلطات » وعلّق عليه « ان اهمّ افعل تفضيل من فعل همّه الامر اذا اقلقه واحزنه » (المجلة ، ١٩٢٤ ، ص ٢٦٠) ومثل هذا الانتقاد بلفظه وصورته تغرير للقراء وتضليل للآراء . لان صفة اهم بمعناها المجازي كانت

١) وفيات الاعيان ٢ : ٤٦٠

٢) ارشاد الاريب لياقوت ٦ : ١٤٨

ذائعة متداولة منذ صدر الاسلام. قال الشابشتي: «كتب المأمون كتاباً بخطه الى عبد الله بن طاهر يُقسم عليه ان يحوّل مضربه من وجه بابك الى وجه خراسان فان خراسان اهم من المملكة كلها بعد الحضرة. فمضى لوجهه الى خراسان حتى وافى نيسابور وكتب الى المأمون: «اني وافيت نيسابور فوجدت حولها عشّ المارقة ووجدتها اهمّ الكُوَر والمهمّ ابدًا ابدى واولى» قال: فأعجب المأمون من الكتاب بهذه اللفظة ولم يزل الكتاب يتذاكرونها بينهم[1]». «قال ابو علي محمد بن العلاء الشجري: «لما تقلد عبيد الله بن سليمان الوزارة للمعتضد رفع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر اليّ رقعة سألني عرضها على عبيد الله بن سليمان فكان فيها:

ابى دهرنا اسعافنا في نفوسنا واسعفنا في مَن نُحِلّ ونُعظِمُ
فقلت له نُعماك فيهم أتِمَّها ودعْ امرنا ان المهمّ المقدَّمُ[2]

وفي كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري «كان ابو العباس الطوسي يتقلّد في ختم الكتب فشكا يحيى بن خالد الى الرشيد تأخر الكتب فامره ان يكاتب العمال عن نفسه وامر كاتبه ان يكتب عنه في المهمّ» (ص ٢١٣

والشواهد على هذا الاستعمال اكثر من ان تمدّ فحسبنا ما تقدم منها.

واما الحاق ياء المصدرية بافعل التفضيل فقديم ربما سبق الاسلام سمع منهم في النسبة الى اول كما في البيت:

قضى هرم يوم المريرة بينهم قضاء امرئ بالاوليَّة عالمِ[3]

وللفرزدق في مدح زين العابدين:

ايّ الخلائق ليست في رقابهم لأوليَّة هـذا او له نِعَمُ...
من يعرف الله يعرف اوّليَّة ذا فالدين من بيت هذا ناله الامم[4]

ومثلها في كتب اللغة: الالمعية والاريحيّة. وفي اصطلاح المتأخرين: الافضلية، والارجحية، والاغلبية، والاكثرية، والاقلية، وما اشبه فلا لوم ولا تثريب على من استعمل الاهمية اليوم.

١) كتاب الديارات، برلين، ٥٨ – ٥٩
٢) الديارات، ٤٨
٣) البيان والتبيين للجاحظ، المطبعة العلمية، ٤٧
٤) الاغاني، طبعة بولاق، ١٤: ٧٨

والمُهِمّ في الدول المصرية معنى مُحدَث وهو اطلاق الكلمة على كل ما احتُفِل به من دعوة ووليمة واجتماع في الافراح والاحزان والمواكب والاعياد والاعمال السلطانية نذكر منها الشواهد الآتية بحسب تواريخها :

« في العشر من ذي الحجة سنة ٦٩٢ كان طهور السلطان الملك الناصر . . . وكان ذلك آخر فرح ومهمّ عمله الملك الاشرف »[1].

« سنة ٧١٣ ندب السلطان الامير بدر الدين بن التركماني لعمل جسور الجيزة وقناطرها واستدعى المهندسين . . . وخرج العسكر جميعه والامراء بضافيهم للعمل في ذلك فكان مهمّاً عظيماً »[2].

« سنة ٧١٦ مرضت زوجة الامير طغاي فعادها السلطان مرارًا فلما ماتت نزل الامراء كلهم للصلاة عليها وعمل كريم الدين لها مهمّاً عظيماً »[3].

« سنة ٧١٩ الملك المؤيد صاحب حماة . . . اركبه الملك الناصر في القاهرة بشعار الملك وأبهة السلطنة ومشي الأمراء والناس في خدمته . . . وقام له القاضي كريم الدين لكل ما يحتاج اليه في ذلك المهمّ »[4].

« سنة ٧٢١ ولد للسلطان من خوند طغاي ولد سماه انوك . . . فعمل السلطان عند ولادتها مهمّاً عظيماً للغاية »[5].

« سنة ٧٣٢ كتب الى الامير تنكز نائب الشام ان يحضر ومعه نائب حماة لحضور مهمّ الامير انوك على بنت الامير بكتمر الساقي »[6].

« سنة ٧٥٥ خرج السلطان الى ناحية سرياقوس على العادة ومعه والدته وحريمه وجميع الامراء . . . وعمل الخوند تطلوملك امه مهمّاً طبخ فيه الطعام بنفسه وكان مهمّ يخرج عن الحد في كثرة المصروف »[7].

وهلم جرًّا وكان يقال قديماً في هذا المعنى « الصنيع » ورد في كلام الفصحاء.

---

١) تاريخ حوادث الدهر وابنائه للجزري ، باريس ٦٧٣٩ ، ص ١٧٦
٢) السلوك للمقريزي ، خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ٤٣
٣) الكتاب المذكور ، ص ٥٠
٤) فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٢٠٤
٥) السلوك للمقريزي ، خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ٦١
٦) الكتاب المذكور ، خزانة الفاتيكان ٧٥٩ ، ص ٩٤
٧) السلوك ، خزانة باريس ١٧٢٧ ، ص ١٨

من الكتاب والشعراء. وهذه بعض الشواهد على استعماله نبدأ منها بقول ابي الفرج الاصبهاني :

« كان بعض ولاة الكوفة يذمّ الحيرة في ايام بني امية فقال له رجل من اهلها . . . ادعُ ما شئت من لذات العيش فوالله لا اجوز بك الحيرة فيه قال : فاصنعْ لنا صنيعاً واخرجْ من قولك »[1].

وفي مروج الذهب للمسعودي :

« بلغ المأمون خبر عشرة من الزنادقة . . . فامر بحملهم اليه . . . فلما جمعوا نظر اليهم طفيلي فقال : ما اجتمع هؤلاء الا لصنيع فدخل في وسطهم »[2]

وفي العقد الفريد لابن عبد ربّه :

« اقبل طفيلي الى صنيع فوجد باباً قد أُرتج ولا سبيل الى الوصول فسأل عن صاحب الصنيع » (٢ : ٢٧٧) .

وفي نفح الطيب للمقري :

« دخل القاهرة ابو الحسن بن سعيد صاحب كتاب المُغرب في حلى المَغرب فصنع له ادباؤها صنيعاً في ظاهرها » (١ : ٤٥١) .

« يُحكى ان الناصر لدين الله لما اعذر لاولاد ابنه ابي مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعاً عظيماً بقصر الزهراء » (١ : ١٧٥) .

للوزير الجزيري من قصيدة :

وانى الصنيعُ فحين تم تمامه في الصحو انشا وَدْقَه يتدفّقُ

« وكان السبب في هذه الابيات ان المنصور صنع في ذلك الاوان صنيعاً لتطهير ابنه عبد الرحمن وكان عام قحط . . . فلما كان يوم ذلك الصنع نشأت في السماء سحابة عمت الافق ثم اتى المطر الوابل » (١ : ٢٤٨) .

« قال ابن الاحمر : وانشد ابن زمرك في الصنيع المخصوص بعمنا الامير ابي عبدالله :

ولما دعوت الناس نحو صنيعه اجابوا لهم من جانب الفور داعيا (٤ : ٢٠٣و٢٠٧)

---

١) الاغاني ، طبعة الدار ، ٢ : ٣٥١

٢) بهامش نفح الطيب ، ٣ : ٢٧٦

دفائن الخزائن

تذكرة ابن العديم

من اشهر ما عرف من المجاميع باسم « التذكرة » تذكرة ابن حمدون الكاتب البغدادي (٤٩٥ — ٥٩٢ = ١١٠١ — ١١٩٥) رتبها على خمسين باباً طُبع منها الباب الثاني في الادب والسياسة في ستة فصول ، في مطبعة النهضة بالقاهرة ، سنة ١٣٤٠/١٩٢٧ . ولا تزال بقية الاجزاء مخطوطة متفرقة في الخزائن الشرقية والغربية ، وصفها كاتب جلبي بقوله : « انها مجموعة من احسن المجاميع جمع فيها التاريخ والادب والاشعار والنوادر »[1] . وتليها في الامتاع والاتساع تذكرة صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ (١٣٦٢ م) ومنها اربعة مجلدات رقم ٤٢٠ (ادب) في دار الكتب المصرية . وفي كشف الظنون ان الاصل في ثلاثين مجلداً « جمع فيها نوادر الامثال والاشعار ولطائف الادبيات نظماً ونثراً »[2] . ولكن يستفاد من قول الصفدي نفسه في الاجازة الملحقة في آخر كتابه « الحسن الصريح في مئة مليح » المخطوط بقلمه في دار الكتب المصرية (رقم ٥١٢٠ ادب) ان التذكرة بتاريخ ثالث شوال سنة خمسة واربعين وسبعمائة (١٣٤٥ م) كانت اربعة وعشرين مجلداً فقط . وقد طالعنا في الدار هذه المجلدات الاربعة ولم نجد ما يُحتفظ به منها سوى بعض ابيات في الجزءين الثالث عشر والرابع عشر . ولكن عثرنا في الجزء الثامن والاربعين على ارجوزة له جامعة كان نظمها قبلاً في ذكر من تولى امر دمشق من الخلفاء والملوك والنواب ودعاها « تحفة ذوي الالباب في من حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب » (ص ١٤٥ — ١٦٥) وهي تصلح لمارضة النسختين الموجودتين من هذه الارجوزة في خزانتي باريس وبطرسبرج . وتليها في التذكرة « رسالة تشتمل على ذكر من ولي امرة دمشق المحروسة في الاسلام

١) كشف الظنون ، طبعة اوربة ، ٢٥٥ — ٢٥٦

٢) « « « « ٢٦٢

او دخلها من الخلفاء وغيرهم مرتبين على حروف المعجم » (ص ١٦٦ – ١٨٩) ولا نعرف لهذه الرسالة نسخة اخرى .

وقد اسعدنا التوفيق بالوقوف في دار الكتب المصرية ايضاً على نسخة مصوّرة عن الاصل بعنوان « تذكرة ابن العديم » بخط المؤلف ، كما يستدلّ من الورقة ١٧٦[1] . وهي في مجلد ضخم في ٤١٠ ورقات (رقم ٨٠٦٩ ادب) اوله الجزء الخامس وآخره الجزء السادس عشر فيكون الناقص منه اربعة اجزاء فقط . وابن العديم هو كمال الدين ابو حفص عمر بن هبة الله بن ابي جرادة العقيلي الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠/١٢٦١ – ١٢٦٢ مؤلف كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » . ومنه نسختان في خزانتي باريس وبريتيش موزيوم .

ولم نهتدِ الى من تكلم على تذكرة ابن العديم بين مؤلّفي كتب التاريخ والتراجم والادبيات . ولعلّ إغفالها كان لندرة نسخها او انها بقيت مسودة للمصنف يدوّن فيها احسن ما قرأه في مطالعاته من الاخبار والنوادر والاشعار او سمعه من والده وشيوخه من الملح والطرائف . وهو كثيراً ما ينقل من خطوط الرواة بغاية الضبط والامانة . ولذلك اقبلنا على تصفح تذكرته بزيد الانتباه والشوق ورغبنا عن كل خبر او شعر مبتذل كالمدح والغزل لا يتميز بظرف او جدّة وغرابة . وهذا ما وقع عليه اختيارنا العاجل في الاجزاء الاثني عشر الباقية من التذكرة نورده جزءاً جزءاً على التوالي ، على امل ان لا يخلو من فائدة وعائدة . واكثره أُنُفٌ لم يُستخرج او لم يشتهر شهرة كافية .

واول ما افتتح به ابن العديم كتابه بعض حماقات كانت تنسب في ايامه لاهل حمص ، وكنا نشرنا في « الخزانة الشرقية » في الجزء الثالث مقالة بعنوان : « الخرافات الموضوعة على مجاذيب حمص قديماً » (ص ١ – ١٤) فلا نتمالك اليوم من ان نضم اليها ما يجيء.[2] قال ابن العديم :

---

١) اذا صحّ هذا الاستدلال يتبين ان خط ابن العديم لم يكن مقارباً لخط ابن هلال وابن مقلة كما زعموا.

٢) جاء ايضاً في كتاب جمع الجواهر في الملح والنوادر لابي اسحق القيرواني : « قال علي بن عيسى الوزير : كان يبلغني عن اهل حمص تغفّل فاظن اكثره تشنيعاً حتى دخلتها فاذا برجل بين يدي حجّام وقد مصّ عنقه بمحجمتين لم أرَ اكبر منها وهو يشرط في وسط عنقه

– « قرأت بخط عبد المنعم بن الحسن بن اللعيبة الحلبي » :

حكى لي ابو غانم عشاير بن كامل من اهل معرة النعمان انه اجتاز بحمص سنة ثلث وخمسمائة وقد طهّر القاضي السديد جمال القضاة ابو الحسن علي بن هندي ابنة له وعبرت في سوق حمص راكبة على فرس على مخدة فوق السرج ومن خلفها راكب يمسكها وقدامها البوقات والطبول وغير ذلك مما يكون بين يدي المطهَّرين. فرأيت اثبات هذه النكتة وكنا بحمص فلتعتبر. وشاهدت هذا القاضي فوجدت رتبته تزيد على ما ذكره وحكاه اعاذه الله مما ابتلاه.

– ونقلت من خطه ايضاً :

دخلت الى حمص في شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة وهي السنة التي نزل عليها فيها صاحب دمشق ورعى زروعها وخرب حصونها فحكى لي رجل يعرف بعبد الواحد ثقة من اهل حمص عند ملكها صمصام الدين ان احد اهلها لما نزل العسكر عليها واجفل الناس (ص ٢) واشتغلوا عن قماشهم الا ما خفَّ منه كان في الليل يدور ومعه زقّ على دور الناس فيحمل من النبيذ ما وجده ويعود الى بيته فيصبّه في البير الى ان نقل ما يزيد على ثلثمائة خابية منه فلما رحل العسكر عنها وعاد الناس الى منازلهم وفقدوا النبيذ تحدث بعضهم مع بعض فهذا يقول أخذ لي من داري خمس خوابي نبيذ وهذا يقول اخذ لي ثلاث وهذا يقول اكثر وذاك اقل فقال ذلك السيد لجيرانه : عندي من النبيذ ما أبيعكم منه سنة لا تشغلوا قلوبكم وهو ممزوج فقالوا له : انا نخاف عليه ان يحمّض ويتغير لاجل مزاجه فأرنا منه شيئاً فاستقى لهم من البير بالدلو وحمله اليهم فشربوه فاذا هو ماء. فقالوا له : ما هذا ؟ فحدثهم فضحكوا منه. وقال لهم : تعبنا وافسدنا صومنا ولم نربح شيئاً.

فلما رآني اقبلت في موكب قال : من هذا ؟ فقال الحجام : هذا الوزير علي بن عيسى فقام والمحجمة في عنقه والدم يسيل على كتفيه وظهره وقال : السلام عليك ايش كان خبرك ايها الوزير ؟ قلت : خيراً وانصرفت فحلفت ان لا ادخل حمص ونزلت بظاهرها حتى انجزت ما أتيت فيه» (ص ٢٦١)

وفي حكاية ابي القاسم البغدادي :

حماقةٌ مني ومذ كنتُ لي حماقة تعرض حمصيَّة (ص ١٣٧)

فتحققت ما ذكره الحافظ من فساد عقول اهل حمص وأضفتها الى خبر القاضي (ص ٣)

وقرأت بخطه :

وصل من حمص الحاجب ابرهيم رسولاً من مالكها الى حلب في شعبان سنة تسع عشرة وخمسمائة وصحبته بعض قضاتها فمضيت اليه افتقده واقضي حقه وهو في دار الضيافة . فوجدته راكباً والقاضي في الدار فسلمت عليه وهنأته بالسلامة وسألته عن ولد لي خلفته بحمص ينوب عني في حفظ الاهراء بها فقال : هو على جملة السلامة في شغله كما تعرف فقلت : قد عرفت ذلك لكنه لا فائدة له ولا جامكية وهذا صعب شديد فقال : « قد عرفت ما هو عليهم » باعراب فقلت : ما قلتَ يا مولاي القاضي ؟ فقال : قد عرفتَ ما هو عليهم ثانية . ففكرت فاذا هو يريد « ما هم عليه » ولا فرق عنده بين اللفظين . فرأيت ان أثبتها في التذكرة وأضيفها الى خبر القاضي السديد وطهور ابنته .

هذا ما نقلته من خط ابن اللعبية . وحكى لي شيخ من اهلها يقال له الرضى اسماعيل بن عشاير شيخ حسن صدوق عن معلم بحمص يقال له العبث قال وكان معلمي وكان يُتهم ... (ص ٤) (وبعد هذه العبارة نقص لا يدرى مقداره) .

— قرأت على ظهر كتاب بخط بعض اهل الادب : انشدني ابو الفضل المعمر ابن الحسين الصائغ لبعض اهل العراق وقد ورد على سيف الدولة بلح هدية وانشده شعراً فيه :

قبول الهدية أكرومة ... وحاشى الامير يردّ الكريم
وان الملوك على قدرها ... لتقبل نشابة او قلم
واني انيت ببدو الطعام ... وخاتمه عندما يُختتم
وهذا لعمرك جهد المقلّ ... لمن قد تمكن منه المدم (ص ٦)

الجزء السادس

— محمد بن بشير :

خلوتُ في البيت ارضى بالذي رضيت ... به المقادير لا شكوى ولا شغبُ
فردًا تحدثني الموتى وتنطق لي ... عن علم ما غاب عني عنهم الكتبُ
هم مؤنسون وألاف غنيت بهم ... فليس لي في انيس غيرهم اربُ

قد من جلـاء لا جليسهمُ ولا عشيرهم للشرّ مرتقبُ
لا بـادرات الاذى يخشى رفيقهم ولا يلاقيـه منهم منطق ذَرِبُ
ابقوا لنـا حِكماً تبقى منافعهـا اخرى الليـالي على الايـام وانشعبوا
فـأيّما ادب فيهم مـددت يـدي اليـه فهو قريب من يـدي كثبُ
ان شئت من محكم الآثار ترفعـه الى النبيّ ثقـات خـيرة نُجُبُ
او شئت من عرب علماً بـاولهم في الجاهليـة انبتني بـه العربُ
حتى كأني قـد شاهـدت عصرهم وقد مضت دونهم من دهرهم حقبُ (ص ٩)

— انبأني غير واحد من شيوخي عن ابي طاهر السلفي قال انشدني ابو الثناء حامد بن ثابت الغزي بالاسكندرية انشدني ابرهيم بن صدقة لابن معمة الحمصي في الديك:

يا ابن اقيال وائل والكرام الصيـد من تغلب قروم القروم
والامير الذي عليه امارات الما لي من ، حـادث وقديم
قد مدحت الامير بالامس منثو رًا وجئت الغـداة بالمنظوم
فـاستمع قصتي وفرّج باحسا نك ما بي من طارقات الهموم
لي ديـك حضنته وهو في البيضـة من منصب كريم الخيم
ثم ربّيتـه كتربية الطفـل رضيعاً وعنـد حال الفطيم (ص ١٤)
يأكل المنو كيف مـا شاء من مالي كأكل الوصيّ مال اليتيم
وهو عندي في صورة الولد البـرّ وفي صورة الشفيق الحميم
ابيض اللون افرق العر ف نظّار بعين كأنها عين ريم
وعلى نحره وشاحـان من شذ ر بهيج ولؤلؤ منظوم
رافع راية من الـذهب المشرق يسمو جـا كسمي الظليم
واذا ما مشى التبهنسَ مشي الطرق المنثني من الخرطوم
وسم الارض وسم طيّ كتاب بخواتيم كاتب مختوم
وله خنجران في قصب السا قين قـد رُكّبا كحفظ الحريم
وعليه من ريشه طيلسـان صيغ من صنعة اللطيف الحكيم
وجميع الديوك تشهد في حمص لـه بالجلال والتعظيم
يتجاوبنَ بالصباح مشيرا ت اليه في ذلـك التسليم (ص ١٥)
واذا ما رأيته بين خمس من دجاجاتـه كبار الجسوم
قلت ملك يخدمنه فتيات يتهادينَ بين زنج وروم
وترى عرفه. فتحسبه التا جَ على رأس كسروي كريم
ثاقب العلم بالمواقيت ليـلًا ونهارًا وحاذق بالنجوم
وبحثّ الجيران حولي على البرّ كحثّ المدير كاس النديم
واذا قمتُ للصـلاة دعوت الله بـالعزّ والنعيم المقيم
لشريف ابي المعالي بن سيف الدو لة السيـد الكريم الرحيم

وله ايها الامير عليّ العهد في سالف الزمان القديم
انه آمن من السوء عندي غير يوم المنيّة المحتوم
وقد احتجت ان اضحي في العيد به حاجة الاديب العديم
وبناتي يقلن يا أبانا انت في ذاك بين غدر ولوم (ص ١٦)
وتراهنّ حوله يتباكينَ بدمع افنده مسجوم
وعزيز سؤال من يفتديه فافدهِ منعماً بذبح عظيم
تبقى في ذاك سنّة لك يبني ذكرها ذكر كبش ابرهيم
عشت في العزّ ما دعا اللهَ داعٍ ابداً بين زمزم والحطيم

(وفي الهامش) : ونظير ذلك ما يحكى عن ابن الراوندي لما نادى الخليفة : كل من يضحي يربط ضحيته على بابه فربط على بابه ديكاً فمر الخليفة فرآه فسأل عن ذلك فقيل له لا يملك سواه فامر ان يربط الى جانبه كبشان فعمد ابن الراوندي الى الديك وربط رجليه وترل عليه بعصاه فسئل عن ذلك فقال الذبيح فُدي بكبشٍ وهذا فُدي بكبشين. فعُدّ ذلك من ملحه. (ص ١٧)

قال عمرو بن بحر : جزت بباب بعض عدول بغداد وهو يخاصم جاريته ويقول لها : تركتِ قلنسوتي على قفص الفاختة حتى تخرا عليها. فقالت الجارية لم اعلم يا مولاي ان الفاختة تحولت فوّارة فقال لها الشيخ : انتِ حرّة ان اويت منزلي بعدها او لابيعنك بدرهم يا زنديقة. (ص ٣١)

الجزء السابع

— انشدنا ابو بحر صفوان بن ادريس لنفسه :

هذي البسيطة كاعب ابرادها حلل الربيع وحليها الازهارُ
وكأنّ هذا الجوّ فيها عاشق قد شفّه التعذيب والإضرارُ
فاذا شكا فالقلب برق خافق واذا بكى فدموعه الامطارُ
فافرط ذلّة ذا وعزّة هذه يبكي الغمام ويبسم النوّارُ (ص ٥١)

قيل ان الشيخ ابا بكر الرازي خرج الى سوق العطارين فاشترى سكرًا فرآه احد اصحابه وهو ابن الركاب الرازي فوقف حذاءه حتى فرغ من شراه وشدّه في ميزره (ص ٥٨) مدّ يده ليأخذه فقال له الشيخ ابو بكر تريد منه شيئاً ؟ فقال لا ولكن احمله معك. فقال له : ما تحتاج فاني احمله انا في كمي وانشد :

لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع الى عياله (ص ٥٦)

— للسابق بن ابي مهزول المعرّي مما نقلته من خطه :

حاب معهد الصبى والتصابي فسقاها الوسميّ ثم الوليُّ
موطني بعد موطني فكأني لغرامي بحبها البحتريُّ
بلدة عذبت فما. زلال وهواء رداؤه سابريُّ
وطعام زاكٍ وراح سلاف ورياض بساطها عبقريُّ
وظباء انيسة وبدور ووجوه مشوقة وقفيُّ
فادها كل الفنون وفيها ما اشتهاه الشرعيُّ والفلسفيُّ (ص ٧٣)

الجزء الثامن

— انشدني والدي رحمه الله لبعضهم :

لعمرك ان ثقات الفتى اذا الدهر ساعده ساعدوا
وان خانه دهره اسلموه ولم يبقَ منهم له واحدُ
ولو كان يعلم ان المريض يموت لما عاده عائدُ (ص ٩٤)

— انشدني بعض المصريين لابن افلح في خليفة عصره وقد وقع له توقيعاً (ص ٩٥) الى الوزير فلم يتلقّه بالقبول :

خليفة الله قد وقعت لي كرماً الى الوزير ولكن من يتمّمهُ ؟
فكل من جئتهُ بالصك ينبذه نبذ الحصاة كأن الصك يشتمهُ
فاْمِ ان كان هذا قد علمت به وأمِ ان كان هذا لست تعلمهُ (ص ٩٦)

— نقلت بخط بعض المتقدمين عن ظهر كتاب :

كان والد الشيخ ابي عبدالله بن المنيّرة حائكاً اسمه يوسف فضى الى بغداد وقرأ بها العلم وعاد الى كفرطاب فقعد يعلم الصبيان ويقرئ القرآن . وكان اذ ذاك بكفرطاب معلم يعرف بابن الأُصيلح وكان بينهما (ص ٩٧) من المباينة والمشاحنة كما جرت العادة ان يكون بين المعلمين . فعمل ابن الاصيلح هذه الابيات :

ايُّ عقل لحائك في الانام لا ولو قيدَ نحوه بزمام
نصفه نازل مع الجنّ في البير وباقيه قاعد من قيام

فبلغت يوسف فعمل فيه :

ما طار بين الحائكين اقل عقلاً من معلّم
ولقد دخلنا في الصنا عة من قريب ربّ سلّم (ص ٩٨)

— كان والدي رحمه الله قد اخبرني ان مرتضى الدولة لما قصده صالح بن مرداس تأهب له وجمع العسكر واهل حلب حتى اخرج معه اليهود والنصارى.

وان عسكر صالح وصل الى اطراف عسكر ابن لولو فسمعوا يهودياً يخاطب آخر وهو يقول له : والك حفيظة اطمزه واتأخر واياك يكون خلفه آخر بطمزك بطماره يخيب بنيتك الى الدواغيث (ص ١٠٢) وهذه الفاظ يستعملها اليهود فيما بينهم . قال فلما سمع اصحاب صالح ذلك طمعوا فيهم وقالوا : هؤلاء يهود وكبسوهم فقتلوا مقتلة عظيمة ولم يدخل البلد الا القليل .

قال لي والدي : بلغني ان بعض من سلم دخل حلب فنظرته امرأة من طاق دارها فقالت له : دُبير رجعت ? فقال لها : دُبير من لم يرجع (ص ١٠٣)

— سمعنا ابا العلاء بن ابي عبيد الله بن ابي الندى ينشد لنفسه في صبي مملوك دخل المدرسة مع الاولاد عليه لباس اخضر . فاقترح عليه ان يعمل فيه شعراً فقال فيه بديهياً :

وَمُهَفهَفٍ فاق الهلال جماله وقوامه ازرى بغصن البان
انكرته لما بدا في خضرة فاجاب تلك ملابس الاغصان (ص ١٠٤)

— لابي منصور الديلمي في ولده :

ديلموه وليس فيه من الديلم الا القبا مع الكلكات
فهو في مشيه فتى شرس الخلق وفي خلقه فتى الفتيات
ترسه حسنه وزوبينه عيناه فهو المات قبل المات (ص ١١٣)

— ولابي محمد عبد المنعم بن سعيد وانشدنيها ولده في صاحب لحية :

له لحية يقضي بديع جمالها على من لها فيها بان يجلد الحدا
وعهدي بها كانت عذاراً منمنماً فمن اجل ذا قد صرت ارعى لها العهدا
وكم قائل في ساقه الشعر نابت وذلك مما يوجب الهجر والصدّا
فقلت له يا انقص الناس همة واسخفهم رأياً واخطأهم قصدا
الم ترَ ان النابتات تشبهاً بمان مكان الشعر نقشاً وما اجدى (ص ١٢٦)

الجزء التاسع

— اخبرني ابو الفضل بن سندي قال بلغني ان الناشئ الأحقي وكان من قرية الاحص انشد سيف الدولة بن حمدان قصيدة يمدحه بها ولم يكن عنده حينئذ مال فوعده بالجائزة اذا وصل اليه الحمل اظنه من البلاد الشرقية فخرج من (ص ١٦٢) بين يديه فوجد على باب داره كلاباً مربضة من كلاب الصيد

يذبح لها السخال عند الولادة وتطعم اياها فعاد الى سيف الدولة وانشده :

رأيت بباب داركم كلاباً مكرّمة يُغذّين السخالا
فهل في الارض اعذر من اديب يكون الكلب اصلح منه حالا

ثم خرج الى الاحصّ الى منزله . فاتفق ان جاء الحمل لسيف الدولة بعد مدة فضلّ في الليل بغل عليه مال مقداره عشرة آلاف دينار فجاء الى باب دار الناشئ وفيه قش فظن انه لص فخرج فوجده بغلًا فاخذ المال وطرد البغل ثم دخل الى حلب ودخل الى سيف الدولة وانشده ابياتاً منها :

ومن ظنّ ان الرزق يأتي بحيلة فقد كذبته نفسه وهو آثم
يفوت الغنى من لا ينام عن السرى وآخر يأتي رزقه وهو نائم (ص ١٦٢)

فقال له سيف الدولة : وصل البغل اليك يا ناشئ ؟ فقال نعم . فقال خذه جائزتك . فقيل لسيف الدولة : كيف علم الامير بذلك ؟ فقال : اين قوله : « يأتي رزقه وهو نائم » من قوله : « يكون الكلب اصلح منه حالاً »[1]

الجزء الحادي عشر

— قرأت بخط ابن منير ابن افلح البغدادي يقوله لدُبيس بن مزيد

والله لو كتب الامان م لك الامان بماء زمزم (ص ٢٠٥)
واتى محمد شافعاً من بعده عيسى بن مريم
ما كنت الا داخل الحمام اسوة من تقدم

(وفي الهامش) من عادة الخلفاء اذا غضبوا على الوزراء حبسوهم في الحمام (ص ٢٠٦)

— حدثني الشيخ ابو عبدالله محمد بن ابي سعد الحلبي قال : سمعت الشيخ ربيع بن محمود المارديني يقول :

جاء في بعض السنين حاج السرو قال ومن عادتهم انهم يخرجون متفرقين فمنهم من يخرج قبل رجب ومنهم من يخرج بعده فتقدم منهم قفل في بعض السنين الى مكة . فخرجت معهم امرأة وهي حامل واخذت فروها وعصاها على كتفها وجرابها وركوتها على الكتف الاخرى . قال : فلما توسطوا الطريق

١) وردت هذه الحكاية في ياقوت في كلام على « الاحصّ » وهي هنا اصح واتم .

ادركها الطلق في بعض الطريق فلجأت الى شجرة فوضعت ابناً وماتت ودفنوها وبقي الابن ليس له من يرضعه فافكروا في امره فلم يكن له حيلة فاخذوه ولفوه بالفرو الذي كان لامه وتركوه تحت الشجرة (ص ٢١٨) ومضوا فلما قضوا حجهم وعادوا اجتازوا بذلك المكان فقالوا : ههنا ماتت فلانة وههنا تركنا ولدها فهلموا لننظر ما كان منه فجاؤوا الى المكان الذي تركوه به فوجدوه حياً وعيناه تبصان وهو ملفوف على الحالة التي تركوه فعجبوا من امره وقالوا نحمله معنا فحملوه فالتفتوا عن قريب من ذلك المكان فرأوا ظبية قد تبعتهم وهي تمشي خلفهم فوضعوا الصغير على الطريق وابعدوا عنه فجاءت الظبية اليه وارضعته حتى شبع فجاؤوا اليه وحملوه وساروا والظبية خلفهم كلما احتاج الطفل الى الرضاع وضعوه لها وهي ترضعه هكذا مرحلة مرحلة الى ان وصلوا الى القرية التي كانوا منها فوجعت الظبية وتركتهم (ص ٢١٩)

الجزء الثاني عشر

. دخل لص على حميد بن علي الختاني (قرية من قرى المعرّة يقال لها ختان) فسرقه (ص ٢٥٣) ولم يعلم الوالي فلما علم استدعاه وحبسه اذ لم يعلمه فعمل له هذه الابيات :

قل للامير ابن كثير الذي فاق الورى في العلم والعقلِ
وفارس الخيلين يوم الوغى ومغرس الاحسان والفضلِ
جرت امور ما سمعنا بها في زمن الانصاف والعدلِ
اللص في منزله آمن والحبس فيه صاحب الرحلِ
لو جاز هذا الحكم بين الورى لطولب المقتول بالقتلِ

فلما انشده اياها اطلقه (ص ٢٥٤)

الجزء الرابع عشر

— انشدني عز الدين علي بن محمد السرخسي البغدادي النحوي قال: رأيت ببغداد على ثوب اصفر : (ص ٣٨٥)

انظر الى لابسي وانظر اليَّ وكنْ … من مثل ما حلَّ بي منه على حذرِ
هذا اصفراري يراه الناظرون وما … في القلب من حبه يخفى عن النظرِ
اموت في خلوة بالليل في كمد … لولا انتظار وصال منه في السحرِ
اقول عُجباً اذا ما رام يلبسني … ما كنت اطمع ان اعلو على القمرِ (ص٣١٦)

(وبالهامش) هذه الابيات للمبارك الدهان قال : طلبت مني حظية من حظايا الخليفة ان اصنع لها ابياتاً تكتبها على ثوب اصفر فقلت .

— نقلت من خطّ الشيخ الامام ابي منصور موهوب بن الخضر الجواليقي وانبأناه عنه شيخنا ابو اليمن الكندي انشدنا الشيخ الامام ابو زكريا يعني التبريزي قال : انشدنا الحكيم ابو علي الحسن بن عبد الرحمن الثقفي قال : انشدنا الشيخ ابو منصور عبد الملك اسماعيل الثعالبي لنفسه :

من كان ينفعه الادبْ … ويُجلّه اعلى الرتبْ
فلقد خسرت عليه ما … وُرّثت من امٍّ وابْ
كم ضيعةٍ كانت تصو … نُ الوجه عن ذلّ الطلبْ
اتلفتها لا في القيا … نِ ولا هوى بنت العنبْ
بل في الجوائح والحوا … دثِ والعوارض والنُّوَبْ
كم قلت لما بعتها … وحصلت في اسر الكُرَبْ
ذهبت دجاجتنا التي … كانت تبيض لنا الذهبْ

ومن خطه وانشدنا يعني التبريزي قال انشدنيه ابن شبل لنفسه (في الباذنجان)

وكأنما الباذنج سود حمائم … اوكارها خيم الربيع المبكرِ
لقطت مناقرها الزبرجد سمسماً … فاستودعته حواصلًا من عنبرِ (ص٢٤٢)

الجزء الخامس عشر

— محمد بن عبدون السوسي الوراق له من قصيدة وذكر اشتياقه وحنينه الى وطنه اولها :

باللهِ يا جبلَ المعسكر دع ريح الجنوب لعلها تسري
يا قصر طارق الذي طرقت احشايَ منك بلابل الذكرِ
والله ما اقصرت عنكِ قلىً لكنني اقصرت بالقسرِ
يا برد ظلك بالاصيل ويا ريّاك عند فظاظة الدهرِ

منها في ذكر معشوق له هناك :

ولثمتُ ثغرًا فاح عنبره من غير ما طيب ولا عطرِ
وضممت انفاسي عليه وقد اشفقت من نفَسي الذي يسري
فكأنّ صدري لا ضلوع له وكأنّ قلبي بانَ عن صدري
لو استطيع سبحتُ من طرب شوقًا اليك (١ سواد ذا البحرِ
حتى اقبل جانبيك كما قبلت فيك مراشف البدرِ
وافيض اجفاني لديك كما فاضت عليك دماءها تذري (ص ٢٨٥)

الجزء السادس عشر

– انشد ملك النحاة لنفسه من ابيات يصف امرأة : (ملك النحاة ابو نزار الحسن بن ابي الحسن البغدادي)

جارية كلما خضعت لها قالت عدمتُ النحاة والشعرا
طويلة القد واللسان فما ادري أأهجو ام امدح القِصرا
احسن منها عندي بدقّقة(٢ ساذجة لوزها قد انتشرا
فاللبن الفارسي اضرسني والكشك في ذي الديار قد كثرا (ص ٢٩٥)

– قال ملك النحاة : للحيص بيص بيتان وددت لو باعنيها بجميع شعري وهما :

١) الكاف في اليك راجعة الى القصر
٢) في كتاب الوصلة الى الحبيب في دار الكتب المصرية (رقم ٧٦ علوم صناعية) وصف للمدققات ص ١٥٠ – ١٥٢ .

سأرحل من بغداد في طلب الغنى الى بلدة يحنو على اميرها
الى بلدة فيها الكلاب بحالها كلاب وما رُدَّت اليها امورها (٢٩٤–٢٩٥)

قلنا ومن هذه المختارات التي لم نستقص فيها ولم نتجاوز فيها الحد الذي رسمناه لنفسنا يتضح بُعد ما بين تذكرتي ابن حمدون والصفدي وتذكرة ابن العديم . وهي خالية من كل تبويب وتنويع وترتيب كما في التذكرتين . وقد امتزجت فيها النقول والروايات امتزاج الطُّرَف بالدرر في غير سلك ولا نظام فكان ابن العديم يلتقط منها ما يقع عليه استحسانه وما يسمح به زمانه على هيئته حباً بالتذكر بها والرجوع اليها عند الحاجة فما كان احقّه ان يسميها أسوة بالثعالبي : احسن ما قرأت وسمعت .

مع الكونت دي ڤولني

في لبنان وسورية

بقلم يوسف غصوب

من الاسماء ما هو حافلٌ بالذكريات والصور مثقلٌ بالموحيات والعبر ، فلفظة الشرق تفتح ، بمجرد النطق بها ، لاسيما في بُلدان الغرب ، آفاقاً واسعة تضطرب بالاساطير والحقائق ، وتموج بالالوان والانوار وتَغُصُّ بالمبهمات ، فالشرق مطلع الشمس ، ومهد البشرية ، ومهبط الوحي ، وفجر الفلسفة ، وموطن المدنيات الغابرة والديانات البائدة والباقية . والشرق بابل وصور واورشليم وآثينا والاسكندرية ومكة ودمشق . والشرق سُقراط وافلاطون وهوميروس والفردوسي والغزالي وسليمان الحكيم والاسكندر والفراعنة . والشرق سميراميس والزَّباء وكليوبطرا ... ومهما اعددّ فلن أبلُغ غاية مما تشتمل عليه هذه اللفظة الساحرة .

ومن الالفاظ ما يعبق فيه الطيب كشيراز ، وتنشره الاساطير كبغداد ، ويفيض منه الجمال كلُبنان . فلا غرابة ، والحالة هذه ، ان يكون الشرق حُلم الشعراء ، ومطمع الفاتحين ومَطمَح الكتاب والمؤرخين ، وغاية الرَّحالةِ والحُجّاج ؛ وان يكون ، منذ كان ، على صلة دائمة بالغرب تتّسع او تضيق ، وتعظُم او تضؤل ، تبعاً للاحوال السياسية والدينية والتجارية . فالشرق والغرب ما فتئا يتعاوران مُلاءة الفضل ، ويتبادلان تيّارات الحضارة والثقافة ، فتارةً يكون فضل الشرق على الغرب وطوراً يكون الامر عكس ذلك . ومن العبث ان نُلم الآن ولو المامًا خاطفاً ببعض ما بينهما من اواصر وثيقة قديمة او حديثة وما تقايضاه على مرّ الايام ، من مبادئ دينية ، ومذاهب فلسفية ، واطوار اجتماعية . فهذا لا يتيسر الا في المُجلدات الضخام والدروس الدقيقة . فنُجْلِّ ما اطمح اليه مرافقة بعض الكتاب والشعراء الفرنسيين ، ولاسيما الكونت دي ڤولني ، في رحلاتهم الى الشرق ، وبالاخصّ الى لبنان .

كانت الديانة، منذ عصور النصرانية الاولى من اوثق العُرى التي ربطت «غالية» باراضي الشرق المقدسة. وكان النصارى او المتنصرون يتوقون الى زيارة موطن المسيح والتبرّك بالاماكن التي تجسّد فيها وترعرع وبشّر وصُلب، والى لثم التراب الذي مسّته قدماه. فكانوا، على بعد الشقّة وخطر الطريق ووعورتها، يقصدون الى فلسطين، مدفوعين اليها بالعاطفة الدينية. ذكر هنري بوردو في كتابه «رحّالة الشرق» زائرًا امّ هذه البلاد في سنة ٣٣٣ للمسيح، ودوّن رحلته في كتاب له قيمةٌ تاريخيّة عظيمة.

وكثر عدد الزوّار والسيّاح. فاتخذ ملوك الفرنج يهتمّون بامرهم، ويسهرون على راحتهم حتى ان شارلمان بنى لهم في القدس مأوى واسع الارجاء يتألف من اثني عشر منزلًا يلجأون اليه ويبقون فيه ما شاؤوا، وانّس فيه مكتبة وشيّد له كنيسة، ووقف عليه كرومًا ومزارع. وكانت الزيارات الدينية تصطبغ بصبغ مختلفة. فمنها ما كان يقوم به الزوّار تورعًا وعبادة، ومنها ما كان تكفيرًا عن الخطايا والآثام، ومنها ما كان يُفرض فرضًا على الملوك والامراء قصاصًا لهم وتكفيرًا عن بعض جناياتهم. ثم تكاثرت الاسفار، وتكاثرت الاحاديث والاخبار عن الاراضي المقدسة، وتولدت الاساطير والاقاصيص. وتدخلت في الامر الغيرة الدينية والمطامع السياسية فكانت الحروب الصليبية. واتسعت على اثرها الصِلات بين الشرق والغرب على اختلاف انواعها وتوثقت زمنًا ثم تراخت الى ان كان عصر الانبعاث فعاود الغرب حنينه الى الشرق. ولم يكن باعثهُ هذه المرة عاطفة دينية او مطمع سياسي بل رغبة ملحة في استيحاء فنه والاطلاع على علومه وفلسفته.

ولم يصبح الشرق مادةً للادب في فرنسة الّا في اواخر القرن الثامن عشر وكان قد ترجم القرآن وبعض المؤلفات العربية وعلى الخصوص الف ليلة وليلة. وطبعت بعض قصص شرقية لفولتير، و«الرسائل الفارسية» لمونتسكيو، وانتشرت التوراة باللغة الفرنسية. ووافق هذا كله ظهور المدرسة الرومانطيقيّة، ومن خصائص هذه المدرسة تطرّقُ المواضيع الغريبة، ومحاولةُ الدقة في أداء الالوان المحلّية. ولا يقتصر هذا التعبير على الالوان وحدها بل يتناول ايضًا

العادات والاخلاق والحالات النفسانية ، مما اهاب بالكتّاب والشعراء والعلماء الى السفر والتغرّب للعودة الى قرائهم بغنيمة غريبة عجيبة . ثم كانت حملة نابليون على مصر ، ووقعت الحرب اليونانية التركية . وظهرت «عبقرية النصرانية» لشاتوبريان ، و« المشرقيات » لفيكتور هوغو ، فتجدد التوقان الى الشرق ، وازداد الازدحام على مناهله ، والتهافت على مناجمه . فجاء علماء الآثار للكشف عن مخبّآت الايام ، وبعث العصور الغابرة ، وجاء علماء الاجتماع لدرس عادات اهله واخلاقهم وشرائعهم . وجاء شعراء الرومانطيقية للتغني بجماله ، والانتشاء من الوانه وانواره . وجاء المرسلون ليبشّروه بالدين ، ورسل السياسة ليُعدّوا طريق الهند ، وجاء التجار والسيّاح والفاتحون . وتوالت القوافل وتعددت حتى اتصلت رؤوس بعضها باذناب البعض الآخر وباتت تلتقي في طريقها بقوافل الشرق الى الغرب . وكان للبنان القسط الاوفر والغنيمة الكبرى من هذا التواصل ، فاصبح على ما هو عليه الان من حضارة وثقافة وغنى ورفاهية ما كان ليحلم بها لو بقي في عُزلته مستقرًا في عُقر داره .

ولكننا لا نتسّل بوضوح الطريق التي اجتزناها الا اذا طوينا العصور القهقرى ورجعنا ادراجنا الى اواخر القرن الثامن عشر ، وجُلنا جولة في الربوع اللبنانية والسورية برفقة احد الكتّاب الفرنسويين ، الكونت دي ڤولني ، الذي زار بلادنا في ذلك الزمن ، وكتب عنها كتاباً على جانب عظيم من الدقة والصراحة والتجرّد . غير انه قبل درس هذا الكتاب الذي هو حجر الزاوية في موضوعنا لا بدّ لنا ان نمرّ مرًّا سريعاً ببعض الشعراء والكتّاب الذين اتوا لبنان واستلهموه وكتبوا عنه .

٥

قلنا ان الشرق اصبح في القرن التاسع عشر مادة ادبيّة راجت سوقها لندورتها واختلافها عن المألوف في البُلدان الاوربية . وكان اوّل من استغلّ هذه المادة شاتوبريان في « رحلته من باريس الى اورشليم » . وقد اوضح في اول كتابه الثاني من سفره الى الشرق بقوله : « انا جئت الشرق لافتش عن صور للشهداء » و« الشهداء » رواية مشهورة له يقُصّ فيها حياة النصارى في اول عهدهم ، وما

كابدوه من اضطهاد وعذاب في سبيل دينهم.

وتبع شاتوبريان في هذه الطريق غوستاف فلوبير ، فقصد الى الشرق ليجمع مواد الملحمة القرطاجية « سلامبو » نشيد المدنية والعبقرية الفنيقية . غير ان رحلته لم تكن الاّ مجموعة رؤوس اقلام وجُمَل مقتضبة يضبط بها ما يراه في تجوّله من مشاهد واخلاق وعادات ضبطَ المصور الشمسي فلا يفوته لون ولا يُخِلّ بحركة . فكان يختلف في ذلك عن شاتوبريان الذي يُسهِب في الوصف وينشئ قطعاً ادبية كاملة تستقلّ بنفسها .

ويختلف شاتوبريان عن لامرتين الذي جاء بعده . فان الشاعر الرومنطيقي لا يكتفي بان يؤدّي لنا صورة ما يرى بل يُكمّل هذه الصورة ويُضيف اليها ما يُحِسُّه ناقصاً فيها ، مستدركاً بذلك ما تكون قد اغفلته الطبيعة . فان تكن المشاهد الطبيعية حالاتٍ نفسانية فان نفس لامرتين مرآةٌ تنعكس عنها العَظَمة والجلال والعواطف السامية . ولنا بوصفه الشهير لوادي حمّانا خيرُ شاهد على ما قدّمنا .

وهناك وصّاف آخر يختلف عنهم جميعاً هو جرارد دي نِرْڤال . فهذا الشاعر اللطيف القريب الى القلب ، العائش ابدًا في عالم من الاحلام ، لا يدري هو نفسه ما نصيب الحقيقة وما نصيب الوهم في كتاباته . فقد يصف شيئاً لا وجود له ، وهو يعتقد انه حقيقة ؛ ويصف شيئاً موجودًا كأنّه غير موجود . فهل عاش هذا الشاعر حياتين في عصرين مختلفين فخلط بينهما ؟ ولا يستبعد هذا فانه قد اعتنق يوماً مذهب التقمّص للاقتران بفتاة درزية وهمية توهّم أنه يُحِبّها . ومن الغريب ان بعض النقدة الفرنسويين يشكون برحلته الى الشرق ، وقد فتّش موريس بارس وهنري بوردو عن أثر له في الاماكن الشرقية التي مرّ بها فلم يجداه .

ومن مشاهير الفرنسويين الذين زاروا الشرق في اواسط القرن التاسع عشر ارنست رينان . فانه جاء لبنان على رأس بعثة اثرية للتنقيب في خرائب جبيل . فوجد الآثار وفقد الايمان . وما «حياة يسوع» في نظر علماء التاريخ والمحققين من النقاد الا رواية خيالية لا ترتكز في جوهرها على شيء راهن من الحقيقة .

ثم تكاثر روّاد الشرق وتباينت غاياتهم ومآربهم ، ولا سبيل الى عدّهم فهم كُثُر . غير أنه لا بد لنا من ذكر ميشو ، مؤرخ الحروب الصليبية ، ولوتي ،

الرواتي الشهير،ولويس برتران. وهذا الاخير جاء بلادنا على اثر الانقلاب العثماني، وكان قد ازعجه واحرجه ما يقال عن الشرق وعن جماله وعظمته ، فصمم على ازاحة الستار عن هذه الاوهام، كما يقول، لتبدو الحقيقة عارية كما هي ، فعنون رحلته «بالسراب الشرقي» . دوّن برتران في كتابه ملاحظات كثيرة عن اخلاق اهل الشرق وعن عاداتهم . وكان في بعض الاحيان سديد الرأي، ثاقب النظر، غير أنه بعيد عن القلب ينفرُ منه القارئ الشرقي ويتمعض. فلهجته ملأى بالكبرياء والغطرسة ، وهو لا ينقطع في المقابلة بين الشرق والغرب، عن التبجح «بحضارته» ونبل عنصره، ويكثر عند تكلمه عن الشرقيين من ذكر العبودية والخنوع والخيانة والغدر والرياء، كأنما هذه الصفات مقتصرة على الشرقيين دون سواهم من الناس.

هذا ولم ينضب معين الشرق، على تعدد الكتّاب والشعراء والباحثين والمؤرخين ، بل ما زال موردًا عذبًا يؤمّه المتعطشون الى الجمال ، والمتشرقون الى ادراك مبدأ الحياة الروحانية التي تفجّر ينبوعها في هذه الربوع الشرقية وشاع منها ولا يزال . وقد عُني موريس بارس عناء خاصاً بالتفتيش عن مصدر الفكرة الدينية ، عن الشرارة الكامنة في الصوّانة ، في القلب البشري ، وعن كيفية انبجاسها من الصخر والهابها العالم ، فلم يترك مزارًا في لبنان وسورية يأمل منه بلوغ غايته الّا زاره . وكأنه كان يطمع بان تتجلى له الالوهية كما تجلّت للقديس بولس على طريق دمشق ، فانحنى بخشوع على ينابيع العبادات التي توالت على الشرق ، وتوارث بعضها بعضاً ، وسألها رشفة من مائها الاول يَبلّ بها غليله ، فقضى ليلةً في وادي افقا يُنصت لاناشيد الباخوسيات وعربدتهن ، وسأل الراهبة هندية عن سرّ تعبدها وبحرانها ، وشيخ الجبل عن سيطرته على اتباعه وطاعتهم العمياء له ، وجلال الدين الرومي عن تصوّفه وزهده ، واظهر رغبةً صادقة بان يحسّ الشرارة تلتهب في صدره . لكنه عاد وهو على عطشه.

وهنا يجدر بنا ان نرجع القهقرى الى اواخر القرن الثامن عشر ، لنرى ما كانت عليه البلاد الشرقية ولبنان في ذلك الزمن.

وُلد فولني سنة ١٧٥٧ . وبدأ رحلته الى الشرق سنة ١٧٨٣ ، اي في

السادسة والعشرين من عمره . على ان من يطالع كتابه يعجب ، على حداثة سنه ، من سعة اطلاعه ، وقوة حجّته ، وسداد رأيه . ومما يحملنا على الثقة به والاعتماد عليه ، ما جاء في مقدمة رحلته الى سورية ومصر ، اذ ذكر أنه ورث مبلغاً من المال لم يكن بالوافر فيستثمره ، ولا بالزهيد فيُهمله . وكان عندئذ في شرخ الشباب فأشار عليه بعض اصدقائه المخلصين بانفاقه في مواطن اللذة واللهو . غير أنه لم يُصغِ الى نصيحتهم . وفضل انفاقه في الاسفار التي تهذب العقل ، وتثقف الرأي ، واختار مصر وسورية لان هذين القطرين هما على حد قوله : « مصدرُ المبادئ التي نتشى عليها ، ومنبعُ الافكار الدينية التي اثرت في اخلاقنا الخاصة والعامة ولا سيما في حالتنا الاجتماعية .

«فمن المفيد اذن ان نتعرف الى هذه الاقطار وان ندرس عاداتها وطبائع الامم التي نشأت فيها ، لنرى الى اي حد حافظت هذه الامم عليها ، ونتبين اثر الاقليم او الحكم في تبدّلها او فسادها ونحكم على ما كانت عليه في ماضيها باطلاعنا على ما بقي منه في حاضرها »

ثم قال : « ينصرف معظم الرحّالة الى البحث عن الآثار القديمة ، مهملين الحالة الحاضرة . واذا مرّوا في بلد ، اسرعوا في اجتيازه فلا يتمكنون من معرفته معرفة كافية لضيق الوقت ولجهلهم لُغة الاهلين . فاللغة تساعد على تفهم روح القوم واخلاقهم . والزمن يغربل التأثرات الاولى وينقيها ويردّنا الى آراء هي اقرب الى الصواب والانصاف . وقد راعيتُ جانب الحقيقة ما استطعت واوصدت أذني دون داعيات الخيال ، على علمي بما لها من اثر لدى جمهرة كبيرة من القراء » .

ان هذه الخطة التي اختطها الكونت دي ڤولني لرحلته قد اتبع خطوطها خطاً خطاً ، ولم يحد عنها في جميع ما كتب عن البلاد التي زارها .

فبعد ان ذكر الاحوال الطبيعية والجغرافية في مصر وسورية ، ووصفها وصفاً مسهباً شاملاً ، تناول الحالة السياسية والاجتماعية فيها فقال عن سورية ما مؤدّاه :

اكتسح السلطان سليم الاول البلاد السورية في اوائل القرن السادس عشر ، وطرد منها المماليك ، واستولى عليها بمجد السيف فكان له فيها حق الفاتح يستعبد اهلها ، يستحيي من يشاء ويقتل من يشاء . واصبحت الارض

ومَن عليها ملكاً له يتصرّف بها وبالعباد تصرّف المالك بعبده، لا رأي فوق رأيه، ولا شريعة الا هواه. وخبا في مهبّ هذه الريح السموم مشعل الحضارة العربية الذي اضاء العالم وهداه عصوراً طوالاً فكأنْ لم تكن دمشق عاصمة الشرق، ولم تكن بغداد منارة العلوم والاداب، وساد الظلام والظلم جميع الاقطار العربية.

كان السلطان ظِلَّ الله على الارض بين شفتيه الموت والحياة، واليه مرجع كل شيء. ولم يكن بينه وبين رعيته الّا ما يكون بين الراعي والقطيع: للراعي الغُنم، وعلى القطيع الغبن. غير أن هذا التشبيه ناقص من وجوه عديدة فالراعي يتعهد قطيعه، ويُعنى به فيسوقه الى المرعى ويقيه غوائل القرّ والحرّ، ويصونه من الضواري ويُجنّبه المهالك. اما السُلطان فلا همّ له الا جزّ صوفه والتغذي بلحمه ولبنه. ولعلّ عُذره ان القطيع عديد مترامي الاطراف يصعب عليه جمعه والسهر عليه بنفسه، فقسّمه قطعاناً وكّل بها الى أُجراء اطلق يدهم في شؤونها، على ان يؤدّوا له إتاوة معيّنة.

ليس ما مثلناه بالراعي والقطيع من الصور البيانية بل هي الحقيقة بعينها. فان البلاد السورية كانت شبه مزرعة للسلطان يزجرها ولاته ويُقيمهم فيها مقامه، ويزوّدهم بسلطته المطلقة، لا يُسألون عن سلوكهم فيها، ولا عن ادارتهم ولا يطلب منهم الا دفعُ بدل الايجار. وكانت هذه المزرعة تقسم الى خمسة الوية: لواء حلب، ولواء طرابلس، ولواء دمشق، ولواء عكا او صيدا، ولواء فلسطين. وكان لبنان بحدوده الحالية داخلاً جغرافياً في لوائي صيدا وطرابلس. غير ان ادارته كانت مستقلة عنهما استقلالاً تاماً.

وكان الوالي او الباشا، اي نائب السلطان، يعين لسنة واحدة، وفي لواء حلب لثلاثة اشهر. فاذا انتهت مدته طُرح ايجار اللواء بالمزاد العلني فازدحم المتنافسون في الباب العالي وتدخل المتنفذون ونشرت الرشوة حبائلها، ففاز بالصفقة ذو اليد الطولى او « الطويلة »، لا ذو الكفاءة والمقدرة، وصدر الفرمان بتنصيبه. فجاء عاصمة لوائه واكبرُ همه ان يجمع اولاً ما انفقه في المزاد العلني وان يجمع ثانياً مبلغاً آخر لتجديد الكراء في اجله، وان يجمع ثالثاً ما يتيسر جمعه للطوارئ. ولم

يكن هذا بالامر الصعب عليه ، وبيده جميع اعنة الحكم يتصرّف بها تصرفاً مطلقاً ، فهو رئيس الادارة ، ورئيس المالية ، ورئيس الجند ، ورئيس الضابطة ، ورئيس العدلية ، لا يخرج من يده الا القضاء الشرعي الذي كان مرتبطاً رأساً بقاضي القُضاة في الآستانة . وما كان على الوالي في مُزاولة الحكم ان يستشير سوى نفسه ، والنفس امارة بالسوء ، وما اصدق ما قال الشاعر :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجد ذا عفّة ، فلعلّة لا يظلمُ

قلنا ان الوالي كان يعين لمدة سنة واحدة. فما كان عليه ان يضيّع هذا الوقت الثمين فيما لا طائل تحته ، بل عليه ان يبدأ استثماره حال وصوله الى مقرّ عمله. واول ما يتبادر الى ذهنه ممارسة سلطته الادارية في عزل الموظفين وتعيينهم ، فيفتح سوقاً للمزاد العلني درس اصولها وفروعها في عاصمة السلطنة ، ثم ينصرف الى تلزيم جباية الاموال الاميرية على الطريقة نفسها فيكثر في بابه المتزاحمون وحاملو الهدايا ، والواشون ، والمفسدون ، فيستغل كلّ هؤلاء استغلالاً مالياً ، وهؤلاء يستغلون بدورهم من يتخذونهم لمؤازرتهم في جباية الاموال ، وهؤلاء يتحوَّلون بكل ما في يدهم من سلطة وفي قلبهم من جشع على المكلفين ، ولا سيما الفلاحين منهم . وهكذا يتسلسل الظلم ويتضاعف بانحداره ككرة الثلج حتى يستقر بضخامته المرهقة على كاهل الشعب.

ولا تقف مداخيل الوالي القانونية عند هذا الحد . بل لديه ، عدا الرشوة والبلص ومصادرة الارزاق ، مرافق اخرى منها استيفاء مكوس الجمارك حيث يكون جمارك ، وضريبة الارث . واذا كان الوالي اميرًا على الحج ، حقّ له ان يرث من يتوفاه الله في حجّه ، ومن يتوفاهم الله في حجهم كثيرون ، فالطريق شاقة وَعِرة طويلة ، والامراض منتشرة ابداً ، واهل البادية في المرصاد ، يغتنمون كلّ فرصة تسنح للفتك بالحجاج والاعتداء عليهم . وهناك وسائل اخرى شتى لارسال الاغنياء من هذه الدار الفانية الى دار البقاء.

وكان الوالي يستغل على نفقته الاراضي التي يستصفيها ، ويحتكر بعض المرافق التجارية ، ويديّن بالفائدة. واذا اعوزه المال فرض الضرائب على الاهالي. ذكر قولني ان عبدي باشا ، والي حلب ، جمع في خمسة عشر شهرًا اربعة ملايين

من ضريبة وضعها على اصحاب المهن حتى منظفي الغلايين منهم.

فلا غرو، والحالة هذه، ان يجمع الولاة القناطير المقنطرة من المال، ولديهم ما لديهم من الوسائل والاساليب حتى ان ثروة الجزار قد بلغت العشرة ملايين من الفرنكات الذهب. غير ان المال كالظلم مرتعه وخيم، وطالما كان سبباً لهلاك صاحبه. فان الباب العالي لم يكن ليغفل عن هذه الثروات الضخمة بل كان يتغاضى عنها زمناً، ويتريث حتى تتراكم، والى ان يحين الوقت، وعندئذ تنقض الكارثة على الباشا انقضاض الصاعقة، فيصبح يوماً، وفي بابه رسول من الآستانة يحمل اليه فرماناً بعزله او نفيه او خطاً شريفاً بقطع راسه وحمل كنوزه ومتلكاته الى العاصمة، بحجة انه ظلم الرعية وسلب اموالها. غير ان هذه الاموال التي يُقتل الباشا او يُعزل بها لا تُرد ابداً لاصحابها.

وقد يحتاط الوالي للامر لضعف الثقة بينه وبين اسياده. فيبث جواسيسه في الآستانة ويتخذ له حُماة متنفذين يدافعون عنه ويُشعرونه بقرارات عزله او قتله، فيتلافى الامر بالرشوة، وان لم يستطع فبالهرب، كما حدث لاسعد باشا والي دمشق.

هذا الوالي الذي تقوم مهمته بالمحافظة على الامن في داخل البلاد، وحمايتها من الاعداء، واعداد اسباب الراحة والرفاهية للرعية، هذا الوالي وجُباته كانوا آفة البلاد الاولى. اما الآفة الثانية فارباب السيف وافراد الجند. وهؤلاء كانوا طوائف، منهم من أهل البلاد، ومنهم غرباء. فمن سكان البلاد كانت الطائفة الانكشارية وهي تتألف من جنود لهم رؤساؤهم، ولهم ميزات كثيرة، ولهم نفوذ عظيم يتعاطون مهناً مختلفة ولا يُحشدون الا عند الحاجة اليهم لقمع فتنة، او رد عدو، او للثورة على الوالي. وكانت هذه الطائفة منظمة تسود فيها الروح العسكرية. غير ان الفساد كان قد دبّ اليها، وكان الحكام يتعمدون اهمالها والتغافل عنها خوفاً منها واتقاء لشرها، والاستعاضة عنها بجنود اجانب متطوعة مرتزقة اكثرهم من التركمان والاكراد والمغاربة، يُجمعون من الشذاذ وقاطعي الطرق واللصوص الذين تضيق بهم مواطنهم، فيلجأون الى الباشا لخدمته ومساعدته على ابناء البلاد. وكانوا على نوعين: مشاة وخيالة، يختلف عددهم

باختلاف الولاية ولا يتجاوزون جميعاً في الغالب الالف نفر في كل لواء . وكانوا يخدمون بمرتب زهيد قد لا يقبضونه، فيستعيضون عنه بالتعدي على السكان في الدساكر والقرى والمزارع فيسلبونها وينهبونها، وليس من يردعهم . فان الباشا يرى في سلوكهم هذا فائدة له إذ تتوفر عليه النفقة، وربما قاسمهم ما سلبوه.

ولا عجب، والحالة ما رأينا، ان تعمّ الفوضى ويسود الخراب . ومما ذكر دي ڤولني بهذا الصدد ان لواء حلب كان يعد ٣٢٠٠ قرية فلم يمضِ زمن يسير حتى تدنى عددها الى ٤٠٠ اما سكان هذه القرى فمن سلم منهم عاد الى صحرائه، ان كان من الصحراء، وإلّا التجأ الى الجبال يختفي ويعتصم فيها، او فرّ الى المدن حيث يضيع في الجمع ويكون فيها آمن على نفسه وماله من اعتداء افراد الجند عليها.

فاذا كان الامر كذلك، كان من العَجب العُجاب ان تزدهر القرى وتحيا الاراضي، وان ينصرف الفلّاح الى استغلال حقله وانماء ثروته، وهو عرضة ابدًا للكوارث الطبيعية والبشرية . فاذا سلمت مزروعاته من الجراد والقحط والفيضان، قاسمه اياها الجباة، وما بقي منها تولى سلبه الجُند او تكفل باتلافه البدو . ولو فرض أن الفلاح كان على شيء من الامن فما كان يزرع الا ما يكفيه مؤونته ومؤونة اهله، ليقينه من فُقدان ما زاد على ذلك، لان مظاهر الغنى تلفت نظر الحكام وتهيّج جشعهم فلا يقرّ لهم قرار حتى يُنزلوا الويل باصحابها ويستخلصوا اموالهم.

يقول دي ڤولني إنه لاحظ في جوار طرابلس ان التوت في بعض البساتين قد شاخ ولم يبدل منه غيره، فحمله الفضول على ان يسأل بعضهم عن سبب هذا التهاون فاجابه فورًا : اذا غرس احدنا شجرًا، قال الباشا في نفسه : هذا رجل غني . فيستقدمه ويطلب منه شيئاً من المال . فاذا انكر او ابى امر بجلده، واذا اعطاه ما طلب امر ايضاً بجلده للحصول على مبلغ اوفر.

ولم تكن هذه المظالم تقتصر على الفلاحين دون سواهم . فاهل المدن معرّضون لها كالفلاحين . فمن كان منهم على شيء من الغنى عَمِل جهده في اخفائه وتظاهر بالمسكنة والفقر . فقلّ ان ترى بيوتاً فاخرة الا ما كان منها للولاة

والحكام والاغوات . اما المساكن الاخرى فظاهرها رثّ ، قليل النوافذ ، خالٍ من الهندسة . وقد يكون في داخلها بعض أسباب الراحة والرياش الثمين . قال دي ڤولني : سوّلت لاحد الاغنياء نفسه ان يبني له قصرًا . فما رآه الباشا حتى ارسل الى ربّ القصر يقول له : إنه يودّ لو زاره وتناول القهوة في بيته . فلما دخل البيت طابت له الاقامة فيه ولم يتخلّص منه صاحبنا الا بهدية « زهيدة » تبلغ عشرة آلاف ذهب ، على ان يعود لزيارته مرة ثانية .

وكأنّ هذه الآفات الثلاث : آفة الوالي ، وآفة الجباة ، وآفة الجند ، لم تكن كافية لازهاق الشعب . فهناك آفة اخرى قد تكون اشدّ وقعاً عليه ، الا وهي الفتن والحروب المتواصلة . فتارةً يثور الجند على الباشا لتهاونه في الانفاق عليهم ، وطوراً يشنّ البدو الغارة على اهالي الحضر لنهبهم وسلبهم ، او تُشهر الحرب بين الولاة انفسهم تزاحماً على لواء ، او انتقاماً من منافس او عدوّ او تحصيلاً لجزية أبى احدهم دفعها . وهكذا يظل الجند يسرحون في البلاد عرضاً وطولاً يعيثون فيها فساداً ويُلقون الرعب في قلوب الاهلين ، ويسوقون الطرش ، و يحرقون الزرع ، ويُتلفون الغرس ، ويهدمون البيوت ، فحيث يمرون لا يتركون الّا اطلالاً بالية خالية . ومن يخامره الشك في اقوال دي ڤولني ما عليه الا مراجعة تاريخ الامير حيدر الشهابي الذي يتكلم عن تلك الفترة من الزمن ليتأكد له صحة ما اورده الكاتب الفرنسوي . فان الغالب من المقاتلين ما استولى على قرية او مدينة الا احرقها ونهبها متبعاً في ذلك المثل العربي القائل : من غلب سلب ، ومن عزّ بزّ . وكانت الاضرار تكاد تنحصر في الاموال ، لأن المواقع ما كانت تُسفر الا عن قليل من الجرحى والقتلى . وكان الفريق المدحور يتبدد خاذلاً اميره غير ملتفت اليه ، وكيف لا يكون ذلك والجنود مأجورون غرباء . لا يحاربون لغاية شريفة او مدافعة عن وطنهم ، بل سعياً وراء جرّ مكسب او مغنم .

اما الباب العالي فكان موقفه من هذه الحروب الاهلية موقف النظّارة لا يتدخّل فيها الا اذا كان خطرٌ على السلطنة ، وربما عاون احد الولاة على قرينه لوفر في غنساء ، او لبسطة يده في الرشوة ، فليس من رائد غير المال ولا من مطمع الا نشر الفساد والتفرقة بين الرعية ، فتراه لا يُحجم في سبيل النغم

والمنفعة عن انزال النقمة بخير عمّاله واظهار الرضى لشرّ ولاته . فالجزّار ، وهو المغتصب السفّاح ، كاد يستولي على جميع البلاد السورية بالدسائس والبراطيل والقحة ، فانه اشترى لواء دمشق ، وجمع في يده الى هذا اللواء لواء عكا ولواء طرابلس ، وطيع في لواء حلب .

وقائل يقول : اما من مرجع للشعب يَرفع اليه شكواه ويعرض عليه ظلامته ؟ أما من محاكم للنظر في دعاوى السلب والنهب والاغتيال ؟

لم يكن من مرجع في الجنايات والجنح الا الوالي هو الحاكم الفرد لا استئناف لحكمه ولا تمييز، فاذا فصلَ في قضية نُفذ حُكمه في الحال . وليس من دور للعدل فالمحكمة حيث يكون الوالي . وقد يؤتى بالجاني الى الحاكم ، والحاكم في طريقه الى نزهة او الى صيد ، فيُصدر الحكم باعدامه ويأمر الجلادَ الذي لا يفارقه بتنفيذ الحكم فيمدّ الجاني عُنقه ويطيح الجلاد رأسه ، ويتابع الوالي طريقه الى النزهة او الى الصيد ، وينتهي الامر . وقد يتولى الحاكم تنفيذ الحكم بنفسه ، كما فعل الجزار اذ بقر بطن احد البنائين بضربة من فأسه .

وقد يَعهدُ الوالي بهذه السلطة الى عمال له ، فينبثون في المدن والقُرى ، ويتخذون لهم الجواسيس والوشاة ، ويكون مُعظم هؤلاء من الاشرار المفسدين الدساسين ، فيكثر الجور ، ويعم الظلم ، ويسود البرطيل والرشوة ، ولا سيا في محالّ التجارة حيث تفحص المكاييل والموازين ، ويعاقب على كل خلل فيها بخمسمائة جلدة وبعض الاحيان بالقتل .

ولم يكن من محاكم مستقلة الا المحاكم الشرعية . فان هذه المحاكم كانت مرتبطة رأساً بقاضي القُضاة او قاضي العسكر في الآستانة . وكانت ، على حد قول ڤولني ، على غاية من البساطة . فالقاضي يجلس للقضاء في بيت لا يحجبه به حاجب عن المتداعين ، ولا يقوم بينه وبينهم وسطاء ، ولا محامون ، فتقلّ النفقة ويُقتصد بالوقت . واذا كان القاضي نزيهاً عالماً بالشرع اقام ميزان العدل وانصف الناس وارضى الجميع . واذا كان جاهلاً غاشماً محباً للمال ، اضطرب الامر واصبح ظلمه موازياً لظلم الحاكم متمماً له .

✿

ولا نتكلم عن النظافة واسباب الراحة في المدن فانها كانت مفقودة ، ولا

عن العلم فان الجهل كان مخيّماً على الربوع السورية. لا مدارس فيها ولا كتب ولا اطباء ولا مهندسين. وجلّ ما هناك بعض علماء في الشرع يُرشّحون نفوسهم للقضاء.

اما الصناعة فكانت تستخدم ادوات مضى على اختراعها الوف من السنين. وكان القسم الاكبر من التجارة بيد الاجانب من فرنجة وارمن ويونان وما ذلك لزهد الاهلين بها او ترفعاً او ورَعاً، بل لاسباب اخرى، منها أن الباب العالي كان، لحكمة لا تدرك او لسهولة تحصيل المال، يُراعي جانب الاجنبي ويؤثره على ابناء البلاد. فكان الاجنبي مثلاً يدفع عن بضاعته عند اخراجها من الجرك ثلاثة بالمائة بينا الوطني يدفع سبعة او عشرة. وكان الاجنبي، اذا دفع الرسوم الجركية أُعفي منها عند نقل بضاعته من بلد الى بلد. اما الوطني فكان يدفع عنها رسماً جديداً كلما نقلت. وكان الباب العالي يُوزّع على سفراء الدول، عند قدومهم الى العاصمة العثمانية براءات اي رُخصاً للمتاجرة. وكان السفراء يوزّعونها بدورهم مجاناً على رعاياهم. ثم سرت اليهم عدوى حب المال فاخذوا يبيعونها منهم بيعاً.

هذه صورة مصغرة عن حالة البلاد السورية في اواخر القرن الثامن عشر. ولا عجب ان تؤثّر هذه الحالة في الاخلاق الاجتماعية والعادات فتظلم النفوس ويكثر القلق، وتذهب البشاشة من الوجوه، ويخفّ النشاط والسعيّ، وتضعف الثقة بالحكام، ويتظاهر الناس بالبؤس والفقر. وقد توهم بعضهم، ومنهم مونتسكيو، ان سبب هذا الكسل والتراخي في بُلدان الشرق هو إقليمها الحارّ. فرد عليهم دي ڤولني ردّاً طويلاً جاء فيه أن الظلم واضطراب الامن هما اصل كل هذا البلاء، وان الحرّ لو كان سبباً لقلة النشاط والحركة لما قامت دول الشرق القديمة التي دوّخت العالم ولما ازدهرت في قلب الصحراء مدينة تدمر العجيبة.

وكأنّ ڤولني اراد ان يقدم دليلاً قاطعاً على صحة رأيه، فشفع وصفه لسوريا بوصف منطقة من هذا الاقليم الحارّ، قائمة على البحر المتوسط، هي لبنان، فقال: ان قبساً ضئيلاً من نور الحرية والوطنية يغيّر وجه الارض.

كانت حدود لبنان في ذلك الزمن تتسع او تضيق، وفقاً لسطوة حكامه

وحنكتهم السياسية فتكون تارةً من صفد وعجلون الى بعلبك وتشمل بيروت. وتكون طورًا دون ذلك . على ان لبنان لم يكن في اي وقت من الاوقات خاضعاً خضوعاً تاماً لسلطان الاتراك ، وقد ظلّ مستقلًا في حُكمه لا تربطه بالباب العالي أية رابطة، حتى سنة ١٥٨٨ ، حيث تفاقم اعتداؤه على اراضي الدولة فجرّد عليه السلطان مراد الثالث جيشاً عظيماً لاذلاله ووضع حدّ لطغيان ابنائه الدروز والموارنة . فتمكن ابراهيم باشا ، القائد التركي ، بقوة جيشه وبذره بذور الشقاق والخلاف بين زعمائهم من ردّهم الى جبالهم وفرض الجزية عليهم. لكنهم ظلوا مستقلين في ادارة شؤونهم الداخلية لا يولّون عليهم الا منهم. وكانت هذه الجزية تعظم او تضؤل تبعاً للاحوال السياسية ولقوة شوكة الامير اللبناني او ضعفها. وقد رأى الامير دفعها غير آبه لتهديد الباب العالي ووعيده ، وقد يُعلن عمّاله الحرب ويباجلهم القتال ويستولي على مدنهم واراضيهم . وكثيرًا ما حاول عُمّال الاتراك إقتحام الجبل فعادوا بخُفّي حنين . وهل من حاجة لذكر ما قام به فخر الدين المعني من مآثر مجيدة واعمال جليلة ، كانت اكليلًا من الغار على جبين لبنان الناصع .

كان لبنان مؤلفاً من منطقتين: جبل الدروز ، وبلاد كسروان . وكانت حكومته ، على حدّ قول ڤولني ، حكومة غريبة الشكل فهي ملكية ارستوقراطية ديموقراطية في وقت واحد . فان رئيسها اميرٌ مطلق السلطة يرث الامارة عن ابيه ويورثها ابناءه ، او إخوته اذا لم يكن له ابناء ، واذا انقرض الذكور من الاسرة الحاكمة انتخب امراء البلاد ومشايخها واعيانها خلفاً له من أسرة اخرى عريقة في الحسب والنسب ذات حول وطول. وكان الامير يتصرف بشؤون رعيته تصرف الاب بشؤون بيته . فاذا كان حازماً عادلاً انقادت له البلاد وأطاعته طاعة عمياء . واذا كان ضعيف الرأي خائر العزيمة ، تراخت عنه وربما انقلبت عليه. غير أنه على تفرده بالحكم ما كان ليستبدّ برأيه ، ويستقل بادارته ، بل يُكثر من المشورة ويستطلع افكار ذوي الفضل والحنكة. ولا يبتّ في امر هام الا بعد ان يعقد مجالس عامة يشترك فيها وجوه البلاد ، وكل من له جراءة من أبناء الشعب . وكان يتحتم عليه عقد هذه المجالس اذا اراد زيادة

ضريبة الاموال الاميرية ، او اعلان حرب ، او عقد صلح . فهذه القضايا العمومية يبتّ فيها جميع سكان البلاد ، لان لها مساساً بكل فرد منهم ، ولان كل فرد من الشعب يغار على مصلحة الوطن غيرة الامير نفسه ، ويدافع عنه دفاعه عن بيته . ولم يكن للامير في ايام السلم جند نظامي من الاغراب كما هي الحالة في البلاد السورية ، بل كان جميع اهالي البلاد جنوده يلبون طلبه ويحشدون لاول إشارة منه . فاذا أعلنت الحرب ، صعد المنادون في المساء الى قمم الجبال في دير القمر ، وطرحوا الصوت صارخين في سكون الليل بملء حناجرهم : « الحرب . الحرب . تقلدوا البنادق والسيوف والرماح وامتطوا الخيل وهُبّوا الى دير القمر » . فاذا سُمع هذا النداء الرهيب وردّدته اصداء الاودية ، صعد المنادون في القرى المجاورة الى اعالي التلال وردّدوه ، فلا يمضي بعض الزمن حتى ينتشر الخبر من اقصى الجبل الى اقصاه وتتألب الرجال من جميع الجهات متوافدة الى الدير : الامراء والمشايخ على خيولهم ، والاهالي على اقدامهم . وكانت الحرب متواصلة بين الجبل وجيرانه فكان ابناؤه يتمرسون بها ويصبرون صبر الابطال ، واذا كان سلم قضوا اوقاتهم بالتدرب عليها والتمرن على فنونها ، فكانوا من خيرة الفرسان والرماة وعلى جانب عظيم من الشجاعة والجرأة .

يقول دي قولني : لو اتيح لهؤلاء الجنود البواسل أن يُدرَّبوا تدريباً عسكرياً حديثاً ، وان يُجهَّزوا بالمعدّات الحربية ، وان يكونوا تحت قيادة قواد ماهرين كما هي الحال في اوروبة ، لتفوّقوا تفوقاً بيّناً على الجيوش الاوروبية . فانهم على جرأة تقرب من التهوّر ، صليبو العود ، مفتولو الساعد ، صبورون على الشدائد ، اطوع لقائدهم من بنانه . ويذكر أنهم في سنة ١٧٨٤ قضوا ثلاثة اشهر منتشرين في الفلاة لا خيم ولا بيوت يأوون اليها ، وأنهم رغم قلة المؤن وخفة اللباس ، ورغم تعرّضهم للتقلبات الجوية ، لم ينل المرض والموت منهم اكثر مما ينالانه فيما لو كانوا في بيوتهم وقال : « ان هذه المدّة الطويلة التي قضوها على هذه الصفة في الحرب لا يقوى الفرنسيون ولا الانكليز على الثبات عليها مدة عشرة ايام . »

كان عدد سكان لبنان من دروز وموارنة يبلغ ما يقارب الـ ٢٢٥٠٠٠ نفس يحشد منهم في ايام الحرب ٧٥ الف جندي كلهم صالح للقتال. وكان معدل عدد الاهالي في الفرسخ المربع ١١٠٠ نفس، اي ما يوازي في ذلك الحين نسبة المقاطعات الفرنسوية الاوفر سكاناً والاكثر خصباً، مع ان المنطقة اللبنانية معظمها من الجبال العالية الجرداء، وما بقي منها فاراض صخرية لا تصلح للزراعة او اراض خفيفة التربة لا تخصب الا بفضل نشاط اللبنانيين وجلدهم. وقد بلغ بهم الحرص على احياء الزراعة شأواً بعيداً حتى انهم فتتوا الصخور وزرعوها.

هذا ولم يكن في لبنان شأن للصناعة والتجارة، فما سبب هذه الكثرة في السكان؟

لذلك اسباب عدة منها الامن والطمأنينة. فليس هنالك ظلم ولا بلص، ولا جند اغراب يتعدون على الارزاق والارواح، ولا بدو يرعون الزرع عشباً. ومنها ملكية الارض فكل لبناني ارضه له، او كأنها له، يتعهدها ويحييها ويأكل ثمرها وينام مرتاح البال على يقين من انه يورثها ابناءه بعد موته. ومنها أن الجبل كان ملجأ للفارين من وجه الظلم يأتون اليه معتصمين فيلقون معقلاً منيعاً وصدوراً رحبة ويكثر بهم عدد الاهالي، وتقوى شوكتهم وتعظم هيبتهم في نفوس جيرانهم، وتزيد بهم الجنود والايدي العاملة. كانت الاراضي فيما مضى اقطاعات للاسر الكبيرة، ولم يكونوا يتمكنون من استغلالها، فاخذوا يبيعونها، حبًّا لإحيائها، من الفلاحين، فتوزعت، واصبح لكل فلاح ارضه يُعنى بها عنايته بابنائه، ولم يكن عمله ابان السلم الا الزراعة والتمرن على الاعمال الحربية، وكان جميع ابناء البلاد يتصرفون اليها، المشايخ منهم والعامة على حد سواء، ولاسيا الرهبان والكهنة. وذكر فولني أنه كان في كل دير من اديار الجبل رهبان يتعاطون الحياكة والاسكفة والتجارة وما الى ذلك.

وكانت المساواة سائدة في لبنان حتى في توزيع الاموال الاميرية، فلا يدفع احدهم الضريبة الا على نسبة ما يملك. وكانوا يتساوون ايضاً في اللبس. فلا يفرق بين الشيخ والفلاح الا عباءة قد تكون مرقعة لا قيمة لها. وهنا

ينتقد ڤولني طريقة توزيع الارث في لبنان فيقول : يحق للبناني ان يورث احد ابنائه دون اخوته مُحافظةً على تُراث العائلة ، مما ادّى الى وجود مشايخ وامراء لا يملكون الا القابهم ، يدعون امراء الزيتون .

ولم يكن في الحكومة اللبنانية قوانين جزائية او مدنية مكتوبة . بل كانوا يتمشّون في ذلك على العرف والعادة . وكان الحاكم يعيّن القضاة . غير انه كان يحتفظ لنفسه بحق العفو او تنفيذ حُكم الاعدام .

وكان الدروز والنصارى على احسن ما يكون من الالفة والتساهل ، لا يتدخل بينهم الدين ، ولا تفرق بينهم الحزازات والاحن ، بل كانوا يدًا واحدة على العدوّ الاجنبي ، حريصين على استقلالهم وراحتهم ، في جيرة بلادٍ ساداتها وجنودها ليسوا منها يغمرها الاضطراب والارهاب والجور ، ولا معنى للوطنية فيها .

وكان الدروز يقطعون في جبالهم الاقطاعات للرهبان النصارى فيبنون فيها اديارهم ويمارسون فيها شعائرهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكان مدبرو الامراء الدروز ومستشاروهم وكتابهم من النصارى لان هؤلاء كانوا اسبق مَن انصرف للعلم في تلك الايام بفضل المطابع التي انشأها الرهبان في لبنان ومنها مطبعة مار حنا الشوير . انشأها في اواخر القرن الثامن عشر رجل كان قد تلمذ على اليسوعيين في حلب يدعى عبدالله زاخر . وُشي به للباب العالي فاصدر خطًا شريفاً بقتله ، ففرّ والتجأ الى دير مار حنا للرهبان الكاثوليك ، وكان اخوه رئيساً عليه ، فتعاونا على اعداد المطبعة . فرسم عبدالله حروفها وحفر أمهاتها واخذ في طبع الكتب بمؤازرة الرهبان . فكان اول ما طبع كتاب المزامير لداود النبي ، فاصبح هذا الكتاب مدرسياً يتعلّم به الاولاد القراءة[1] . وهكذا انتشر العلم في لبنان في جوّ مطمئن هادئ وما لبث ان انتشر منه الى الاقطار المجاورة .

وكان الدروز والموارنة ، اذا قابلوا بين حالتهم وحالة جيرانهم ، وجدوا فرقاً

1) هذا ما دوّنه ڤولني من معلومات عن عبدالله زاخر ومطبعته ، تناولها في دير مار يوحنا نفسه ، وقد اقام بين رهبانه اياماً كثيرة . وقد يكون في تفاصيل روايته بعض الهنات الطفيفة ، الا انها لا تغير الفكرة العامّة .

عظيماً: هم احرار، وجيرانهم رازحون تحت نير الظلم والجور. هم مطمئنون، وجيرانهم في قلق دائم. هم يحكمون نفسهم بنفسهم، وجيرانهم حكامهم غرباء. هم جند البلاد يدافعون عنها ويفدونها باموالهم وارواحهم، وجيرانهم جنودهم مرتزقة من شذاذ الاقطار. هم في أمن، وجيرانهم في خوف. فتعظم عندهم نفوسهم، وتتغلب فيهم الانفة والعزة، وتشرق وجوههم بالبشاشة والطلاقة، ويقل فيهم الخبث والسكينة، ويكثر النشاط والاقدام.

غير انهم كانوا في بيئتهم الضيقة مكتوفي الايدي، قصيري الباع، محفوفين بالخطر، معرضين للاعتداء والانتقام، لا عاصم الا جبلهم وجرأتهم، ولا حصن الا اتحادهم والفتهم، لا يتسع لهم مدى لمواهبهم ولا ينفتح لهم منفذ لانتشارهم.

فاذا قابلنا بين ما كانوا عليه اذ ذاك وما صاروا اليه اليوم وجدنا بوناً شاسعاً. واذا قابلنا بين حالة سورية في تلك الايام وحالتها الان، وجدنا البون اوسع. فما هي العوامل التي ساهمت في هذا التطور السعيد؟

أترانا لو تُركنا وشأننا وظللنا منعزلين في هذا السور المبني بحجارة الجور والاستبداد أكنا تمكنا بنفوسنا من الانعتاق ومماشاة الامم الحية على طريق الرقي والعمران. قد يكون ذلك ممكناً لو كانت مقدراتنا بيدنا، ولو كنا على كلمة واحدة تنفخ في صدورنا روح الوطنية والغيرة على المصالح العمومية. اما، والحالة ما رأينا، فكان لا بدّ لنا من نجدة تأتينا من الخارج وتقشع عنا هذه الغيوم المتلبدة في سمائنا، وقد جاءتنا هذه النجدة على اشكال شتى لم يكن شعار جميعها المحبة والعاطفة الانسانية، بل كان رائد معظمها يرمي الى خلاف ذلك. فهناك المطامع الاستعمارية، والمنافسات السياسية والمنافع التجارية. على أنها، مها تنوعت ومهما كان القصد منها، فان الذي اوجدته بيننا وبين الغرب قد اثمر ثماراً عاد خيرها علينا فأفدنا منها ولا نزال، وسواء اكان الاجانب اصدقاء، ام غير اصدقاء. فاننا باختلاطنا بهم قد تفتحت عيوننا على آفاق واسعة في جميع الحقول السياسية والادبية والوطنية والعلمية لم نكن لنحلم بها لولا هذا الاتصال. اما وعينا الحاضر الذي يدبّ الآن في صدر كل منا فاني اراه قد استيقظ من سباته العميق على دويّ مدافع نابليون في عكا.

«الاكروستيش» او فنّ التوزيع

ودلالته على صحة نسبة كتاب الاكطويخوس

ليوحنا الدمشقي

بقلم الاب نقولاوس قادري

ماهية «التوزيع»

ان كلمة «اكروستيش» (Acrostiche) مركبة من كلمتين يونانيتين: ἄκρος الدالة على حدّ او طرف. Στίχος الدالة على بيت من الشعر، ويقابلها في العربية لفظة «توزيع».

و«الاكروستيش» قصيد صغير يتألف من ابيات يوازي عددها عدد الحروف التي يتألف منها الاسم، او بيت الشعر، او موضوع القصيدة؛ بنوع ان كل بيت من هذه الابيات يبتدئ بحرف اولي من حروف ذلك الاسم او ذاك البيت. واذا جمعتها بتتابع ونظام بانَ لك الاسم بكامله في اوائل ابيات القصيدة. واليك هذا التوزيع الافرنسي للملك لويس الرابع عشر:

Louis

L ouis est un héros sans peur et sans reproche :
O n désire le voir. Aussitôt qu'on l'approche,
U n sentiment d'amour enflamme tous les cœurs.
I l ne trouve chez nous que des adorateurs.
S on image est partout, excepté dans ma poche. [2]

على ان هذا الذوق الأدبي الفني وانتقاء المواضيع، واستعمال «الاكروستيش»

1) cf. *Dict. d'Archéol. Chret. et de Liturgie*, t. I. p. 360.

2) cf. *Larousse*, au mot *acrostiche*.

في القصائد والاناشيد ، علامات قيّمة تدل على الحالة الفكرية في عصر من العصور .

فعلم الآثار والاثريات مصدر من مصادر علم النفس والاجتماع : ولقد احسن في ما قاله في هذا المعنى العلّامة الافرنسي ليتره (Littré) : «عندما نفكر في ارتباط المعاني في صفحة من صفحات الشعر ، ونهبط من فكرة الشعر الى فكرة السطر ، ومن فكرة السطر الى فكرة الرتبة ، ومن فكرة الرتبة الى فكرة العمل الذي به ثبت الشاعر وحدّد تلك النقاط التي تؤلف الرتبة ، فاننا نقف حقيقة على عمل العقل البشري الغريب والظاهر في جميع هذه الاصطلاحات غير المسلوكة والمجردة» .[1]

٥

«والاكروستيش» نوعان شعري وابجدي . فهذا تسلية لغوية ادبية قديمة العهد ، على ما يظهر لنا ، وذاك عمل فكري عميق يربط معاني الابيات بمباني الحروف ويدلّ على جهود الفكر في عصر من العصور .

التوزيع الابجدي بسيط يتركب من الحروف الابجدية تدخل في اوائل ابيات القصيدة فيكون إمّا مقطعياً وإمّا فردياً .

فالتوزيع المقطعي على نوعين : إمّا ان يعاد الحرف في كل بيت من ابيات المقطع الواحد ، وامّا ان يكون لمقطع واحد حرف واحد يظهر في اول بيت من المقطع مرّة واحدة .

والتوزيع الفردي هو ما يظهر في كل بيت من النشيد مبتدئاً بأول حرف من الابجدية بأول بيت من القصيدة . وهكذا تتوارد الحروف الابجدية بتتابع ونظام في كل ابيات القصيدة حتى آخر حرف من حروف الابجدية .

واصل هذا التوزيع الابجدي في نوعيه يرجع الى العبرانيين الذين نظموا الشريعة شعراً ، ودبّجوها بهذا الفن الطريف . وقد اخذ عنهم ذلك السريان ، والرومان ، واليونان ، والعرب وغيرهم .

والتوزيع الشعري هو ما كان موضوعه اسماً او آية او بيتاً من الشعر او

1) Littré, *Dictionnaire de la Langue française*, t. I, p. 48, col. 3.

ابياتاً ، يوزع الشاعر هذه الحروف على ابيات القصيدة او مقاطعها صغيرة كانت او كبيرة.

واما نشأة هذا التوزيع الشعري فتعود بالاخص الى الشاعر اليوناني ابيكرم (Επίχαρμος) الشاعر الهزلي وربيب القرن الخامس قبل المسيح (+ ٤٥٠).

وقد أكّد سرّ هذه الالعاب الادبية الفكرية لكثير من الشعراء على ان التوزيع كان نوعاً من انواع الاحاجي التي استعملتها بنات البحر ليتكهّن بها للناس ويعرّفنهم المضمرات النوامض.

التوزيع عند العبرانيين

ان آثار العبرانيين الشعرية حافلة بالاناشيد التي تبتدئ ابياتها بالحروف الابجدية العبرية ، والتي تهيمن عليها روح علوية طبعت في نفسية الشعب العبراني حبّ الشريعة الأزلية والوصايا الالهية . فاذا بها مكتوبة بالحروف الابجدية كطابع خصوصي للشعب المنتخب الذي أخذ على نفسه ان يسير في شريعة الربّ ويلذّ بها نهاراً وليلاً الى أن تكلّ عيناه من النظر الى اقوال الرب . . .

واول من تغنى بالحروف الابجدية كان داود النبي . فمن تصفح المزامير الشعرية باللغة العبرية وجد فيها ثمانية مزامير مختومة بخاتم التوزيع وهذه المزامير هي : ٩ و١٠ و٢٤ و٣٣ و١١٠ و١١١ و١١٨ و١٤٥ . وأضف الى هذه المزامير الثمانية الفصل الحادي والثلاثين من سفر الامثال ، ومراثي ارميا الا الفصل الاخير منها . كما يظهر ذلك في الترجمة العربية اليسوعية الكتاب التي وقف عليها الشيخ ابراهيم اليازجي واخرجتها المطبعة الكاثوليكية ؛ حيث نجد آيات المراثي مسبوقة بالحروف الابجدية العبرانية.

واذا سألنا ذواتنا لماذا استعمل الشعراء العبرانيون التوزيع الابجدي في اناشيدهم ، اجبنا ان ذلك كان أولاً لحفظ الاناشيد غيباً بسهولة ، لان تصدّر حروف الهجاء في اوائل الآيات يساعد مساعدة كبرى على التذكر السريع بأول كلمة من الآية.

وهنا لا بدّ من ملاحظة صغيرة وهي ان التوزيع في المزمورين التاسع

والعاشر غير كامل . ولعلّ ذلك النقص ناتج من تقسيم هذين المزمورين الى اثنين بينما يدلّ الاصل على انها مزمور واحد لانها يتكملان بتوزيع واحد .

واما المزمور المئة والثامن عشر ومطلعه : « طوبى للاذكياء في الطريق السائرين في الشريعة » فله توزيع مقطعي او دوري . وهو مقسوم الى اثنين وعشرين دورا ، وكل دور مؤلف من ثماني آيات تبتدئ بالحرف الواحد ثماني مرات « ولا يخفى ما في هذا الترتيب المنتظم من الملاءمة للنفس وما يلقيه من الطلاوة والبهجة على كدة الكلام التعليمي المسرود في هذا المزمور فضلاً عما هنا من التخفيف على قوة الذاكرة »[1].

وقد استعمل التوزيع صاحب سفر الأمثال . فنجد أثره في الفصل الحادي والثلاثين من الآية العاشرة حيث يبدأ : « من يجد المرأة الفاضلة ان قيمتها فوق اللآلئ » فهذه الآية هي بمنزلة مطلع لقصيدة في مديح المرأة الفاضلة قد نظمت على حروف الهجاء ، وهي اثنتان وعشرون آية ، وكل آية منها مفتتحة بحرف من الحروف الابجدية العبرانية حسب ترتيبها .

واستعمل النبي ارميا التوزيع في مراثيه ، في الفصول الاربعة ، مع هذا الاختلاف البسيط بينها وهو ان الفصول الاول والثاني والرابع مؤلفة من توزيع فردي ، اي لكل آية حرف يبتدئ بها . واما في الفصل الثالث فكل حرف من الابجدية يفتتح ثلاث آيات متلازمة وهذا الفصل اكبر الفصول الأربعة في مراثي ارميا .

وربما كان هذا الاستعمال من النبي ارميا بقصد منه فاتخذ التوزيع كسدّ يحدّد ويقيّد به شعوره وألمه . ومهما تكن دواعي هذا الاستعمال ، فترتيب الحروف لا يضرّ ابداً بالتعبير الطبيعي الشعري عما في النفس من العواطف ، فهو يماثل مجرى النهر الضيّق الذي يحدّد جري المياه وقد تتفجر عيون صافية وتتدفق بسرعة من بين الصخور التي تضم شواطئ النهر[2].

---

١) راجع حاشية في الكتاب المقدّس على المزمور ١١٨ من الترجمة العربية المجلد الثاني ص ٨٤٦ ، عمود ٢ .

٢) L. Haneberg : *Histoire de la Révélation Biblique*, t. I, p. 353.

التوزيع عند السريان

وعرف السريان التوزيع العبراني ، فتلقفوه عن العبرانية ، لما رأوا فيه من التسلية الادبية ، والسهولة في حفظ الاناشيد والقصائد الدينية ونجد آثاراً لهذا الفن في الآداب المعرفية (Gnostiques) في الكتاب المنحول : كتاب آدم (Liber Adam) . فهناك اربعة مزامير مختومة بخاتم الابجدية المطّردة وكل مزمور مركب من اثنتين وعشرين آية تقابل حروف اللغة السريانية .

وقد ألف كثير من شعراء السريانية الكنسيين « مداريشهم » ومياميرهم على حروف الهجاء ليسهل حفظها غيباً . فالشاعران يعقوب الرّهاوي والقديس افرام السرياني تتبعا التوزيع في قصائدهما ولا تزال محفوظة في كتب « وشحيات » السريان والموارنة .

ونجد ايضاً اثراً للتوزيع الابجدي في ما نقله السريان عن الصلوات اليونانية الى السريانية ، كما في قانون عيد البشارة ليوحنا الدمشقي ، وقد صرّح بذلك احد علماء السريانية الخوري اسحق ارملة السرياني في مقالته : « السريان والملكيون » في مجلة المشرق الغراء . قال :

« بيد ان السريان في نقلهم قانون العذراء الجليلة تأليف يوحنا المتوحد (الدمشقي) لم ينهجوا نهج سائر القوانين اليونانية التي ترجموها بل توسعوا في نقلها خصوصاً منذ الأودية الثامنة التي تقابلها في السريانية تسبيحة الفتيان في اتون بابل فنظموا عباراتها عبارة عبارة طبقاً للحروف السريانية الابجدية طرداً وعكساً أعني من الالف الى التاء ثم من التاء الى الالف حتى اصبح مجموعها ٤٤ عبارة ولم يضبطوا وزنها وفقاً للنظم السرياني »[1].

اجل ان السريان في نقلهم قانون يوحنا الدمشقي الى لغتهم ارادوا ان يتقلدوه حتى في مباني القصيدة اليونانية الّا انهم اضطروا الى تخفيف عباراتها الاصلية من ٤٨ عبارة طرداً وعكساً الى ٤٤ لان حروف الابجدية السريانية اثنان وعشرون حرفاً بينما ان حروف اليونانية اربعة وعشرون حرفاً .

١) راجع مجلة « المشرق » ٣٩ [١٩٤١] ٢٦١ – ٢٦٣ .

وقد اطلعنا حضرة الخوري اسحق ارملة الموما اليه على ميمر للقديس افرام نظمه في آية داود النبي ܢܘܗܪܐ ܕܢܚ ܠܙܕܝܩܐ ܘܠܬܪ̈ܝܨܝ ܠܒܐ ܚܕܘܬܐ : « أشرق النور على الصدّيق والفرح على المستقيمي القلوب » (مز ٩٦ : ١١) على طريقة « التوزيع » مبتدئاً في كل بيت بحرف من احرف يسوع المسيح وهذا هو :

ܝ ـ ܝܫܘܥ ܡܪܢ ܡܫܝܚܐ ܕܢܚ ܠܢ
ܡܢ ܒܬܘܠܬܐ ܕܐܒܘܗܝ .
ܐܬܐ ܘܦܪܩܢ ܡܢ ܚܫܘܟܐ
ܘܐܢܗܪ ܠܢ ܒܢܘܗܪܗ ܓܠܝܐ ✣

ܫ ـ ܫܡܫܐ ܕܢܚ ܠܗ ܒܪ̈ܘܡܐ
ܘܒܪܗ ܫܘܒܚܗ ܕܫܡܝܐ .
ܢܘܗܪܐ ܕܢܚ ܠܢ ܡܢ ܢܘܗܪܗ
ܘܐܢܗܪ ܒܥܝ̈ܢܝ ܣܘܟܠܐ ✣

ܥ ـ ܥܡܘܕܝܗ ܐܘܕܥ ܚܝ̈ܐ ܠܟܠ
ܘܐܢܗܪ ܠܡܫܝܚ̈ܝܐ ܐܢܫ̈ܝܐ .
ܕܟܢ ܡܘܬܐ ܘܒܪܗ ܫܘܒܚܐ
ܘܐܬܬܒܪ ܐܪ̈ܓܐ ܕܫܝܘܠ ✣

ܘ ـ ܘܐܢܗܪ ܠܟܠܗܘܢ ܒܪ̈ܝܬܐ
ܕܡܢ ܩܕܡ ܫܘܒܚܐ ܗ̈ܘܘ :
ܡܢܗ ܢܗ̈ܪܐ ܢܦܩܘ ܠܥܠܡܐ
ܡܫܝܚܗ ܕܗܘܐ ܠܗܘܢ ܦܘܪܩܢܐ ✣

ܡ ـ ܡܠܟ ܦܘܪܩܢܐ ܘܗܘܐ ܠܢ ܚܝܐ
ܘܐܬܝܠܕ ܠܢ ܐܦܘܗܝ ܒܟܘܪܗܢܐ .
ܘܐܘܒ ܐܬܐ ܒܡܘܗܒܬܗ ܪܒܬܐ
ܘܐܢܗܪ ܠܥܡܐ ܕܠܗ ܘܡܫܝܚ ܠܗ ✣

ܡ ـ ܡܠܟܢ ܐܬܐ ܒܫܘܒܚܗ ܪܒܐ
ܢܚܘܪ ܥܝܢܝܢ ܘܒܗܘ ܠܦܪܨܘܦܗ .
ܘܢܚܙܐ ܒܗ ܐܝܟ ܕܚܙܐ ܒܢ
ܘܢܚܙܐ ܠܢ ܒܢܘܗܪܗ ܠܥܠܡ ܀

ܫ ـ ܫܘܒܚܐ ܢܫܡܫ ܠܐܒܘܗܝ
ܘܠܒܪ ܢܘܗܪܐ ܠܐܒܘܗܝ ܪܒܐ .
ܕܦܬܚ ܬܪܥܘܗܝ ܘܡܠܝܗ ܪܘܚܐ
ܘܢܗܪ ܠܢ ܫܒܪܐ ܘܫܘܪܝܐ ܀

ܝ ـ ܝܘܡܐ ܕܢܚ ܡܢ ܫܡܝܐ
ܘܫܒܩ ܠܦܪܨܘܦܗ ܡܢܗܪܢܘܬܗ .
ܘܐܢܗܪ ܠܒܢܝܢܫܐ ܟܠܗܘܢ
ܟܠ ܕܫܡܥܘ ܘܐܬܘ ܘܐܬܒܥܘ ܀

ܚ ـ ܚܙܝܢ ܡܠܐܟܐ ܘܥܝܪܐ ܫܡܝܐ
ܒܫܘܒܚܐ ܕܐܒܐ ܘܕܪܘܚܐ .
ܘܫܒܚܘ ܒܩܠܐ ܪܡܐ
ܘܐܡܪܝܢ ܡܫܒܚܝܢ ܘܡܘܕܝܢ ܀

ܐ ـ ܐܝܟ ܡܘܕܐ ܘܐܬܒܪܟ
ܕܢܚܐ ܠܥܠܡ ܘܠܥܠܡܝܢ .
ܕܐܬܐ ܒܫܘܒܚܗ ܘܢܚܙܐ ܠܢ
ܒܢܘܗܪܗ ܥܠܡ ܥܠܡܝܢ ܐܡܝܢ ܀

كتاب الصلاة الفرضية حسب الطقس الكلداني (١ : ٢٥)

وهذه ترجمته الى العربية

ي : ان يسوع المسيح ربّنا قد لاح لنا من حضن ابيه ،
أقبَلَ فأخرجَنا من الظلمة ، وانارنا بضيائه البهي.
ا : بزغ النهار على البشر ، وانقشع سلطان الظلام ؛
لاح لنا نورٌ من نوره ، واثار عيوننا المظلمة.

ش : أشرقَ بجدهِ ضمن المسكونة ، وانار التخوم السفلية ،
انطفأ الموت ، وانهزم الظلام ، وتحطّمت ابواب الجحيم.

و : وانار البرايا باسرها ، وقدكانت مشتّتة،فيما سلف ؛
انبعث الموتى الراقدون في التراب ، وعبدوا (الله) لانهم فازوا بالخلاص.

ع : أجرى الخلاص ، ومنحنا الحياة ، وصعد الى ابيه الى العلاء ؛
وسيأتي بجده العظيم ، وينير ابصار الذين انتظروه.

م : ان ملكنا سيأتي بجده العظيم ، فلنضئ مصابيحنا ونخرج الى لقائه ؛
ولنبتهج به ، كما ابتهج بنا ، وهو يبهجنا بنوره البهيّ.

ش : فلنؤدّ التسبيح لعظمته ، ولنشكرْ جميعنا لابيه العليّ ،
اذ قد فاضت رحمته ، فارسله الينا ، ومنح لنا رجاء وخلاصاً.

ي : انّ يومه سيلوح بغتةً ، ويخرج قدّيسوه الى لقائه ،
وكل الذين اشتغلوا وتعبوا واستعدوا يضيئون مصابيحهم.

ح : يفرح الملائكة ، وجنود السماء ، بمجد الابرار والصدّيقين ،
ويضعون الاكاليل في رؤوسهم ، ويتغنون معاً في الاناشيد والتهاليل.

ا : يا اخوتي ، انهضوا واستعدّوا ، لنؤدي الشكر لملكنا ومخلصنا ،
لانه سيأتي بجده ، ويبهجنا بنوره البهيّ في الملكوت.

التوزيع عند اللاتين

لقد شاع عند الرومان استعمال التوزيع الشعري ، قبل المسيح . وراج هذا الفن في تواريخ المدافن . وقد وجد في بعض الحفريات الاسبانية التي اشار اليها العالم دي رُسّي رقيم[1] يحمل توزيعاً يرجع الى نحو سنة ٧٨٣ للمسيح . والتوزيع موزّع في اول القصيدة وفي اواخرها كما ترى :

T e moderante regor Deus sit mici vita Beat A
U t merear abitare locis tuus incola sci S
S pem capio fore quod egi veniabile ob ho C
E xadi libens et sit fatenti venia larg A
R eor malū merui set tu bonus arviter aufe R
H eu ne cerna tretrū quem vultu et voce minac I
E den in regione locatus sim florib'ad ho C
D eboret ne animā mersam fornacib' ast U
O currat set tua mici gratia longa penni S

١) راجع Patr. Lat., t. XCIX, p. 1231

فاذا جمعت اوائل الابيات قرأت Tuserhedo واذا جمعت اواخرها قرأت التوزيع التالي Ascaricus فهذه القصيدة الصغيرة القها اسكريس لتكتب على ضريح صديقه ترهاد Tuserhède.

وألف القديس اغسطينوس ووزن مزموراً ابجدياً لمحاربة الهراطقة الدوناتية (Donatistes) وذلك نحو سنة ٣٩٣ وقد قسم هذا المزمور الى مقطوعات عديدة، واتبعها بلازمة بعد كل مقطوعة، وهذه هي اللازمة باللغة اللاتينية:

Omnes qui gaudetis de Pace, modo verum judicate.

وهذا المزمور سجّع بنبراته المتساوية ولكنه يخرج عن الاوزان الشعرية المدرسيّة المرتكزة على مقطع طويل وقصير... فهو بتقطيعاته الصوتية، ونبراته الموسيقية، شعر طريف واوزان جديدة. وقد لجأ اغسطينوس الشاعر الى هذه الطريقة الحديثة لتأدّي غاية النشيد التي هي ايصال الحقيقة اللاهوتية الى عقلية القرّاء الذين هم بنظر اغسطينوس من طبقة الشعب ليفهموا الحقيقة في بردتها السهلة والواضحة[1].

يفتتح اغسطينوس قصيدته بهذا المطلع في مقطوعته الاولى:

Abundantia Pec catorum solet fratres conturbare.

ويبتدئ في مقطوعته الثانية بالحرف الابجدي الثاني:

Bonus auditor fortasse quaerit, qui ruperunt rete?

وقد ادخلت الكنيسة اللاتينية في ترانيم عيد الميلاد والظهور اناشيد رائعة تحمل التوزيع الابجدي وهذه الاناشيد من نظم الشاعر الشهير سادبليوس (Sedulius) ومطلعها: A Solis ortus cardine...

وقد نظم سادبليوس الشاعر نشيد الميلاد هذا على الحروف الابجدية اللاتينية متوخياً في كل ذلك التسلية الفنية والسهولة في حفظ النشيد.

وتبعه في ذلك الشاعر اللاتيني فورتوناتوس (Fortunatus) في نشيد نظمه لاسقف بردقال، فاستهلّ مطلع قصيدته بهذا البيت الابجدي:

١) راجع مجموعة الآباء اللاتين لمين سعد، عمود ٣٣

Agnoscat omne seaeculum.
Antistitem Leontium.
Burdegalense praemium.
Dono supremo redditum. (١)

فاول حرف A يتصور اول مقطوعة من القصيدة ثم يتابع الشاعر في كل ابيات قصيدته التوزيع الابجدي ، الى آخر مقطوعة حيث ينتهي بحرف Z آخر حرف من الابجدية اللاتينية.

التوزيع عند اليونان

عرف الشعراء اليونان هذا النوع من البديع الشعري فاستحسنوه ، فراحوا يدبجون به حلل افكارهم وعواطفهم ، ولم يقفوا عند الحدّ البسيط من التوزيع بل تخطّوا الى ما ابعد ، فتفننوا بالتوزيع الشعري وتلاعبوا في الرموز. واقدم توزيع حفظه التاريخ في النصرانية هو اكروستيش السمكة Ἰχθύς . لقد اتخذت الكنيسة في اول امرها هذا التوزيع دلالة على اسماء عروسها وربّها يسوع المسيح ، دلالةً على بنوّته الالهية وطبيعتيه الانسانية والالهية وهدياً لميزته الخصوصية وعمله في هذا الكون الذي تمّ بخلاص البشر.

واصل هذا الاختراع هو ان المسيحيين الأولين اتخذوا السمكة شعارًا لهم ودليلًا على ايمانهم بيسوع المخلص فكانوا يرسمونها على جدران بيوتهم وأوانيها ويحفرونها ويسكبونها سبائك فضية وذهبية ويعلقونها في عنقهم كشيء مقدس لان حروف اسم السمكة تحمل اوائل اسماء يسوع المسيح. Ἰχθύς فحرف I اي هو اول حرف كلمة يسوع Ἰησοῦς وحرف خي X اول حرف من كلمة Χριστός المسيح وحرف Θ ثيتا هو اول حرف من كلمة Θεοῦ الله وايبسلن Υ هو اول حرف من كلمة Υἱός ابن وحرف Σ سغما الاخير اول حرف من كلمة Σωτήρ مخلص فكان مجموع الحروف في كلمة اخثيس Ἰχθύς يحتوي على اوائل اسماء متعددة ليسوع المسيح . وهنا ننقل الاكروستيش بلغته اليونانية مع ترجمته

١) راجع مجموعة الاباء اللاتين Migne 88, c. 182 . عاش فورتوناتوس هذا في الجيل السادس ونُصِّب اسقفًا على مدينة بواتيه Poitiers وتوفي سنة ٦٠٠.

لندلّ على عبقرية المسيحيين وروحهم الشعرية التي سمت بالشعر الحيّ الوثاب نحو الحقيقة الازلية :

توزيع اوتن Pectorius d'Autun

Ἰχθύος οὐρανίου θεῖον γένος ἤτορι σεμνῷ.
Χρῆσε. λαβὼν πηγὴν ἄμβροτον ἐν βροτέοις.
Θεσπεσίων ὑδάτων, πηγὴν, φίλε, θάλπηγην ψυχήν.
Ὕδασιν ἀενάοις πλουτοδότου σοφίης.
Σωτῆρος ἁγίων, μελιηδέα λάμβανε Βρῶσιν,
Ἔσθιε πινάων, ἰχθὺν ἔχων παλάμαις. (1).

واليك ترجمتها بالعربية:

ايتها السُلالة الالهية المتحدرة من الاختيس السماوي ،
اقبلي بقلب مفعم بالاحترام خلودَ الحياة بين اهل الفناء .
جدّدي روحك ، يا خليلتي ، في المياه الالهية ،
بمجاري الحكمة الازلية التي تعطي الكنوز.
خذي الغذاء العاسل من مخلص القديسين ،
كلي عند جوعك ، واشربي عند عطشك ،
فانت تحملين الاختيس في راحتيك.

فالمسيحيون في القرنين الأول والثاني قد اتخذوا الاختيس كلمة تعارف بينهم فرسموا صورتها على جدران بيوتهم ، ونقشوا حروفها على ضرائحهم فكانت لهم ميزة فارقة عن سواهم.

ثم ان الشعراء على مدى العصور قد تفننوا وتلاعبوا كثيرًا في الاكروستيش حتى ان واحدًا منهم كان يعرض بقارئه ويقول له ان اسمي مكتوب امامك فاحسن قراءته. وآخر كان يقول اني اراهن اني اكتب اسمي بكل حروفه من دون ان يحسن احد قراءته (Caticulius).

وهذا التلاعب اللفظي خطا خطوة كبرى مع الشعراء الكنسيين اليونان ، فاكثروا منه في اناشيدهم الدينية ، وتلاعبوا في فنه ايّ تلاعب وخلّدوا اسماءهم في قصائد عديدة لم تزل الى اليوم تحمل الى الاجيال المقبلة اسماءهم وبنات افكارهم.

1) Pierre Batiffol, *La littérature Grecque*. Paris, 1904, p. 113.

والكتب الطقسية اليونانية لا تزال شاهدًا على آثارهم القيّمة التي ما برحت تسطع مشرقةً كلؤلؤة في مفرق الكنيسة البيزنطية.

والأثر الخالد الذي يعرفه الجميع «ابيات المديح» او ترنيمة الاكاتستون «Ἀκάθιστον» والتي ترنمها الكنيسة البيزنطية تمجيدًا للعذراء مريم الوالدة في يوم الجمعة من خمسة اسابيع الصوم الاولى ، هـذا الاثر هو اربعة وعشرون مقطوعة على عدد حروف الابجدية اليونانية ، وقد نظمها الشاعر الملهم والعبقري الخالد مرنم بيروت ومطرب الملوك بالقسطنطينية رومانس الذي ربط اجزاءها بسلسلة الابجدية كانها سلم يصعد بها رومانوس الى السماء حيث يستقي الوحي الازلي والالهام الصافي المتفجر من ينبوع العذراء الدائم الفيضان.

فالبيت الاول من قصيدة رومانس يبتدئ بأول حرف من الابجدية وهذا مطلع القصيدة الخالدة[1]:

Ἄγγελος πρωτοστάτης...

والمقطوعة الثانية من القصيدة مطلعها يبتدئ بالحرف الثاني الابجدي:

Βλέπουσα ἡ ἁγία ἑαυτὴν ...

وهكذا بالاطراد تتابع الحروف الابجدية سيرها في اوائل المقطوعات الى الاخيرة ومطلعها بالحرف الابجدي:

Ὦ πανύμνητε μῆτερ...

ومن هذا النوع ايضاً قصيدة رومانس لتقدمة عيد الميلاد وهي من اروع القصائد التي جادت بها قريحة الشاعر ومطلعها : ايتها القوات السماوية سيري[2].

Αἱ Ἀγγελικαὶ προπορεύεσθε Δυνάμεις ...

والمقطوعة الثانية ومطلعها : لتقطر التلال حلاوة.

Βουνοὶ γλυκασμόν. στα λα ξάτωσαν...

وآخر مقطوعة من هذه القصيدة ومطلعها: ظهرت على الارض وترددت بين الانام

(1 cf : Τριώδιον ἐν Ῥώμῃ, 1879, p. 506-515

٢) راجع كتاب الميناون اليوناني لشهر كانون الاول ، روما ١٨٨٩ ص ٥٦٤ و ٥٦٥ و ٥٧٧ و ٥٦٢ و ٦٠٦ و ٦٢٩

Ὤφθης ἐπὶ γῆς, καὶ Βροτοῖς συνανεστράφης ...

وهناك قصائد عديدة في كتب الصلوات الفرضية ترتدي ثوب التوزيع الابجدي، منها قانون المطاليبي، وقانون عيد البشارة للقديس يوحنا الدمشقي

والدمشقي تفنن اكثر من غيره بالحروف الابجدية وهذا التفنن يبين حتى في النشيد الواحد كما نرى في قانون عيد البشارة . بـدأ الشاعر الموسيقي القصيدة بأكروستيش ابجدي يسم المقطوعات حتى نهاية الأودية السابعة، والقصيدة حوار لطيف عميق التفكير وبعيد المرمى في الافكار والتخيلات الشعرية وهذا الحوار يدور بين الملاك المبشر والعذراء مريم . والقصيدة من اروع قصائد الدمشقي ومطلعها بعد المقدمة : فليترنم نحوك ايتها السيدة[1] Ἀδέτω Σοι, Δέσποινα

والمقطوعة الثانية : اهتف اليك متحدثاً Βοῶ Σοι γηθόμενος .

والمقطوعة الثالثة : اظهر لي ايها الملاك Γνωσθήτω μοι, Ἄγγελε.

وهكذا بالاطراد الى اخر حرف حيث ينتهي في الأودية السابعة . وفي الثامنة يبدأ الشاعر الدمشقي بتوزيع جديد ولكن الحرف لا يشمل مقطوعة بل بيتاً واحداً . فينتهي التوزيع الابجدي بالاطراد في آخر الأودية الثامنة . وفي اول التاسعة يبدأ الشاعر توزيعاً ابجدياً ثالثاً فردياً ولكن عكساً اي يبدأ اول بيت بآخر حرف من الابجدية .

ونجد هذا التلاعب في غير قصائد . كما واننا نجد التوزيع الابجدي في كتاب الاكطويخوس اي كتاب الثمانية الحان . وهـذا الكتاب تستعمله الكنيسة البيزنطية في صلواتها الفرضية يوم الاحاد والاعياد على مدار السنة .

ففي صلوات الغروب في عشية الاحد يوجـد توزيع ابجدي موزّع على الثمانية الالحـان في قطع الابوستيخن وهـذا عنوان القطع في الكتاب :

Ἕτερα στιχηρά. κατὰ ἀλφάβητον.

استخيرات آخر على حروف الهجاء . وقد وزع الشاعر بلباقة ثلاث مقطوعات لكل لحن من الالحان الثمانية حتى يستقيم عدد الحروف الهجائية اليونانية .

---

١) راجع الميناون اليوناني لشهر آذار ، روما ١٨٨٩ ، ص ١٧٦

وهنا لا بدَّ لنا ان نصرح بحقيقة جديدة واكتشاف فريد الا وهو وجود اسم يوحنا الدمشقي مؤلف كتاب الاكطويخوس Ὀκτώηχος في صلب الكتاب وبنوع خفي.

كل يعلم ان هذا الشاعر القديس تغنى بامجاد قيامة المسيح وصلبه وامجاد امه العذراء. وقد خلَّف للكنيسة اثرًا ما بعده اثر ودررًا غالية الثمن تتقلدها كلَّ يوم، وفي اعيادها الكبيرة، وتجعلها قوتًا لابنائها يغذي انفس المتناولين منها ويحفظها للحياة الابدية. وقد جملت الكنيسة البيزنطية هذه الصلوات المتحدرة من المعلم الشرقي صوتها الخاص، ولحنها المتجدد ابدًا، وصداها البعيد وصلاتها الصاعدة باستقامة الى عرش الحمل الظافر على الخطيئة والموت والعالم. ان اسم يوحنا الدمشقي موزع في كل الكتاب في الثمانية الالحان وقد توفقنا بعد البحث الطويل والدرس المتواصل الى الوقوف على هذه الحقيقة وهي ان كتاب الاكطويخوس المنسوب الى الدمشقي هو حقيقة صنعة فكره ووليدة تأملاته.

لقد وزَّع الدمشقي اوائل اسمه في تلك المقطعات التي خصَّها بالعذراء الوالدة في ايوستيخن الغروب في الثمانية الالحان، وقد توفق الى طبع اسمه بنوع خفي ظاهر.

اجل لم يرد يوحنا الدمشقي ان يصدر كتاب الاكطويخوس بعنوان كبير يحمل الى الملأ اسمه وصورته ولم يكتب بأول كتابه: تأليف الاب يوحنا الدمشقي. لم يفعل ذلك لتواضعه. ولكنه عمد الى طريقة سرية علمية وشعرية يخلد بها اسمه بنوع خفي على صفحات كتابه وفي صلب الصلوات والاناشيد وقد اتخذتها الكنيسة البيزنطية كدستور لصلواتها الفرضية. لقد طبعها الدمشقي بطابع اسمه الخاص كما طبع رومانس قصائده بخاتم اسمه الخاص فوزَّع على مقطوعاته الشعرية حروف تلك الجملة او تلك الفقرة الخالدة Τοῦ Ταπεινοῦ Ρωμανοῦ ὕμνος, ἢ ψαλμός. ἢ ἔπος... وكل قصائد رومانس تحمل اسمه مع لقبه المتواضع او ما شاكله.

ان اسم الدمشقي موزع في كتاب يربو عدد صفحاته على السبع مئة

صفحة من القطع الكبير. وها انا اجمها واقدمها في نصها اليوناني لتظهر حقيقة ما ينسبون ليرحنا الدمشقي من انه هو مؤلف الاكطويخُس[1].

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن الاول صفحة ٤.

Ἰδοὺ πεπλήρωται, ἡ τοῦ Ησαΐου πρόρρησις...

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن الثاني صفحة ١٠١

Ὦ θαύματος καινοῦ πάντων τῶν πάλαι θαυμάτων...

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن الثالث صفحة ١٨٧

Ἀσπόρως ἐκ θείου πνεύματος...

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن الرابع صفحة ٢٧٤

Νεῦσον παρακλήσεσι...

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن الخامس صفحة ٣٦٤

Ναὸς καὶ πύλη ὑπάρχεις...

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن السادس صفحة ٤٥٢

Ὁ ποιητὴς καὶ λυτρωτής μου...

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن السابع صفحة ٥٣٥

Ὑπὸ τὴν σὴν Δέσποινα σκέπην...

في مقطوعة الثاوطوكيون للحن الثامن صفحة ٦١٨

Ἀνύμφευτε παρθένε...

وهذا مجموع الحروف عمودياً بالخط المستقيم Ἰωάννου Λ. فالاسم الاول كامل، وهو في حال الاضافة، والاسم الثاني ناقص وهو اول حرف من كلمة Αἶνος نشيد واذا ما جمعنا الكلمتين بان لنا ما معناه ἸωάννουΑἶνος نشيد يوحنا.

فهذا الابتكار الفني يظهر لنا صحة نسبة الاكطويخُس الصغير للقديس

---

1) راجع كتاب المعزي او الاكطويخُس الكبير، طبعة روما ١٨٨٥

Παρακλητικὴ Ἤτοι Ὀκτώηχος ἡ μεγάλη.

يوحنا الدمشقي الذي كتب اسمه في صلب الكتاب ووزّع حروفه على مبنى الثمانية الالحان التي نسقها ونظمها، وتركها للكنيسة كثروات ثمين. ولعل الغد القريب يؤتينا بالاكتشافات الجديدة الكبيرة عن مؤلفات هذا القديس والشاعر الكبير، والملفان المفوّه الذي عدّه لاون الثالث عشر ملفان الكنيسة الجامعة، وهو يضيف اليوم مجداً الى مجد بانه شاعر الكنيسة الاوحد الذي نظم العذارى والرهبان اجواقاً اجواقاً ولقنهم الحاناً يسبحون ويرنمون للرب مدى الدهر.

والتوزيع اليوناني غني في موضوعاته. فهو إما ان يكون جملة او شعاراً، او اسم علم، او حكمة فلسفية او روحية، او بيتاً من الشعر الايمبيكي Iambique، او ابياتاً عديدة، كما في قصائد الدمشقي لاعياد الميلاد والظهور والعنصرة.

والدمشقي المتلاعب في مباني القصائد لا يقف عند استعمال توزيع بسيط، بل يتلاعب بفنه ومهارته بالتوزيع الشعري فيؤلف توزيعاً من التوزيع نفسه كما في قصيدة عيد العنصرة.

واليك عنوان القصيدة بالتوزيع:

Θεογενὲς Λόγε, πνευμαπαράκλητον πάλιν ἄλλον.
Εκ γενετουκόλπων ἧκας ἐπιχθονίοις,
Οἷα πυρὸς γλώσσῃσι φέρον θεότητος ἄϋλον.
Σῆμα τεῆς φιλίης, καὶ χάριν ὑμνοπόλοις.

فالشاعر يوحنا لم يكتف بتوزيع بسيط واحد بل ألف توزيعاً شعرياً مركباً من اربعة ابيات. وكل حرف من هذه الاربعة الابيات وزّع على بيت من القصيدة الى آخر حرف. ثم لاحظ ان الشاعر صنع توزيعاً في التوزيع نفسه فكان توزيع الاربعة ابيات كلمة: الله Θεός وانا لنتعجب من براعة يوحنا الدمشقي[1]، وشغل فكره في مباني القصائد التي كانت معرضاً لبنات افكاره ودليلاً الى الحقائق الازلية اللاهوتية التي تتنى بها وعلمها للكنيسة، حتى يراجعها ابناؤها ويتعلموا الحقائق اللاهوتية بسهولة ووضوح، في قالب بديع من الشعر العالي المدرسي.

1) cf. Krumbacher, *Geschichte der Byzantinischen Literatur*, 2e édition. Munich, 1897, p. 674

وهنا نبدي ملاحظة ونقول : ان يوحنا الدمشقي وحده ، بين الشعراء الدينيين ، نظم الشعر المدرسي في اناشيد خالدة ضمّت بين تقاطيعها قواعد الشعر الحديث الذي نظم عليه كل الشعراء اليونان الدينيين مثل رومانس المرنم ، واندراوس الاقريطشي ، وقزما اسقف مايوما ، ويوسف كاتب التسابيح ، وثاودورس ناظم التريودي ، وغيرهم كثيرون .

التوزيع عند العرب

وادرك العرب هذا النوع من البديع الشعري ، فراحوا يستخدمونه في القصائد والابيات والمقالات النثرية في اوائلها واواسطها واواخرها كما في مربعة ابن دريد وهذه مقاطعها الاولى[1] .

ا

أ أبقيتَ لي سقماً يمازج عبرتي — من ذا يلذُ مع السقام بقآءَ أ
أ أشمتَّ بي الاعداءَ حين هجرتني — حاشاك مما يُشمت الاعدآءَ أ
أ أبكيتني حتى ظننتُ بانني — سيصير عمري ما حييتُ بكآءَ أ
أ أخفي وأعلنُ باضطرار إنني — لا استطيع لما أجنّ خفآءَ أ

ب

ب بقلبي لـذعٌ من هواك مبرِّحٌ — نعم دام ذاك اللذع ما عشتُ للقلب ب
ب بك استحسنت نفسي الصبابة والصبي — وقد كنت قبل اليوم ازري على الصبِّ ب
ب بذلتُ له الدمع الذي كنت صائناً — لادناه الا في الجليل من الخطبِ ب
ب بُليتُ ببعض الحب والبعض موعدي — مجاورةً بعد المنية في الترْبِ ب

ت

ت تمنَّيتُ المنيَّةَ يوم قالوا — غداً بجموع شملكم شتيتُ ت
ت تعيش صبابتي ويموت صبري — ونفسي لا تعيش ولا تموتُ ت
ت ترآءى لي الأسى فصددت عنه — فقال اليك انك لا تفوتُ ت
ت تكلم ماءُ عيني عن فؤادي — وقلبي من سجيّتهِ السكوتُ ت

وفي الخزانة الظاهرية في دمشق ، ضمن المجموع رقم ٥ من الابيات قصائد من نظم ابي الحسن علي بن محمد الاندلسي الجزري نسج فيها على منوال

[1] مجلة الضياء ٥ [١٩٠٣] ٢٧٧

ابن دريد في مرتبته . غير انه جعلها عشرة عشرة بدلا من اربعة ولذلك تعرف بالقصائد المعشرة .

وقد رأينا في خزانة المخطوطات للاستاذ العلّامة عيسى اسكندر المعلوف كتاباً عنوانه: «هذا مجموع غرائب صناعات الاشعار» وهذا الكتاب مخطوط بخط جميل وقديم بالحبرين الاسود والاحمر. وهو يقع في مجموعة من الشعر القديم في اكثر من ٥١٦ صفحة بقطع الربع وعلى هوامشه اشعار وابيات كثيرة. رأينا فيه بدائع من فنون الشعر. منها التوزيع، وما نظم على حروف المعجم او نثر، وفيه دوائر غريبة فنية ومربعات ومثمنات ومشجرات واشباهها فيخرج منها اشعار بديعة .

ولم يذكر فيها اسم جامعها او مؤلفها ولكن يستدلّ من خطوطها وورقها وتجليدها انها قديمة نادرة الوجود لان صاحب المكتبة المذكورة بحث طويلا في قوائم وخزائن المكاتب الاوربية والشرقية فلم يعثر على نظير لها .

وفيها غير المنظومات الفصحى بعض مواليات وازجال، وكلها تحتوي على هذه الفنون البديعية النادرة . ومن اغرب ما فيها اشعار ليس فيها حرف متصل واخرى ليس فيها حرف منفصل .

فانتخبنا من تلك الفنون العديدة بعض ما جاء عن «التوزيع» . فمنها ما هو موزّع على اوائل الحروف واخرها من حروف الهجاء اولها الف وآخرها الف، ومنها ما هو موزّع بالكلمات والحروف . والكلمات الموزعة بالنسخة الخطية مكتوبة بالحبر الاحمر ونحن وضعناها بين هلالين لتطلع القراء عليها والكلمات الموزعة توجد باوائل الصدر والشطر.

توزيع بالكلمات :

«ان» الحبيب اتى بكاني زائراً «فجل» الظلام الصد حين اتاني
«تجد» الهوان من الهوى يا عاذلي «من لا» رأى حالي فلا يلحاني
«عيبا» على الصب المحب سلوّه «عيب» الذي يهوى وليس يُعاني

« قد » الفؤاد فمذبي لما نوى « فيه » وشوقي نحوه ابراني
« الخلّ لا » يرثي لعظم بليّتي « وعليَّ » تبكي رحمة اخواني

فالكلمات الموزّعة هي بيت من الشعر :

ان تجد عيباً فسدّ الخللّ جلَّ من لا عيب فيه وعلا

وربما تكون الكلمات الموزّعة في اثناء الابيات كما في قصيدة ننقل بعض ابياتها :

« القلب » من عبدك المسكين مشتعل والدمع من عينه في الخدّ ينهملُ
وانت « كالملك » الفظ الغليظ اذا شكا اليك فلا ترثي ولا تصلُ
فجسم عبدك بال « والجوارح » من فرط الغرام بنار الشوق تشتعلُ
والوجد في « جنده » وقف على كبدي فها انا ابداً بالضرّ مشتملُ

فيكون ما وزّعه الشاعر هذه العبارة :

« القلب كالملك والجوارح جنده. » وفي هذا المعنى اشياء كثيرة نكتفي منها بما مرّ.

ومن التوزيع ان يوزّع كل حرف على كل كلمة بالاطراد مثل الرسالة السينية للامام الحريري صاحب المقامات :

« بسم القدوس استفتح وباسعاده استنجح سيرة سيدنا السيد النفيس سيد الرؤساء سيف السلاطين . . . واستنارت نفسه وبسق غرسُه واتسق انسه. »

وقد وزع الكاتب الناثر حرفاً من الهجاء ، حرف السين ، في كل كلمة من الرسالة وهذا التوزيع نادر جدّاً مما لم يُنسج على منواله.

ومن التوزيع الغريب ما جاء في كتاب « شحذ القريحة في المقطعات البليغة الفصيحة » تأليف عيسى اسكندر المعلوف وهذا الكتاب مخطوط في نحو الفي صفحة في جزءين الاول في الشعر والشاعر والفنون الشعرية والثاني في معاني الاشعار منها قصيدة نادرة سماها ناظمها المجهول « الموصلات » وهي لا تقرأ حتى تصل اول كل كلمة بالتي بعدها على التوالي من اولها الى آخرها وهذا مثال قليل منها :

اغا لشوق قلبي طما   الما ورث جدي زءا
أبد لاشجان يسمفني   أقـع لحب مثلي نما
أر حشاي وى أقدها - لما ولا جودي دما

فقراءة هذه الابيات هكذا :

اغا الشوق لقلبي قطمـا   طالما اورث وجدي جزءا
زائد الاشجاني لا يسمفني   يانع الحب لمثلي منما
نار احشائي حوى واقدها   ألمًا لولا وجودي جدءا

وهذا النوع من التوزيع هو من نوادر القصائد والصناعة البديعية في الشعر .

ومن فنون الشعر في عصر الانحطاط قصائد « محبوكات الطرفين » وهي ان توزع الحروف في كلمات اذا قرأتها على التوالي في اوائل الابيات تخرج منها ابيات شعر وهي مشهورة بالقصائد التاريخية .

واول هذه القصائد قصيدة شاكر النحلاوي الدمشقي في مدح الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي. ومن فنونها يبتدئ الشاعر ببيتين او اكثر من الشعر في كل شطر منها تاريخ بحروف المعجم للسنة التي نظمها ثم يوزع البيتين كل حرف منها على بيت من الشعر وذلك البيت يشتمل على تاريخين ايضاً ، في الصدر تاريخ ، وفي الشطر تاريخ الى نهاية القصيدة.

وقد جاء بعد شاكر النحلاوي كثيرون ونظموا على هذا المثال قصائدهم التاريخية منها قصيدتا الشيخ ناصيف اليازجي . الاولى في ابراهيم باشا المصري لما فتح سوريا سنة ١٢٤٨ هجرية (١٨٣١) ، وهذه السنة موجودة في كل شطر من البيتين وفي القصيدة . وقد وزع الشاعر حروف البيتين على اوائل الابيات في القصيدة وهذان البيتان هما :

انت الخليل وفي الاطلال برد لظى   اطلال عكا ورفض الرعب والحذر
١٢٤٨   ١٢٤٨   ١٢٤٨   ١٢٤٨

كن بالقنا اوج سعدٍ ما به ضرر   او غالباً لم يزلْ في اول الظفر (١

---

١) راجع ديوان الشيخ ناصيف اليازجي « النبذة الاولى » المطبعة الشرقية سنة ١٩٠٤ ص ٢٢ .

واليك الان توزيع اول كلمة مثال على ذلك انت الخليل :

أ الزهر تبسم نورًا عن اقاحيها اذا بكى من سحاب الفجر باكيها
ن نور الاقاحي الذي ما بالحياء به من صحة وصفاء عزّ منشيها
ت تلك الربوع لليلى ابن مربعها عن قصده وسيوف الرب تحميها
أ ادماء تجني على الاكباد مصلية تبارك الله ما احلى تجنّيها
ل ليلى ولي شوقُ قيس في محبتها فشعره فجنون شابهُ فيها
خ خال لها عمّهُ وَرْدٌ بدا حرماً في وجنةٍ حميت عمن يدانيها
ي يقول قومي رويدًا قد سمت هوًى فقلت مهلًا شفاءي من نواحيها
ل لعل صافي نسيم من خمائلها اتى يهبّ على روحي فيشفيها

✿

والثانية في السلطان عبد العزيز العثماني سنة ١٢٨٣ هجرية ضمن كل شطر منها تاريخاً لسنة ١٢٨٣ وافتتح صدورها بحروف يجتمع منها بيتان في كل منها اربعة تواريخ للسنة المذكورة وهما هذان :

قلبُ الخليفة . يقظان يجرّدهُ مما يعاف الرضى . من واجب النظرِ
مظفرٌ نائبٌ في ارض واقعةٍ .بارز غالب دنياه بالظفرِ(١

واما القصيدة فهذه ابياتها الاولى :

ق قف بالمطايا على اجادِ ذي سَلَمِ وقُل سلام على من دام في الحرمِ
ل لياء محجوبة عن مرسل بصرًا دامت على حجبها حتى على النسمِ
ب بارحتها وتربل الشوق في كبدي أقسام يحرقُ دمًا رش كالعنمِ
ا اشكو الى الله ما حاربت في زمني في حبها من جيوش الفتك والسقمِ
ل لقيت في الحتف هولًا لا ألام به فذاك الصب قيد بحكم التّزمِ
خ خودٌ من العرب فيها النحب طاب لنا كما يطيب لحيٍّ اطيبُ النغمِ
ل لعزّها الذلُّ صفوَ الدر نحسبه والسُّم من يدها خير من الدّسمِ
ي يحلو الضنى في هواها الصحب فلي فيه الشفا كالشفا واللوم كالنعمِ
ف فتانة بجمالٍ طيبُ مورده ما زال يحمي لعبد لاذ بالحرمِ
ت تبارك الله منشيها على مُلَحٍ تحلو وتحمي قلوب الناس كلهمِ

وكذلك قصيدة ولده العلامة الشيخ ابراهيم اليازجي في اسماعيل باشا

(١) راجع ديوان ناصيف اليازجي « النبذة الثالثة » سنة ١٩٠٣ ، ص ٣٢ .

خديوي مصر وهي على هذا الاسلوب. ومن بعد اليازجيين نظم ملحم الشبيل، وشاكر شقير، والشيخ خليل اليازجي وغيرهم قصائد على هذا الاسلوب وهي من غرائب التوزيمات المقيدة بالتاريخ.

ومن اغرب القصائد الجامعة بين التوزيع والتاريخ قصيدة الشيخ محمد قبادو التونسي مدح بها السلطان عبد المجيد العثماني سنة ١٢٧٦ هجرية ومما جاء في مطلعها قوله :

خير حام «مجد» مجير «العبيد» «حاط خيراً مجرى» عبد المجيد
«حاطه» من عثار «جمد» برجف «منتج» جحد «عرف ربق» عهود

فقراءة هذين البيتين ما خرج عن نطاق الهلالين

خير حام مجير عبد المجيد من عثار برجف جحد عهود

ويخرج من هذه القصيدة الفنية مولدة فيها آلاف من التواريخ .
واليك الآن توزيعاً غريباً تاريخياً :

هو تاريخ بقلم شاكر شقير اللبناني يهنئ بزفاف خديجة هانم شقيقة عباس باشا خديوي مصر الى الامير عباس حليم باشا في مصر وذلك سنة ١٣١٢ هجرية وسنة ١٨٩٥ مسيحية .

وقد وزع الشاعر في كل شطر اسم عباس حليم وخديجة توفيق على الكلمات التي يصدر منها تاريخ في كل شطر يوازي :

ع	ب	ا	س	ح	ل	ي	م	
عادات	بادرة	المحاسد	سبد	حرّاً	انصرخا	يجوز	مكرما	
		١٣١٢				١٣١٢		

خ	د	ي	ج	ه	ت	و	ف	ي	ق
خط	دعاك	يعيد	جدك	هانئاً	تمناً	وقدرك	في	يسارك	قدما
		١٣١٢					١٣١٢		

وهكذا وزّع شاكر شقير أحرف عباس حليم وأحرف خديجة توفيق على اوائل كلمات البيتين .

ثم ان الاب يوحنا طنوس الشاعر الملهم نظم في هذا الاسلوب قصيدة عصماء وزع عليها احرف كلمات «السلام لك يا مريم» [1] ونجعل القصيدة خمسين بيتاً :

ا   اهدوا السلام وحيُّوا ربة النعمِ   صفوَ الخلائقِ امَّ الله والأُممِ
ل   لاحت بعالمنا بالنور طالعةً   كنجمة الصبح لاحت في دجى الظُلمِ
س   سمُّ الخطيئة لم يمسس طهارتها   فهي البريئة من اوزار إثمهمِ
ل   لم يلحظ الله فيها سبه شائنةٍ   او ظل بائسةٍ او ريبة التُهمِ
ا   الآبُ كملها والابن جملها   والروح كللها في اعظم العظمِ
م   من قبل ما ولدت كانت مقدسةً   من فور تصويرها في حيز النسمِ
ل   لما تبدت بنور الطهر ساطعةً   نادى الملائك من هذه بجمعهمِ
ك   كالصبح مشرقة كالبدر مشرقة   كالشمس مختارة تخفي ضيا النجمِ

ومن هذا النوع قصيدة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف نظمها في يوبيل البابا لاون الثالث عشر ٠ وله قصائد عديدة على طريقة التوزيع الحرفي وفي الكلمات ايضاً . والتوزيع الترتيب الفني هو الذي نظمه في تتويج نقولا الثاني امبراطور روسية قال :

(قيصر) موسكو (متوجوم) بالثنا   لذا (جرى) حلاوة ما وصفا
(دولة) عز (بتدبيره) الهنا   فاليمن (بالرابع) عشر قدرنا
بمجد (روسيا) تباهت (بتتويجكو)   و(عشر) مرات نباهي الملكْ
جاد (نقولا) للبلاد (الناصرة)   (من شهر) سعد بالهبات الناصرة
فالقيصر (الثاني) يدوم (فيها)   ما هلَّ (ايار) يعيش تيها

طريقة استخراجها

فاقرأ عمودياً كلاما جرى   بين هلالين غدا مختصرا
ثم اعتبره بحساب الجمل   تجد بياناً في صوغ الجمل
ثلاثة من التواريخ ترى   اسلوبها في بابه مبتكرا
يوم الثلاثاء جرى التتويج   لذاك تاريخي له تدبيج
عام ثاني منة والف   وسنة التسمين ختم الوصف.

---

1) راجع المشرق (٧ [١٩٠٤] ٤٤١–٤٤٣)

والفقرات التاريخية المستخرجة من بين الهلالين عمودياً هي ثلاثة اشارة الى يوم الثلاثاء وهو يوم التتويج :

١ : قيصر دولة روسيا نقولا الثاني
١٨٩٦ = ٥٩٢ ١٨٧ ٢٧٧ ٤٤٠ ٤٠٠

٢ : توجوه بمدينة موسكو العامرة فيها
١٨٩٦ = ٩٦ ٧٤٢ ١٢٢ ٥٠٢ ٤٢٠

٣ : جرى بالرابع عشر من شهر ايار
١٨٩٦ = ٢١٢ ٥٠٥ ٩٠ ٥٧٠ ٢٠٦ ٢١٣

ونكتفي بهذه الامثال الدالة على جهد وصبر . ولا يخفى ان التوزيع كثيرًا ما يوقف سياق العواطف فيقوم سدًّا لوضوح الافكار ووضوح المباني

تحفة القادم

لابي عبدالله بن الأبّار
(مقتضب)

نشرها
الفريد البستاني
استاذ الادب العربي في معهد الدروس المغربية (تطوان)

(تتمة)

٥٤ – أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الجُنَيْبي

من أهل بلنسية. ويعرف بابن الشوّاش. لم اقف على تاريخ وفاته، واراها قبل هذه المائة السابعة، قال: انشدني ابو بكر محمد بن الحاج ابي عامر محمد ابن حسن الفهري قال: انشدني خالي لنفسه وكان يقول انه شهر بالنسبة الى خاله ابن الشوّاش المشهور ببراعة الخط:

وَرْدُ خدّيك قد ذبل　　بعذار بـه اشتمل
خالـه الحسن ارقمًا　　جاء ينويه فاحتمل
بلغ الحاسد المنى　　وأرى الشامت الأمل

وله بديهة في باكورة ورد ، بالانشاد ايضاً :

تمَّ السرور بورد زان مجلسنا ـ فناب عن خدّ من اهوى ونفحتهِ
فاشربْ شبيهته وانعم بمشتبه لعلّ زورة ذا بُشرى بزورتهِ

٥٥ — أبو القاسم احمد بن ابراهيم بن نصَير

من أهل شوذر ، عمل جيان ، وسكن قرطبة . وتوفي بمالقة رابع المحرم سنة اثنتين وستمائة . وكان من رجالات الاندلس ، له :

ايا هضبتي مجدٍ ويا كوكبي سعد ويا رافدَيْ رفد ويا صارمَي حدّ
عياناً فقد أودى الحطيم ومكنت من الدهر في حومانهِ يد ذي حقدِ
وكيف واني وهو يسند منكما الى منعة تربي على الابلق الفردِ
فان يدْعُ يا عثمان افرخ روعه وان يدْعُ عبد الحق ايقن بالعضدِ
ينام رخيَّ البال ملءَ جفونه ولوبات من بين الاساودِ والأسد

٥٦ — أبو الفضل عبد المُنعم بن عمر الغسانيّ

يعرف بالجلياني . وجليانة من عمل وادي آش . رحل من الاندلس الى المشرق ومدح الملك صلاح الدين ابا المظفر يوسف بن ايوب ، ومن قوله :

فأبخس شيء حكمة عند جاهل وأهونُ شخص فاضلٌ عند ظالم
فلوزفت الحسناء للذيب لم يكن يرى قربها الا لقضم المعاصم

وله :

أؤمّل لقياكم وان شطّت النوى وازجر قرباً في مرور السوانح
ويذكي اشتياقي زند تذكار عهدكم وما الشوق الا بعض نار الجوانح

٥٧ – أبو علي حسن بن محمد بن علي الانصاري

من أهل مالقة • ويعرف بابن كسرى . وتوفي سنة ثلاث او اربع وستمائة ، ومن قوله :

إلاهيَ انت الله ركني وملجئي ... وما لي الى خلق سواكَ ركونُ
رأيتُ بني الايام عقبى سكونهم ... حراكٌ ، ومن بعد الحراك سكونُ
رضى بالذي قدرت تسليم عالم ... فان الذي لا بدَّ منه يكونُ

قال : وانشدنا ابو الحسين بن السراج : انشدنا ابو علي بن كسرى بمالقة لنفسه ارتجالًا في راقصة تسمّى نزهة وتعرف بتخطّ الشوق :

تخُطّ بخطّ الشوق في القلب شخصها ... ففي كلّ ما تأتيه حسنٌ وتحسينُ
ولَيْسَتْ تطيقُ الشين في حال نطقها ... فمن اجل بعد الشين بأعدها الشينُ
اذا رقَصَت ابصرتَ كلَّ بديعة ... ترى الفاً حيناً وحيناً هي النونُ
فيا نُزهة الابصار سمّيت نزهة ... لكي يُوضح المعنى بيان وتبيينُ

٥٨ – أبو عمران موسى بن حسين بن عمران الزاهر

يعرف بالميرتلي واصله من ثغر ميرتلة . وسكن اشبيلية . وتوفي سنة اربع وستمائة قال : انشدني ابو سليمان بن حوط الله قال : انشدني لنفسه من ابيات :

الى كمْ اقول ولا افعلُ ... وكمْ ذا أحوم ولا انزلُ
وازجر نفسي فلا ترعوي ... وأنصحُ نفسي فلا تقبلُ
وكم ذا اؤمّل طول البقا ... واغفل والموت لا يغفلُ

٥٩ – أبو المعالي ماجد بن محفوظ بن مرعى الشريف

من أهل بلنسية . ومن ولد طلحة بن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ومن قوله :

رِدِ المجرّة نهرًا ان ظمئت ولا تقنع ببرض من الآمال او ثَمَدِ
ولا تقل ليس لي ذات اسود فانّ هـذا قيـاسٌ غـير مُطردِ
هذا الفلانيّ مُستقضًى بشاطبة وليس من حظه الاحكام في صددِ
لا غروَ ان يسمو الرذلُ الخيار كما يسمو على الماء ما يطفو من الزبدِ
لا يرتضي خطة نيطت به احـدٌ والصقر ليس بصيّاد مع الصّردِ
ما ضرّه وهو قاض ان يلام وان ليس القضاء بمجوب الى احدِ
حطّوه عن رتبة قدّمتموه لهـا من الحضيض وردّوا العير للوتدِ

٦٠ – أبو عمر محمد بن عبد ربه الكاتب

سكن مالقة . وكتب لواليها المعروف بالمنذر . ثم ولي عمالة جيّان سنة اربع وستمائة ، وكناه ابو بكر بن صقلاب في بعض ما خطب به ابا عبدالله وهو القائل :

تقضّى زماني بين عَتْبٍ واعتـابِ وجفّت دموعي بين سحٍّ وتسكابِ
وطال بعينيّ ان ترى غير غـادرِ فأَولى لعيني ان تكفَّ واولى بي
الا ليت شعري هل أرى مثل فتية ذوي همم في الملوات واحسابِ
اذا شئت ان تلقى فتى ليس دونهم فيمّم ابا بكر يزيد بن صقلابِ

وله ، ويروى لبعض الامراء :

بين الرياض وبين الجوّ مُعتركٌ بيض من البرق او سمر من السمُرِ
إن أوترت قوسها كفّ السماء رمت نبلًا من المزن في صافٍ من الغدرِ

فاعجب لحرب سجال لم تُثِر ضررًا نفعُ المحارب منها غايةُ الظفرِ
فتح الشقائق جرحاها ومنهزما وشيُ الربيع وقتلاها من الثمر
لاجل هـذا اذا هبّت طلائعها تدرّع النهر واهتزّت قنا الشجر

٦١ – أبو جعفر احمد بن عبد الرحمن المعروف بابن شطرية

من أهل قرطبة واحد تلامذة الاستاذ ابي جعفر بن يحيى . وتوفي في حياته محتضرًا بِرسي قرطبة عند وصوله اليها من مراكش ، قاله لي ابو العباس احمد ابن علي القرطبي القاضي صاحبنا ، وانشدني له :

لقـد ظلمت يوم الوداع ظلومُ امـا علمت ان الفراق اليمُ
وغادرت المشتاق لهفان سجوه صحيحٌ ولكنّ العزاء سقيمُ

وله :

هـلال سماء او غزال سماوة الى خلدي يسمو وفيه يسيمُ

٦٢ – أبو عبدالله محمد بن طالب الكاتب

من أهل مالقة . وكتب لواليها ابي عامر بن سحنون ، وصادف جمعًا من العرب في بعض متوجهاته ، فقتلوه ، رحمه الله . له من قصيدة يرثي ابا القاسم بن نُصَير :

أنصَيرُ أم عن سماحٍ وجودْ نصير الى عدم من وجودْ
لقد عـدل الموت بين الورى فـاودى بسيدهم والمسودْ
ففيمَ العويـل وعمَّ السلوّ وما للهديل ومـا للنشيدْ
وأين الغواني وأين الصريع وما شأن صخر وبنت الشريدْ
وكيف يسيغ لذيذ الورود مَن الموت منه كحبل الوريدْ

٦٣ – أبو العباس احمد بن يعيش بن شكيل الصوفي

من أهل شريش . واحد شعرائها الفحول مع نزاهة ومروءة . وله ديوان

شعر . توفي معتبطاً سنة خمس وستمائة . له في مقتل ابي قصبة الخارج بجزولة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، من قصيدة اولها :

الله اطفأ ما اذكى ابو قصبة من حربه وأزال السحر بالغلبة
أمر الخليفة وافاه على عجل يدعوه للحق حتى ابتزه كذبه
فمن اراد سؤالاً عن قضيته فجملة الأمر ان الحق قد غلبه
لقد شفى النفس ان وافى بهامته صدر القناة مكان الصدر والرقبة
لما استمر جماحاً في ضلالته عادت عليه لجاماً تلكم القصبة

وله :

الناس في السلم والعشاق بينهم في اعظم الحرب من اخبار من عشقوا
كم موقف للوغى صعب سلمت به حتى شهدت وغى انصارها الحدق

٦٤ — أبو الحسن مُطرِّف بن مُطرِّف

من أهل غرناطة . له :

وكم مجنّنة هام الفؤاد بها قدماً وصورتها من احسن الصور
كأنما البدر في تدويرها فاذا شُقَّت على النصف كانت شقة القمر

وله :

وصَفوا سهلًا فقالوا حاطب والليل ليل
إنما العلم الثريا والفتى سهل سُهَيل

وبلغ ذلك سهلًا فقال :

حسدوا سهلًا فقلنا إي لعمري حسدوه
صغَّروا الاسم افتراء وكبيرًا وجدوه

وردّ عليه ابن مرج الكحل :

ان دعوني بسهيل فانا حقاً سُهيل
قد دهاكم من طلوعي يا بني الزناء وَيل

ولابن مطرف وهي من غُرره :

سُنة سنّها قديماً جميلُ وأتى المحدثون مِثلي فزادوا

٦٥ – أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر بن عُذره الانصاري القاضي

من أهل الجزيرة الخضراء . صُدّر في نبهائها . وكان خطيباً مفوّهاً . توفي سنة ست وستمائة ، قال : حدثني ابن اخيه ابو القاسم عبد الرحمن بن ابي الحكم الكاتب انه وقف على قبر ابيه ابي حَفص ومعه اخواه ابو بكر محمد وابو الحكم عبد الرحيم فقال ابو القاسم :

يا أيها الواقف استغفر لمودعهِ ربَّ العباد وربَّ الجود والكرمِ

وقال ابو بكر :

واحذر هجوم المنايا واستعدَّ لها وعُدَّ نفسك إحدى هذِه الرممِ

وقال ابو الحكم :

ولا تغرّنك الدنيا وزينتها فكم ابادت وكم افنت من الأممِ

قال : وهي طويلة ومنها :

واعلم بانك مسؤولٌ ومرتهنٌ بما عملتَ فخف من موقف النَّدمِ

٦٦ – أبو عبدالله محمد بن سَفَر الأديب

منسوب الى جدّه ، واصحابنا يكتبونه بالصاد ، وكان باشبيلية وهو من ناحية . له في المدّ والجزر بوادي اشبيلية ، وابدع فيما اخترع :

شقّ النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطّيه يطلب ثاره
وتضاحكت وُرْقُ الحمام بأيكها هزؤاً فضمّ من الحياء ازاره

٦٧ — ابو زيد عبد الرحمن المعروف بالنجاري

له :

قد صرت ارجو الله من بعد ما قد كنت ارجوك مع الله
يا لاهياً يلهو بكل الورى ما يغفل الله عن اللاهي

قال : وانشدني ابو الحجاج بن ابراهيم بتونس ، قال : وانشدني ابو زيد هذا وحكى انه خرج مع ابي بحر صفوان بمرسية يطوفان على ضفة نهرها فوقفا على الدولاب الملاصق للقصر فقال النجاري :

وباكية تبكي فيُسلي بكاؤها وما كل من يبكي اذا ما بكى يسلي

فقال ابو بحر :

كأنّ بكاها من سرور فدمعُها يثير سروراً من جوانح ذي خبل

فقال النجاري :

فياعجباً ينهلّ واكفُ دمعها سريعاً وان كانت تدور على رسل

فقال ابو بحر :

كذاك السحاب الغزر ترسل دمعها سريعاً وتمشي في السماء على مَهل

فقال النجاري :

تسلسل منها الماء من كل جانب فخلتها من عبرة الصبّ تستملي

فقال ابو بحر :

كأنّ السحاب الغرّ القت بسرها اليها فلم تكتم وضاقت على الحمل

٦٨ – أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمار البكري

من أهل اشبيلية . ومن اقارب ابو عُبَيد البكري . وقدم على شرق الاندلس في اول هذه المائة السابعة ، وسمع منه ببلنسية بعض شعره شيخنا القاضي ابو الخطاب بن واجب ثم عاد الى بلده ، وبها توفي .

له يصف اشبيلية من قصيدة :

أجِلْ فديتُك طرفاً في محاسنها ... تبصرْ وحقّك منها آيةً عجبا
قطرٌ تكنّفه من جانبيه معاً ... مصانعٌ تحمل الانداء واللهبا
زهر الوجود كأنّ البدر جرّ على ... حيطانها البيض من انواره عذَبا
والنهر كالجوّ راقَ العين بهجته ... تهزّ منه الصَّبا هندية قُضُبا
تراه من فضّة حيناً فان طلَعَت ... عليه شمسُ الضحى ابصرته ذهبا
صفا وراقَ فلولا انه نهرٌ ... اضحى سماء يرينا في الدّجى شهبا
كأنما الجوّ مرآة به صقلت ... زرقاء تحسب فيها زهرها حَببا
ما روضةُ الحزنِ حلّى القطر لبّتها ... ومدّت الشمس في حافاتها طنبا
يوماً بابهج مرأى منه اذ رقصت ... قضب الحدائق في ارجائه طربا

وكان بينه وبين الخطيب ابي الربيع ابيات ، ووجه اليه الكتاب مخاطبة ومراجعة في استدعاء كتاب البلاذري . فجاوبه ابو الربيع بابيات ووجه اليه الكتاب . ومن ابيات ابي الربيع :

تبغي الحديث عن الألى درجت على ... سمت العُلى آحادها وثُناها
طَوت المنونُ حياتها لكنما ... حسن المساعي في الورى احياها
لبّيك داعي خلة مستدعياً ... سيرَ الكرام وقد سبقت مداها
لم يعدك التوفيق فيما رمته ... بل وافقت بك رميةٌ مرماها
سِيَر الاوائل خير ما استنطقته ... عن سنّة المجد التي ترعاها

نعم الجليس على نفار دفترٌ تعتام منه قبلةً ترضاها
لا مفشياً سرّ الصديق ولو جفا ومتى يعاينْ خلّةً اخفاها
يدنو اذا ادنيته ومتى تشا اقصاءه فني الحيا وتناها
خذ كلما احببت تلق مضنّةً حسب الاماني حسنه وكفاها

قال الشيخ أبو الربيع : وكان ابو محمد قد كتب المضنّة في اياته بظاء، ثم تذكر ذلك بعد انفرادها فكتب اليّ :

قل للفقيه ابي الربيع وقد جرى قلمي فاصبح بالصواب ضنينا
ابشر بفضلك ظاء كل مضنّة شالته كفي فاستحال ظنينا

فكتبتُ اليه :

حسّن باخوان الصفاء ظنونا ليس الصديق على الصديق ظنينَا
ما دار في خلدي سوى غلط جرى حاشاك تلقي بالصواب ضنينَا
ولقد بشرت مثال ظاء مضنّة لما أتى بشرت... النّونا

قال الفقيه ابو عبدالله : وانشدني ابو محمد عبدالله بن عبد الرحمن الازدي بتونس قال : انشدني ابو محمد بن عمّار برسية في لابس ثوب اصفر

نارٌ لقلبي نورٌ لعيني كلاهما قادني لحيني
البس للحسن ثوب تبرٍ يزين مرآه ايَّ زينِ
لا تنكروه فغير بدع قميص تبر عَلى لُجَينِ

وله في صديق كان يداجيه :

ومُستبطن حقدًا وفي حركاته تصنّع مظلوم تدل بظالمِ
تصدّى لايناسي بحيلة فاتك ولَاحظني خوفاً بطرف مسالمِ
تستّر من كشف العداوة جاهدًا كما كمنت في الروض دهم الأراقم

٦٩ – أبو الحسن علي بن احمد بن أبي قوة الازدي

من أهل دانية . سكن مراكش وبها توفي سنة ثمان وستمائة ، له من قصيدة يرثي ابا القاسم بن حُبَيش :

لله نعشك يوم حُمّل انـه ... لجميع اشتات العلوم ضمينُ
فكأنه موسى يناجي ربّـه ... وثناه من بعده هـارونُ
هذي المنابر باكيات بعـده ... فلها عليه زفرة وانينُ
ولطال ما طربت به حتى ترى ... عيدانها قد عُدْن وهيَ غصونُ

٧٠ – أبو القاسم عبد الملك بن عبدالله بن بَدْرون الحضرمي

من أهل شلب . ويكنى ايضاً ابا الحسين . مؤلف « كمامة الزهر وصدفة الدرر » في شرح قصيدة ابي محمد بن عبدون اليافر الذي يرثي بها المتوكل وله :

ليَهْن الاعادي منك انّ سروجهم ... وان انعموا دون اللحود لحودُ
فان وضعوا كفّاً فسيفك ساعدٌ ... وان رفعوا راساً فرمحك جيدُ

٧١ – أبو اسحق ابراهيم بن محمد الذكواني الكانمي

قال : وزادني عبدالله الصفّار انه سُلَيمي ذكوانيّ من قرية من قرى السودان بكانم تسمّى بَلْمة . وكانم بلدٌ مما يلي صعيد مصر . وكان لونه غربيباً وامره غريباً . قدم على المغرب قبل الستمائة ، وسكن مراكش ، واقرأ بها الآداب . قال : وبلغني أنه دخل الاندلس ، وتوفي سنة ثمان او تسع وستمائة ومن قوله :

كم سائل لِمَ لا تهجو فقلت له ... لانني لا أرى مَن خاف من هاجِ
لا يكره الذمّ الأكلُ ذي انف ... وليس لومُ لئـام الخلق منهاجي

وله يتعصب لبعض الالوان :

لا تشهدنَّ لغربيبٍ ولا يقَقٍ حتى تشاهد فضلاً غير مردودِ
بكلّ لون ينـال الحرُّ سُودَدَه مهما تجرَّد من اخلاقه السُّودِ
والناس لفظ كلفظ الود مشترك لكن يرجح بين العود والعودِ
اما ترى المسك حقَّ العاج يخبؤهُ والجصُّ مطَّرح فوق القراميدِ
ولم ينـال ابن عمران بأدمته حين اصطفاه كليماً خيرَ معبودِ

وأنشدني ابو القسم بن عاصم قال : انشدني ابو زيد الفازازيُّ لابي اسحاق هذا ، اثر خروجه من عنده قد اتاه زائراً :

أفي الموت شكٌّ يا أخي وهو برهانُ وفيمَ هجوع الخلق والموتُ يقظانُ
أتسلو سلوَّ الطير تلقط حبَّها وفي الارض أشراكٌ وفي الجوِّ عقبانُ

٧٢ — أبو بكر محمد بن ثعلبة الكاتب

من أهل غرناطة . له ، قال : ونقلته من خطه :

حامت طيور رجائي وهي ظامئةٌ على شريعة قرب منك ترويها
فابدا لها العَذْب من لقياك انَّ لها سجعاً بذكركمُ ما زال يغريها
وريش لها من جناح الفضل قادمةً بابنَ الكرام فقد هيضت خوافيها
راحت اليك ابا العباس مأربتي ترجو النجاحَ فلا تقطع ترجّيها
ولم تَومّ سوى كفّيك من صنع هي القسيُّ وانت اليوم باريها
وفي التداني الى نجواكَ ايّ منى فان منيت فليس المطل يعروها
سوف بها أمل المشتاق منك رضًى فان جود العُلى بالوصل يرضيها
هـذا ولا رغبة في نيل طائلة الا بدايع من يمناك تهديها
أجلْ بنانيَ في مَجنَى ازاهرها فطال ما بتُّ بالافكار أجنيها

وقد وجدتَ لمنى العيش لفظ على ... فأيقنت بغيتي ان سوف تحويها
لا زلت تحيي لها من رَوْمها املا ... أوذي، وتبني عُلا هدَّت مبانيها

٧٣ – أبو عبدالله محمد بن محمد بن سليمان الانصاريُّ الاستاذ

من أهل بلنسية. ويعرف بابن ابي البقاء. وأصله من سرقسطة. وتعلم كبيرًا، فبرع في العربية. وعلّم بها، واعتنى بتقييد الآثار. وكان شاعرًا مجوّدًا مقطعاً ومقصِدًا، وتوفي في سنة عشر وستمائة. ومن قوله:

غيرُ خافٍ على بصير الغرامِ ... انَّ يومَ الفراق يوم حِمامِ
عبرات تصدُّ عن نظراتٍ ... ونشيجٌ يحول دون كلامِ
ودماءٌ تراق باسم دموع ... ونفوس تودي بوَسْم سلامِ
شربت بعدك الليالي حياتي ... غير اوشالِ لوعتي وسقامِ

وله. قال انشدنيها صهره ابو الحسن علي بن احمد المكناسي، قال: انشدني لنفسه: قال لي ابو عبدالله حضر ابي بحر ليلة بمرسية وبها جماعة من الطلبة ووجوه الناس ومنهم طالب بلنسي، فتباسطوا الى ان عرضوا عليه ان ينشدهم فانشد هذه القصيدة، فقال ابو بحر: ما تقلون من كلام مُهيار، فقال له البلنسيُّ: ولا بدُّ هذا كلام مهيار، فقال: هذا نفسه وهذا متزعه، فقال له: هي للاستاذ ابن ابي البقاء. قال فخزي ابو بحر...

غِبتمُ عن ليـال حافِ السهر ... وطويتمْ غيرَ مـا في مضمر
ودعـا البين بجنيح... ... دعوة البين سوى مصطبر
ليت شعري [هل] وجدتم بعدنا ... ما وجـدنا من اليم الـذكر
لوعـةٌ نجدية تطرقنـا ... وغرامٌ بابـليٌّ يعـتري
وهوى هيّج مـا هيّجـه ... من جوًى اضرمَ نار الـفكر
كلما ابصرتُ شيئـاً حسناً ... بعـدكم اعمات غضَّ البصر

فعلى مَ اطّرحت مودة | لم تشنها وصمة من كدرِ
كان من حقِ الوفا ان تصرفوا | قولة الواشي بحسن النظرِ
لا ووجدي وغرامي في الهوى | وخضوعي فهو احدى الكبرِ
ما نسينا سورةً من عهدكم | كيف تنسى محكمات السورِ
هل الى عودة نجوى سببٌ | أو الى يانع ذاك السمرِ
وبودِّي لو وجدنا سبباً | لارتجاع الفائتات الاخرِ
قد ذوت ريحانةُ العيش وهل | يرجع النضرة ذاوي العُمرِ
ونسيمٌ كلما عللنا | صدَّ عنّا ... يوم السَمَرِ
ما على ظبيٍ سقاني بمنى | لو اراني مثلها في اقرِ
[ينقضي] العام ولا نلقاكم | يا لقومي للضنين الموسرِ
وعلى هذا فلا عتبٌ على | ما جنيتم فهو حكم القدرِ

وله :

سلوا فتيات الحي عني فربما | عصيت التصافي او اضمت التكرُّما
تقول يشوق الحيَّ بان خليطه | ويهتاجُ ان غنّى الحمام وربما
ويسري الى الذلفاء والليل لابسٌ | من النجم والظلماء ثوباً موشما
أيشغلني عن وابل البرق وعده | وابتاع بالبرهان ظناً مرجّما
ايا سائلي عن جلّ همّي وهمّتي | ألم ترني بالمكرمات متيّما
اذا لم ارشّح للفضائل يافعاً | فهل ادرك العلياء الّا توهُّما
وهل يتعاطى ان يكون اخا العُلى | ووالدها من لا يكون لها ابنما
وما المجد الا كفُّك النفس عن هوًى | يلذّ وان سوّغت ذنباً وعلقما
ورميُك جون الليل بالعيس أنه | اذا ناب خطبٌ فارض بالعيس اسهما

وذي رونق كالبرق لكنْ وعده صدوقٌ ووَعدُ البرق كذب وربّما
عفون ... كل عـاسر وقـلت لـه كن للمكارم سُلَّما
وساء الاعادي اذ بكت شفراته وسرّ ولاة الود حين تبسّما

٧٤ – أبو محمد عبد البر بن فرسان الغساني الكاتب

من أهل وادي آش . واخذ بمالقة عن ابي القاسم السهيلي . ثم لحق بافريقية فكتب ليحي بن اسحق بن غانية ، وحضر معه حروبه . وكان من رجالات وقته براعةً وشجاعة ، واصابته في بعض الوقائع جراحة انتقضت به ، فهلك منها سنة احدى عشرة وستمائة قبل وفاة مخدومه بأزيد من عشرين سنة ، فلم يجد عنده احد مسدّه بعد ذلك .

ومن قوله :

ندًى مخضلًا ذاك الجناح المتمّما وسقياً وان لم تشكُ يا ساجماً ظما
اعِدْهنّ الحاناً على سمع معرب يطارح مرتاحاً على القضيب مُعجما
فطر غير مقصوص الجناح مُرَفَّهاً مسوغ اشتات الحبوب منعّما
مخلّا وافراخاً بوكرك نوّما الا ليت افراخي معي كنّ نوّما

وقال :

اما يا ليل دمعك مستهلّ ووجهك كاشفٌ وحشاك خافقْ
أفارقك الانيسُ فراق إلفٍ معاهده فقد يبكي المفارقْ
لطلت على مسهّدك المعنّى وبعض الطول للعادات خارقْ
وغابت انجمٌ لك زاهراتٌ وقد ظهرت مشيباً في المفارقْ
فيا ركبَ الدجى حثحثْ قليلًا لعلّ الفجر تطلعه المشارقْ

وقال :

بيض من مفرق تدوي لخوض هول وخرق دو
وصير الليل منه صبحاً طلوع شمسي بكل جو

وقال :

كفى حزناً ان الزجاج صقيلة وانّ الشبا وهن الصدا بدمايه
وانّ بياذيق الجوانب فرزنت ولم يعد رُخّ الدّست بيت بنايه

وقال : قال انشدنيه الاستاذ ابو عبدالله محمد بن عبد الجبار قال : انشدنا لنفسه :

بين الحجاز وبين الغرب قاطمة من العوائق سدّت دونها الطّرقُ
عوفٌ وزُغب ودبّاب وسالما والهيبون وروم البحر والغرقُ

وله في صدر رسالة يخاطب بها عليلاً :

من لم يزر بخطاه زار بقلبه مستنصراً لك في المّ برّبه
يدعو وقد يجدي الدعاء مجهزاً في حرب انصار الخلوص وركبه
ياغائباً تاقت اليه محافل كانت تألم من زيارة غبّه
لادام هذا البعد بعد ولا اعتدى دهر عليك بموجع من خطبه
ونبا حسام ضنى عزاك وملّت بيد الشفاء قواطع من غربه

٧٥ — أبو الحسين عُبَيد الله بن محمد بن جعفر السكوني

من أهل اشبيلية ، وهو ابن عم الهيثم بن احمد الشاعر الاشبيلي له وقد دخل عليه بعض اصحابه بطبق ياسين واخبره انه بعث في محبوبه فلم يصل اليه ووجّه ذلك الطبق مكانه فقال :

اشارَ الى اليأس من وصله وقد صح في خاطري منذ حين

ولوْ شاء ارسلها وردةً فدلّت على الوردِ للعاشقينْ
على انَّ هـذا وهـذا معاً يـدلّ على خـدّه والجبين

وله في معذر تناول من بده اشمار الستة فلما نظر فيها ووقعت عينه على قصيدة امرىء القيس التي اولها « قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان » قال بدفه مذيلا باعجاز ابيات منها :

وذي صَلَف خطّ المذار بخدّه كخطّ زبور في عسيب يمانِ
فقلت له مستفهماً كُنه حاله لمن طلل أبصرته فشجاني
فقال ولم يملك عزاء لنفسه تمتّع من الدنيا فانك فانِ
فما كان ألّا برهة ورأيته كتيس ظباء الحلب العدوانِ

قال : وهذا من مليح التضمين ونبيل التذييل . وقد كان عند ابي بحر منه ما استحسن قال : وقد كان شيخنا ابو الربيع بن سالم كثيرًا ما ينشد مستملحاً قول ابي محمد بن عبدون ويقول : انشدنا القاضي ابو عبدالله بن زرقون عنه وكان صاحب انزال الدور ببطليوس قد عين له دارًا واهية البناء فكتب الى المتوكل ابي محمد بن الافطس :

أيا ساميًا من جانبيه الى العُلى سموَّ حَباب الماء حالًا على حالِ
لعبدك دارٌ حلَّ فيها كانها ديار لسلمى عافيات بذي خالِ
يقول لها لما رأى من دثورها ألا عِمْ صباحاً ايها الطلل البالِ
فمُرْ صاحب الانزال فيها بفاصل فان الفتى مهدى وليس بفعّالِ

وله من ابيات :

فانت ياولد الفخار انت كما تدعى ولكن سبق الراء للالف

٧٦ — أبو عمرو يزيد بن عبدالله بن أبي خالد اللخمي الكاتب

من أهل اشبيلية وصدر نبهائها وادبائها ، والى سلفه يُنسب المعقل

المعروف «بمجبر ابن ابي خالد» . وتوفي بها سنة اثنتي عشرة وستمائة . فن قوله من قصيدة يهنئ بفتح ميورقة هي باجادته ناطقة :

وغربان نيم قابلته فوارساً — فأدبر لا يرجو له متيمّا
فكلّ كميّ في اللقاء مرّجح — اذا كلح اليومُ العبّاسُ تبسّما
سحائبُ جون ارعدت بصليلها — وابدت بروق البيض كالوشي معلما
ويا حسن ما تبدو خلال دروعها — أسنّتها تحكي السماء وانجما
وقد عانقت سمر الذوابل سمرها — كاضم روض الحزن غصناً وارقما
ويا للجوار المنشئات وحسنها — طوائر بين الماء والجو عوّما
اذا نشرت في الجوّ اجنحة لها — رأيتَ به روضاً ونوراً مُكمّما
وان لم تهجهُ الريح جاء مصافحاً — فجدّت له كفاً خضيباً ومعصما
مجاديف كالحيّات مدّت رؤوسها — على وجل في الماء كي تروي الظما
كما اسرعتْ عدّاً أناملُ حاسب — بقبض وبسط يسبق العين والفما
هي الهدبُ في أجفان أكحل أوطف — فهل صُبغت من عندمٍ اوبكتْ دما

قال ، واجاد ما اراد في هذا الوصف ، وان نظر الى قول ابي عبدالله بن الحداد يصف اسطول المعتصم بن صمادح :

سامَ صرف الردى بهام الاعادي — ان سمت نحوهم لها اجيادُ
وترامت بشرعها كعيون — دابها مثل خائفيها سهادُ
ذات هُدب من المجاديف حاد — هُدب باد لدمعه اسعادُ
حُمَمٌ فوقها من البيض نارٌ — كل من ارسلت عليه رمادُ
ومن الخط في يدي كل ذِمر — الفاً خطّها على البحر صادُ

قال : وما احسن قول شيخنا أبي الحسن بن حريق في هذا المعنى من قصيدة انشدنيه :

وكأنما سكن الأراقم جوفها ... من عهد نوح خشية الطوفان
فاذا رأينا الماء يطفح نضنضت ... من كل خرت حيّة بلسان

قال ولم يسبقهم بالاحسان، وان كان سبقهم بالزمان، علي بن محمد الايادي التونسيّ في قوله :

شرعوا جوانبها مجادف أتعبت ... شأو الرياح لها ولما تتعب
تنصاح من كثب كما نفر القطا ... طوراً وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكأنه ... ليل يقرب عقرباً من عقرب

وله من هذه القصيدة الفريدة في ذكر الشراع :

ولها جناح يستعار يطيرها ... طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها حدب العباب مطاره ... في كل لج زاخر مغلولب
يتنزل الملاح منه ذوابة ... لو رامها يركبها القطا لم يركب
وكأنما رام استراقة مقعد ... للسمع الا انه لم يسهب

وقال ابو عمر القسطليّ :

وجال الموج دون بني سبيل ... يطير بهم الى الغول ابن ماء
اغرّ له جناح من صباح ... يرفرف فوق جنح من مساء

اخذه ابو اسحق بن خفاجة فقال :

وجارية ركبت بها ظلاماً ... يطير من الصباح بها جناح

وللمؤلف في ذلك المعنى :

ياحبّذا من بنات الماء سابحة ... تطفو لما شبّ أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غرباناً باجنحة ... حمائم البيض للاشراك ترزؤه
من كل ادهم لا يلفى به جرب ... فما لراكبه بالنار يهنؤه
يدعى غراباً وللاعجام سرعته ... وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤه

٧٧ – أبو القاسم محمد بن محمد بن نوح الغافقي

من أهل بلنسية ودار سلفه سرقسطة ، وتوفي مسروفاً بمراكش سنة اربع عشرة وستمائة . كتب اليه ابو بكر بن صقلاب وهو اذ ذاك يتولّى قضاء المرية انشدنيها اخوه ابو الحسن :

يا ابا القاسم بن نوح بقلبي ... لدى ود رطبُ المكاسر لَدْنُ
فاذا اعرض المحب فاقبل ... واذا ما تنازح الخلُّ فادْنُ
لقد احتازت المرية نَدْباً ... غبطتها عليه ناس ومدنُ
مشرفاً مشرقاً على كل فضل ... لِيَ منه وللسيادة خِدنُ
قال اذ ساقها اليَّ هبات ... لم يطق حملها بوازل بُدْنُ
انا والله في جوار يزيد ... وردي كوثر وداري عدنُ

وانشدنا ايضاً اخوه ابو الحسن قال انشدنا لنفسه :

لا تغبطن كل موفود الغنى ... مشتملا ملابس العظمه
يلمز لا بسبب الا بما ... يحويه من اكياسه المفعمه
فالله قد اخبر عن امثاله ... وقال في آياته المحكمه
يحسب ان ماله اخلده ... كلا لينبذن في الحطمه

٧٨ – أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز اللخميّ الكاتب

من أهل اشبيلية . يعرف بابن المرخي وكان ابوه ابو الحكم كاتباً ، واما جده ابو بكر وباسمه سمي وبكنيته كُني فنظير . . . ل عبد الله بن ابي الخصال في بلاغته وبيانه ، وبيتهم عريق في النباهة والكتابة قال : ولم ادرك ابا بكر المتأخر هذا وتوفي في سنة خمس عشرة وستمائة .

ومن قوله في قصيدة يخاطب بها استاذه ابا العباس سيّد المعروف باللص مماتباً . اولها :

سأهجر العلمَ لا بغضاً ولا كَسَلا حتى يقال ارعوى عن حبه وسَلا
ولا امرَّ ببيت فيه مسكنه كي لا يَذِلّ شوقي حيثما مَثَلا
اذا ظمئت وكان المذب ممتنعاً فلست عن غير ذاك المذب معتزلا
اذا طردت قصياً عن حياضكم فان نفسي مما تكرَهُ النَّهَلا
قد كان عندي زعيمُ القوم عالمهم فاليوم عندي زعيم القوم مَن جَهِلا
ما ان رأيت الذي يزداد معرفة الا يزيد انتقاصاً كلما كملا
وآية الصدق في قولي وتجربتي ان الجوادَ على الدلات ما وألا

وجاوبه ابو العباس بقصيدة على غير الرويّ معاتباً ، فجاوبه عنها أبو الحسن ابن يزيد بمثلها ، اذ امسك ابو بكر عن المجاوبة .

٧٩ – أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن اللخميّ الكاتب

من أهل قرطبة . ويعرف بالربضي لسكناه بالربض الشرقي منها ، كتب للولاة ثم قعد عن الخدمة ، والتزم عمارة أرضه متعيشاً من غلاتها الى ان توفي اول شوال سنة ثلاث عشرة وستمائة وله في صباه ، وقد عوتب على شرب الخمر :

واتاني المدامة ما اريد بشربها صَافَ الرقيع ولا انهماكَ الكاهي
لم يبقَ من عصر الشباب وطيبه شيءٌ كنهد لم يحل الّا هي
ان كنت اشربها لغير وفائها فتركتها للناس لا لله

٨٠ – أبو بكر يزيد بن محمد بن صِقلاب الكاتب

من اهل المرية . وعاملها بعد ابيه ابي عبد الله . وكان غزلاً ماجناً صاحب ابداع في قوافٍ واسجاع ، توفي سنة تسع عشرة وستمائة . له :

لَهفَ القَصيّ لقد طالت شكاوته ولا طبيب بقرب الدار يشكيه
قد طارحَتْه حمامُ الايك نغمتها حرفاً بحرفٍ فيحكيها وتحكيه

وساجات عبرات السحب عبرته اذا تفيض فتبكيها وتبكيه

وله :

اذا عقدت كفٌّ على ذي مروءة فانت الذي تثنى عليه الخناصرُ
وان اثنت الاعصار يوماً على امرىء فانت الذي تثني عليه الاعاصرُ

وله في طريقة التجنيس :

واخي فتنة ادار علينـا من يديه ومقلتيه رحيقـا
عابثتـه عيوننا فصبغنـا درّ خديـه بالعيون عقيقـا
جعل النقل لثمنا من شفيه فانتقلنا على المدامة ريقـا
عتقت هذه وهذا عتيقٌ فشربنا على العتيق عتيقا
اسكر النقل والشراب جميعاً وابى الكأس واللمى ان افيقا
كلما قلت قد صحوت قليلاً عُدت في حيرة الحِجا رغريقا
لم اكن شائع الطريقة لكن مذ تعشقته ركبت الطريقا
حكمتنا يدُ الهوى في القوافي فعزلنا من الرقيق رقيقـا

قال وهذه القطعة انشدنيها قديماً بعض اصحابنا عنه •

٨١ — أبو عمرو محمد بن عُبيدالله بن غيّاث

من أهل شريش شاعر مطبوع ، توفي اول سنة تسع عشرة وستمائة . له :

نهنهْ دُموعك انّ البين قد ازفا واندبْ دياراً اعليها الشوق قد عكفا
فارق حبيباً وان ساءتْك فرقته فما سَما الدرُّ حتّى فارق الصَّدَفا

وله :

هذي الجفون لاي شيء تذرفُ ولعلّها داري الاحبّـة تعرفُ
من اين تعرفها وقد عميت اسىً أقميصه القى عليهـا يوسفُ

٨٢ – ابو الحجاج يوسف بن طملوس

من أهل جزيرة شُقر ، من عمل بلنسية ، واحد اعلامها الاماثل واحد المحققين بعلوم الاوائل . توفي سنة عشرين وستمائة . ومن قوله :

لعمركَ ما تلقى من الناس واحدًا غدا قلبه مما ابتلينا به خلوا
كأنّ الهوى حتمٌ علينا مقدّرٌ فلا مُهجةٌ الّا تذوب له شَجْوا
ألا صاحبٌ يلحى على الغيِّ صاحباً لقد عدِم العُذّال مذعمّت الشكوى

٨٣ – أبو الربيع سليمان بن احمد بن علي بن ابي غالب المَبْدَري الكاتب

من أهل دانية . سكن مراكش بعد تجواله ببلاد الاندلس . وكان جده علي وابوه احمد واخواه محمد ويحيى شعراء ، ولبيتهم نباهة . وولي ابو العباس منهم قضاء مالقة فامتحن في قصة الجزيري وقد خبب .... وقيل انه اطلق اخاه من السجن بثالثة بالف دينار رشوة فاسلم الى صاحب الشرطة ليضربه الف سوط فهلك قبل استيفائها وامر به فصلب بازاء جذع الجزيري سنة ست وثمانين وخمسمائة . فمن قوله في شكوى الزمن :

اخي كوفيت والبلوى ضروب تعمّ وتارةً تأتي باختصاصا
تعالَ فخذ بحظك من همومي ودع اطلال هند والعراصا
وبالِ اخاكَ دنيا قد تولّت ودهرًا ينهبُ العمر انتقاصا
وما انهيتُ نفسي في المعالي ولا ادركتُ من ثأري قصاصا
فليت العيش اذ لم يقض محضاً رُزقت اذا انقضى منه الخلاصا

وله يصف نارًا

ولقد نعمت بنار فحم اصبحت تختال بين معصفر ومورّدِ
الّا بقايا كالدُجى مسودّة او مثل اصداغ الجواري الخُرّدِ
فكأنما يبدو لعيني منها حبرٌ أريقَ على سبائك عسجدِ

٨٤ – أبو اسحاق ابراهيم بن عيسى بن أصبغ الأزدي

من أهل قرطبة . ومن بيوتاتها الاصيلة . ويعرفون ببني المناصف ، وولي ابو اسحاق هذا قضاء دانية ، وصُرف عنها اول الفتنة المنيمة بالاندلس صدر سنة إحدى وعشرين وستمائة ، واسكن بلنسية اشهراً ثم انتقل عنها . وولي بعد ذلك قضاء سجلماسة ، الى ان توفي بها سنة سبع وعشرين وستمائة ، قال في ترتيب حروف كتاب العين للخليل ، وهو احسن ما قيل فيه على كثرته :

عذّبني حلو هوىً خضته غوايـة قائدة كربي
جالبة شوق ضلوعي صبت ساحرة زاجرة طبي
دوسيّة تيمّني ظبيهـا ذوب ثناياه رضى لبي
نأولني فـاه بلا مانع ووجنـة احسانها عُربي

٨٥ – أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن احمد الفازازي

ولد بقرطبة . ونشأ بها وتجول في بلاد الاندلس والعدوة . وكتب هو واخوه لامراء المغرب ، وبلغا الرتبة العالية . وكانا من مفاخر وقتهما . وابو عبد الله مقل من الشعر . وتوفي بقرطبة قاضياً سنة احدى وعشرين وستمائة . واما ابو زيد فكتب كثيراً ، وشعره مدوّن . وكانت وفاته بمراكش سنة اربع وعشرين وستمائة . قال : ومما عزي لي انه من شعره في الحض على الحج والزيارة .

الناس قـد رحلوا وانت مقيمُ ودعوا وانت محجّبٌ محروم
صدقوا العزيمة فاستقلّت عيسهم وهواك في نيـل المنى مقسوم
غطّتك من آذيّ ذنبك موجةٌ فيها الهـلاك ومـا اراك تعوم
وتـلام في ترك الحجاز فتنثني من غير معـذرة وانت مـلوم
حسن فقد فارقت كل اساءة مهـلاً فـانت بعلمه معـلوم
لا انت في السفر الذين تقدموا نحو النبيّ ولا اراك تقوم

واذا بدا لـك درهم في جلّق   بادرت تقعـد نحوه وتقومُ
واذا اراد الله تبليـغ امرىء   فالعرب خادعـة لـه والرومُ
ما النـاس الا الراحلون لربهم   والآخرون بلابـل وهمومُ
لا خلقَ ألأمُ من محاذر عيلة   في قصد رب الناس وهو كريمُ

وذكر له :

يانائم الطَرف عن سهدي وعن ارقي   وفارغ القلب من وجدي ومن حُرَقي

بكمالها وهي من جيد كلامه في النسيب.

٨٦ – أبو عبدالله محمد بن علي بن حمادو الصنهاجيّ

من أهل قلعة حماد . وكان بشرق الاندلس في اول هذه المائة السابعة . ثم ولي قضاء الجزيرة الخضراء وقضاء سَلا بعد ذلك ، وتوفي سنة ثمان وعشرين وستمائة. ذكر له من شعره بعض رثائه لمعاهد القلعة التي ضمّنها تاريخه.

٨٧ – ابو تمّام غالب بن محمد بن اسماعيل الانصاري

من أهل بلنسية . ومعدود من ادبائها . وكان يحترف بالتجارة واحياناً بالوراقة . صحب ابا الحسن بن جُبير وغيره من الادباء . وسمع الحديث وكتب كثيراً . وروى عنه ابو الربيع بعض شعر ابن جُبير . وتوفي في المحرم سنة تسع وعشرين وستمائة . قال : انشدني من شعره ، قال : وكان يناظر علي ابي محمد بن باديس في المستصفى وكان هو يحضره ، فغاب عنه يوماً فكتب اليه ابن باديس :

يا واحـدًا في المعالي   بـه العلى تستبـدُّ
ان القراءة نادت   مولاي مـا منك بدُّ .

فراجعه ابو تمام بابيات منها :

لبيـك لبيك يا من   عـلاؤه لا يحـدّ
ومن اذا حلّ شكا   فقولـه لا يردُّ

٨٨ – ابو بكر محمد بن محمد بن جهور الازدي[ع]

من أهل مرسية ، واحد نبهائها وادبائها . فمن قوله ، وقد مرّ بجزيرة شُقر بارض حمراء لابن مرج الكُحل غير صالحة للعمارة ، يداعبُه :

يا مرج كحل ومن هذي المروج ُله … ما كان احوج هذي الارض للكحلِ
ما حُمرة الارض عن طيب وعن كرم … فلا تكن طمعاً في رزقها العجلِ
لكنْ شيمتها اخلاق صاحبها … فما تُفارقها كيفيّة الخجلِ

فجاوبه :

يا قائلًا ، اذ رأى مرجي وحُمرته … ما كان احوج هذي الارض للكحل
تلك الدّماء التي للروم قد سفكت … في الفتح بيض ظبا اجدادي الاول
احببتها اذ حكت من قد كلِفتُ بهِ … في الخد او اخلافه أملي

٨٩ – ابو عمرو ابراهيم بن ادريس التجيبي[ع] القاضي

من أهل مرسيه . وهو اخو ابي بحر صفوان بن ادريس . ولي قضاء بلده والخطبة بجامعه ، وتوفي في اول سنة ثلاثين وستمائة . له من قصيدة يمدح فيها :

شِيمُ الصوارم ان تُقرّب ما نأى … لكن على من عزمه كظباتها
اخلصتَ للرحمن نيّة عالمٍ … انّ النفوس لـه على نيّاتها
وجعلت تقوى الله شكتك التي … تركت قلوب الروم رهن شكاتها

ومنها :

اوطأت ارض المشركين كتائباً … كادت تصير الارض من وطآتها
كالبحر يطفح موجها جرياً اذا … هبت رياح النصر في راياتها
جاءت تروم الشهب في ابراجها … وتهابه الآساد في اجماتها

ومنها :

قد كان غرّ الروم صفحك قادرًا حتى وضعت السيف في صفحاتها
ظنوك لا تستطيع دفع كماتهـا اذ لم تطق بالجود ردَّ عفاتهـ
ترهى بـك الايام وهي جديرة مثل الجياد زهت بحسن شياتها
فاسلم على مرّ الليـالي انهـا لتحوط عقدًا منك في لبّاتهـا

٩٠ — ابو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعيّ الخطيب

من أهل بلنسية . علم الاعلام ، واللعوب في جدّه باطراف الكلام ، الذي فاز بالجنة يوم فاد ، وأفادَ علوم السنة فيما افاد ، استشهد رحمه الله مقبلًا غير مُدبر في وقعة انيشة على بعد ثلاثة فراسخ من بلنسية ، ضحى يوم الخميس الموفي عشرين لذي الحجة سنة اربع وثلاثين وستمائة . انشدني الفقيه ابو عبد الله من قوله يرثي ابا بحر في كلمة :

اما وابي بحر لقد راع خاطري مصاب القوافي والعلى بابي بحر
ليبك عليه المجد مل جفونه ويبك عليه رائق النظم والنثر
ويا دوح روض كان زهر كمامه عزاءك في الروض الانيق من الزهر
ويأسك عن دوح من الطيب بعده سوى ما تؤدّي الريح عنه من الذكر

ومنها :

احقـًا ابا بحر تجهزت غـادياً الى غاية ناء مداهـا على السفر
فان قصر المقدار عمرك إنّ في نفائس ما خلّدت عمرًا الى عُمر

وله :

ولما تجلّى خـدّه بعـذاره تـلوا وقولوا ذنبه غير مغفور
وهل تنكر العين اللجين مُنيلًا او المسك مذرورًا على صحن كافور
وحسبي منـه لو تغير خـدّه تمـايل غُصن والتفاتـة يعفور

وله :

قالوا اكتست بالعذار وجنته هل في الذي قلتموه من باسِ
أكلف بالورد وهو منفرد فكيف اسلو اذاما شيبَ بالآسِ

وله :

قالوا التحى واشتكى عينيه قلت لهم نعم قلتم وهل في ذاك من عارِ
بنفسج عيض من وردٍ ونرجسة تحولت وردة زينت باشفارِ
ما مرَّ في حسنه شيءٌ بلا عِوَضٍ حسنٌ بحسنٍ وازهارٌ بازهارِ

وقال :

رياضٌ كالعروس اذا تجلت وقلْ لها مشابهة العروسِ
فمن زهر ضحوك السنّ طلق لجهم من سحائبه عبوسِ
وقضب تحسب الرواح شنّت معاطفها سلافة خندريسِ
ونهر مثل هنديّ صقيل تجرّد فوق موشي نفيسِ
تولت نسجه السحبُ الغوادي وحاكت وشيه ايدي الشموسِ

وقال :

يا غزالًا غزو ارض الروم يبغي ويرومُ
ما يفي اجرك الغزو بقتلي يا ظلومُ

وقال :

اوصيكمُ بالقلب خيرًا فانه أبى يوم بنتم ان يصاحب جثماني
فقلبت له ابن المقام فقال لي بكفي ابي ذي حفاظ واحسانِ
أيحسن في شرح الصبابة تركُ من تكنفني احسانه منذ ازمانِ
اباحسن اصغى لداعية النوى اذن فرماني الله منه بهجرانِ

فقلت له اكرمتَ يا قلب فارتبط ولوان لي امري لكنتُ لدى الثاني

وله في طريقة ابي الفتح البُستي :

تعجبوا لفؤاد الشهم ان آسا ما لي وقد جدّ حد العمر لا آسا
لو لم تعظني نفسي لاتعظت بان ارى مآل نعيم الدهر ابئاسا
هاتيك اربعُ صحبي بعد ساكنها لم تبقِ فيها النوى نوياً ولا آسا
فارجع الى الله يارقاباً عتا صلفا فذو الندى في الورى . . . . . .
ولا يروقك توريد الخدود فما تبقي لياليك وردًا لا ولا آسا
تجرّعِ الصاب في الدنيا عساك ترى معوّضاً منه في دار الرضا آسا

وله وسم على مشط فضة :

تهوي بحلي النجومُ يا بعد ما قد تروم
كم لمَّة لكعاب بها النفوس تهيمُ
سريت فيها شهاباً حواه ليل بهيم
ما صاغني من لجين الا ظريف كريمُ
مشط الحِسَان بعظم ظلمٌ لعمري عظيمُ

قال الفقيه ابو عبد الله : وكتبت اليه معمياً باسماء الطير وكان يعنى بذلك :

ان شئت يا دهر حارب او شئت يا دهر سالمْ
فصارمي ومجني ابو الربيع بن سالمْ

فراجعني بعد ان فكَّها بقوله :

نعم فحارب وسالمْ وصل مصاناً وصارمْ
انا المجنّ الذي لا تحيك فيه الصوارمْ

انا الحسام الذي لا يزال للضيم حاسمْ
فاحكم بما شئت اني بعضد صحبي حاكمْ

وذكر ما جرى بينه وبينه في ذلك من المراجعات على ذلك النحو جملة حسنة .

٩١ – أبو بكر محمد بن محمد بن مُحرز الزهريّ القاضي

من أهل بلنسية . من اهل الطلب البارع والنباهة في بلده . فمن قوله من قصيدة يصف الاغارة على شنتربة، وفتح حصن شِراُلّة . وذلك بعد غدر النصارى واغارتهم على فحص الميل من نواحي بلنسية :

كذا فلیُثْر او فلیثر طالب الوتر وینهض ... الحبر المسهد بالكثر
خرجت وللاسلام انة ـ موجع تذوب لها الصمّ القواسي من الصَّخر
املت لهـا اذناً تصيخ لمثلها على حين صمّت كل اذن من الوقر
نفرت لها كالليث يطرق غيله ذياب بها من طفرة ندب العقر
فسرت على اسم الله تحدوك عزمةٌ لواستكفيت نابت عن العسكر المجر
عليك ابتهاج الظافرين كانما تسير على اعصافه فيضة البحر

وله في هذه القصيدة محاسن واجادة فيها ما اراد . وكتب الى ابي الربيع ابن سالم شيخنا رحمه الله :

ابلغ سلامي يضوعُ رنده يا طرس ابلغت ما تودّه
الى اخ طال منه كفي بصارم لا يحدّ حده
شرفت منـه بشرفيّ افرد عن حسبه فرنده
ابود من شوقه بقلبي فهل انا اليوم منه جده

وقال :

سقى الله المعرّس اذ سهرنا به والحادثات بحال غمض

قطعنا ليله والحال رفعٌ يقرّ العين منها عيش خفضِ
نضاجع من بنات الماء ومن نبات الماء فيها كلّ غضِ
يروقك ... منه فاعجب سيوف بعضها اغماد بعضِ

ومن قصيدة لابي عبد الله بن ابي الفضاء. وقد سمع ارجوزتي ابي بكر في ذلك في شكل خباء الماء.

تحاك اعاليه واسفله وما يقوم عليه او به من سَدَى النهر
وان حاولوا تطنيبه فبارع يزّق من اردان اثوابه الوقر

قال: وانشدني الاديب ابو عبد الله محمد بن احمد الحضرمي صاحبنا لنفسه، وسئل وصف مثله « والريحُ تبدِده » فقال واحسن ما اراد:

ومطنّب للماء ما اوتاده الا نتائج فكر طب حاذقِ
عبثت به ايدي الصَّبا فكأنها ايدي الصبابة بالفؤاد العاشقِ

وله في بكر من كلمة:

ان لله مطلقين اسارى طلبوا القرب يهتدين حَيَارى
عثروا اذ تحيروا فرآهم فجزاهم بان اقال العثارا
قبلت منهم الصلاة وهم لا يقربون الصلاة الأسكارى

٩٢ — أبو المُطَرف احمد بن عبد الله بن عَميرة المخزوميُّ القاضي

من أهل جزيرة شُقر، وسكن بلنسية فن نسيه قصيدة مدح بها قوله:

يا والياً امر الجمال بسيرة قلّ الحديث بمثلها عَن وَالِ
حتى متى قلبي عليك متيَّمٌ واذا سألت يقال قلبك سَالِ
ارضى رضاك عن الوشاة وانت لا ترضيك موجدتي على العذالِ
وبيان حبك لم أؤخره وفي جدواه عندك غاية الاجمالِ

قدحرت في حالٍ لديك ولست من … اهل الكلام احارُ في الاقوالِ
واجلت فكري في وشاحك فانثنى … شوقاً اليك يجول في جوّالِ

وقال من قصيدة انشدنيها باشبيلية اثر نزهة جمعتنا بخارجها صدر سنة سبع عشرة وستمائة قال : وانا اقترحت وصفها عليه ، واولها :

لو غير طرفك موهناً يأتيني … ما كان في عقب الصبى يُصبيني
واني وقد هجع الخليط فبات في … ثوب الدُّجى أدنيه او يدنيني

ومنها في الوصف المقترح :

يا حمص انك في البلاد فريدةٌ … ببديع حسن جلّ عن تحسينِ
احبب بنهرك حين يزخر مده … فيروق منه تحرّك كسكونِ
ويمُودُه الجزر الذي يبقى على … شطيه حجرًا دونه للطينِ
مثل الجزيرة ان تقلّص ثوبها … خجلت لشين تحته مدفونِ
فكأنما هو عاشق ذو زفرة … تعتاده في الحين بعد الحينِ
او مثل ممتلئ الجوانح والحشا … غيظاً طواه الحلم بالتسكينِ
وتخال ما نثرت به ايدي الصبى … حلق المضاعف نسجه الموضونِ
تجري به اسراب طيرٍ آثروا … فيها المجاز فسميت بسفينِ
باحسنها من ذات اجنحةٍ لها … عمل يبزّ جناحي الشاهينِ
تثني الجموع فلا يريم مكانه … منها وترجع سوط كل حرونِ
من كل دهماء الاديم ترى به … منها بنفسجة على نسرينِ
عُطفت وارهف جسمها فكانها … قمرٌ اذا ما عاد كالعرجونِ
جُلنا بها في النهر ترتع للمنى … ما بين اصنافٍ لها وفنونِ
ولربّـ…ـا رعنا بنيه بغارة … تركت مصون حماه غير مصونِ

تحكي اذا ما بزت حركاتها   فعل التريف ينوء دونَ معينِ
قد قوّستها مِيتَةٌ لا كَبْرة   فانظر الى الفِ تعودُ كنونِ
حتى بلغنا سنتبوس ويا له   من مشهد يهوى النفوس قمينِ
حيث القصور البيض يرمق حسنُها   ... قيد نواظرٍ وعيــــــونِ
بهرت جمالاً في الدُّجى حتى ترى   معها عمود الصبح غير مبينِ
فهي النجوم بل البدور لأنها   تزدادُ حسناً في الليالي الجونِ
قد الفت اجزاؤها فتناسبت   كتناسب النغمات في التلحينِ
طاب الزمان بها فما نيسانها   اندى صباً من آب أو كانونِ
فسقى الغروس مع الخليج خياله   صوب بريّ ربوعها يرضيني
فلقد مضت لي ثَمّ ساعةُ لذة   عن ذكر لذّاتي الاولى تسليني
وجنيت من ثمر المنى ما شئته   واخذت منه فوق ما يكفيني
في فتية ظفرت يداي بقربهم   بأجلِّ علق في الزمان ثمينِ
ما منهم الا صريح مودة   أصفيه منها مثل ما يصفيني
اخذوا باطرافِ الحديث فشعشعوا   منها كؤوساً حثُّها يحييني
وتذاكروا اخبارَ سيدنا فقل   جلبوا فتيق المسك من دارينِ

وقال يصف مثلها بنهر جزيرة شُقرِ وانشدنيه :

خذ في حديثك ان وصفك يطربُ   عن يوم انس ذكره مستعذبُ
واطلب احاديثاً من الايام ان   سمحت بذا وأظنُّ ذلك يصعبُ
يوم اراناا الحسن في النهر الذي   قد طاب منه موردٌ او مشربُ
يثني ويزجي موجه فكانّهُ   لما انتهينا ما يُوَاري مقضبُ
وقد امتطينا زورقاً فيه فقل   صبحٌ تمشّى في سناه غيهبُ
تراه طوراً طائراً ولربما   ضمّت جناحاه اليه فيجنبُ

ولنا شباكٌ قد تجاذب غزلها خذَّان يطفو ذا وهذا يرسبُ
نُسجت كنسج الدرع لكنَّ الردى لم يعد لابسها اذا ما يطلبُ
تبدي لنا سمكًا ارادت ان يُرى حسنٌ بها فلأجله تتقلبُ
فكأنها من جرة الماء الذي حصباؤه من صفوه لا يحجبُ
يا نهر شقر فيك ادركتُ المنى فلأنت من نهرٍ اليَّ محبَّبُ
يهنيك اذ حزت المحاسن كلها اني ساشعر في حلاك واخطبُ

وله مما يكتب على قوس:

تحنو الضلوع على القلوب وانني ضلع قوافيها باعضل داء

وله واهدى وردًا :

خذها اليك ابا عبد الاله فقد جاءتك مثل خدودٍ زانها الخفَرُ
اتتك تحكي سجايا منك قد عَذُبت لكن تغيّر هذي دونها الغيرُ
ان شمتَ منها بُروق الغيث لامعة فسوف يأتيك من ماءٍ لها مطرُ

وله يخاطب العراقي وقد بعث اليه في جزء من كتاب الجدل يقتديه اثر ما ولي شغل الخزانة بمراكش :

تقلدت من شغل الخزانة خطة تقدّ لها بالفضل والعلم لائق
وارسلت عن جزءٍ كحرفٍ بمهرق وقد جمعت في راحتيك المهارق
فيا من له تسع وتسعون نعجة اني سفلة عجفاء أنت تضايق

ومن قصيدة ايضًا في تغلب الروم على بلنسية :

اما بلنسية بثوى كافر حفت به في غفرها كفارهُ
زرعٌ من المكروه جلّ حصاده بيد العدوّ غداة لجّ حصارهُ
وعزيزة للشرك جعجع بالهدى انصارها اذ خانه انصارهُ
قل كيف يثبت بعد تمزيق المدى آثارهُ أو كيف يُدرك ثارهُ

ما كان ذاك المصر الا جنّة للحسن تجري تحتها انهارهُ
طافت بطيب نهاره آصاله وتعطرت بنسيمه اسحاره
وتألفت اوقاته وتفسّحت ارجاؤه وتفتحت انواره
اما السّرارُ فقد عَداه وهل سوى قمر السماء يزول عنه سراره
قد كان يشرق بالهداية ليلهُ فالآن اظلم بالظلام نهاره
ودجى به ليل الخطوب فصبحه اعيا على ابصارنا إسفاره

وقال:

نكّب عن الدنيا ولا تلقها الا بودٍ مثلها زائلِ
اذا تحلّت بما زخرفت فانت في التحقيق كالعاطلِ
حلّت لمن أمّلها برهة لكنه لم يحل بالطائلِ
مَنْ منصفي من زمن جائرٍ يغلب فيه الحق بالباطلِ
لو كان سحبان به مفصحاً لم يأمن الانكات من باقلِ
حسبك ان الوغد يحتاجه من ارتدى بالخُلق الفاضلِ
يفتقرُ الصدُّ الى صدّه مثل افتقار الفعل للفاعلِ

ومن رسالة له كتب بها معزياً الى بطليوس:

ولم أرَ مثل الحق اما طريقه فـامنٌ واما جـاره فعزيزُ
اذا ما امرؤٌ آوى اليه فحصنه حصينٌ ومأواه المباحُ حريزُ
فكن معه تظفرْ بما شئت من منى معارفها بالصالحات يفوزُ
ومن خير ما حاز الفتى الصبر انه اداة لموفور الثواب تحوزُ
رأينا التقى كنزاً يدوم الغنى به اذا فنيت للموسرين كنوزُ
وكائن رأينا من حوادث اقبلت فللخلق تصريحٌ بها ورموزُ
تقابل بالتسليم لله وحده فتمضي ولم يشعر بها وتجوزُ

٩٣ – أبو الحسن علي بن لبّ بن شلبون المعافري

من أهل بلنسية . وكتب لولاتها ، ثمّ وزر لمحمد بن يوسف بن هود اول ثورته سنة خمس وعشرين وستمائة وكان من الادباء النجباء. وتوفي بمراكش اول سنة تسع وثلاثين وستمائة. وله قصيدة يمدح ويعتذر عند قدومه مع وفد بلنسية سنة اثنتين وعشرين وستمائة الى اشبيلية :

حنانيك قد ثبت اليك وقد ثبنا ... فحرّز لنا الرحمى واكد لنا الأمنا
هو القدر الجاري على الناس حكمه ... فلا غروَ ان جاؤوا سراعاً وابطأنا
اذا لم تكن بالمرتهين عناية ... سماوية عادت حرامتهم أفننا
ملكنا فصرّفنا تصاريف تجتني ... بها مرةً ربحاً وآونة غبننا
واما واغضاء الخليفة شامل ... فبشر بما قلنا به الامن والامنا

وله من قصيدة يمدح ايضاً ، أولها :

أوجه والالحاظُ والقدُّ والردفُ ... ام البدر واليعفور والغصن والحقفُ
وريّاك سدّ الخافقين اريجها ... ام المسك من دارين ثمّ له عرفُ

والقصيدة طويلة . وله من قصيدة يرثي شيخنا أبا الربيع :

خطب الخطوب دهى العلاء مصابه ... فابدأ بدمعك ان يقل مصابه
واسكب له حمر الدموع يمدّها ... قلبٌ يسيل على الجفون مذابه

ومنها :

اودى سليمان فشرع محمد ... ثكلان بادية به اوصابه
فجعت به سير الرسول مصنفاً ... كتباً ينظّمُ شدوها إطنابه
واصيب منه حديثه بامامه ... وحفيظه من حادث ينتابه
العالم العالي به مترسّلا ... قمم الكواكب علمه ونصابه
فمن المجلي عن طريق صحيحه ... وسقيمه مها يشبه تشابه

ومن يعرج طالب العلم الذي — ما اعمات الا اليه ركابه
او من لذروة منبر ترهى به — اعواده ويهزها اعرابه
ام من لصدر المحفل المشهود ان — كثر الكلام به وقلّ صوابه

ومنها :

الروض آداباً تأرّج زهره — والبحر ادراكاً يعبّ عبابه
ولد الزمان وما اتى بنظيره — ليس الزمان بوائم انجابه
غار الجمال فما يتاح طلوعه — غاب الكمال فما يباح ايابه
خطّت رماح الخط فيه اسطراً — بيمينه منها يكون كتابه

٩٤ — أبو جعفر احمد بن ابراهيم بن غالب الحميري

من اهل مرسية . ويعرف بالغزّال وبالحمامي ، وكان مجدداً مكثراً ولم يوقع من شعره الا القليل ، وتوفي ببلاده سنة احدى وثلاثين وست مائة . في رؤيا ابي بجر :

لله ما اهواهُ في كل مشكل — تمنى وكل القوم في دجيه عُمي
فما هو الا بالبلاغة مرسلٌ — وآيته الرؤيا اذا انقطع الوحي

قال ظاهر : هذا يقتضي ان ابا بجر رآها . والذي صحّ ان المنصور رأى اباه في النوم يقول له : ببابك رجل يعرف بابن ادريس فاقض حاجته ، او ما هذا معناه ، فلما اصبح وذلك في الثاني عشر لذي الحجة عام تسعين وخمس مائة اخبر بالرؤيا . فوجه فيه قاضي الجماعة ابو القاسم بن بقي والكاتب ابو الفضل بن محشوة ، وسألاه عن مطالبه ، فقضيت ، وزوّد اربع مائة دينار . وذكر ابو المطرف ان انساناً حدّثه ان المنصور لما سمع مدح ابي بجر ورثاه للحسَين اراد الاحسان بالرؤيا لئلا يكثر عليه الشعراء وادعى محمد بن ادريس المعروف بابن مرج الكحل انه ذلك لتحاقق اسمي ابويهما ، فقال ابو بجر يخاطبه :

يا سارقاً جاء في دعواه بالعجب — سامحته في قريضي فادّعى نسبي

ينمى الى العرب العرباء مدّعياً كذاك دعوته للشعر والأدب
يا ايها المرج دع ... لؤلؤه فالدرّ للبحر ذي الامواج والحدب
هب ان شعرك شعري حين تسرقه انّى انا أنتَ او انّى ابوكَ ابي

قال المؤلف: هذا النوع من الهجاء لا يسمع عنه اكثر الادباء، قال: وتركت لاجل الهجاء من لم اجد له سواه وهم كثيرون، قال: ومنهم أبو عبد الله بن عبد الرحمن القرياني، وأبو بكر محمد بن عبد الله بن سديَّة، وأبو عبد الله محمد الواعظ الكفيف المعروف بالمروري وسكن دانيه ثم بلنسية وكان مشهوراً، وأبو بكر محمد بن رفاعه الشريشي الطبيب، وأبو زكرياء يحيى بن خالد الشريشي، وابو سعد ميمون بن علي المعروف بابن خبازة. وتوفي برباط الفتح سنة سبع وثلاثين وستمائة. وأبو موسى عيسى بن عبد الله التجي. ومنهم المسمى عياش بن جوافر، وابوه من عرب ميورقة، وبها ولد ونشأ، قال: ومن القدماء ابن وازع غير مسمّى من أهل بيأسة وكان يعقد فيها الشروط. ولابي جعفر في مجمر نار:

ومجمر ملئت ساحاته بغضاً والجمر ترمي شراراً وهو يستعر
كلفت تشبيهه يوماً فقلت خذوا التشبيه بالخبر لا يشغلكم الخبر
فمجمر النار صدري والغضا كبدي والجمر قلبي ودمعي ذلك الشرر

٩٥ – أبو المطرّف الزُّهري

من أهل اشبيلية. من قوله في جارية خرجت عليه وعلى جليس له فنفرت:

يا ظبيةً نفرت والقلب مكنسها خوفاً لختلي بل عمداً لتعذيبي
لتأمني فابن عبد الحق الحقنا عدلاً يؤلف بين الظبي والذيب

وقال:

مرت بنا كالبدر وانفلتت كالغصن والتفتت كالشادن الخرق
تسربلت ببرود الحسن والتحفت بالغنج واشتملت مرطاً من الحدق

٩٦ – أبو جعفر احمد بن محمد بن طلحة ، الكاتب الانصاري

من أهل جزيرة شقر ، كتب لابن هود ، وتجول ببلاد الاندلس . ثم فارقه ولحق بسبتة لقتل بها سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . وله شعر كثير . انشدني ابو الحجاج بن ابراهيم عنه :

عجبي لقوم أمّلوا ان يبلغوا ... من كل مأثرةٍ وفضلٍ مَبلغي
من بعض حاصليَ الذي لا ابتغي ... يئسوا ، فمن لهم بما انا ابتغي

٩٧ – أبو علي حسن بن عبد الرحمن الكتّاني الاستاذ

من أهل مرسية . ويعرف « بالدفا » وكان حلو النادرة وصاحب مقطعات وتذييلات حسان ممتعة . توفي ببلده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة له من ابيات في المجنّات :

شغفت بحبّ ابكار حبالى ... وودّي لو بنيت بها عروسا
اذا لاحت بدورًا في المعالي ... ترات لـلميون بها شموسا

وللفقيه ابي عبد الله في ذلك وانشدنيها :

بنفسي مثلجات الصدور ... لها سمتان من نار ونور
حوامل وهي ابكار عذارى ... ترقّ على الاكف مع البكور
بياضُ الطلع ما تنشقُ عنه ... وفوق اديمها صُهب الخمور
كبرض الطلّ حين تذاقُ طعماً ... وفي احشائها وهج الحرور
لها حالان بين فم وكف ... اذا وافتك رائقة السّفور
فتغرب كالأهلّة في لهاةٍ ... وتطلع في يمين كالبدور

٩٨ – أبو بكر بن هشام الازديُّ الكاتب

من أهل قرطبة ، ابوه احد حكام قرطبة ، وهو الذي صلّى علــى ابن بشكُوال. توفي بالجزيرة الخضراء سنة خمس وثلاثين وستمائة ، له في ليلة انس :

ولما دنا الاصباح قــام مودّعي ... وخافني في قبضة الوجد هالكا
وكان سواد الليل لمبيض ناصعاً ... فعاد بياضُ الصبح اسود حالكا

٩٩ – ابو محمد عبدالله بن محمد بن مطروح التجيبي القاضي

من أهل بلنسية . توفي والروم يحاصرونها في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وستمائة . سئل تذييل هذا البيت :

واذا ذكرتك لم اجد لك لوعةً ... اذ لا تفــارق قلبيَ المعهودا

فقال :

ما غبت عن قلبي فديتك لحظةً ... وكفى بقلبك لي لديك شهيدا
لكن حظ العين منــك فقــدته ... فالشوق مني لا يزال جديــدا

وله شعر كثير .

١٠٠ – أبو بكر محمد بن احمد الصدفيُّ الصابوني

من أهل اشبيلية . شاعر عصره ، وختمت الاندلس شعراءها به ، توفي في طريقه من الاسكندرية الى مصر سنة اربع وثلاثين وستمائة . فمن قوله في معذر :

وعذّبني خدّ به المسك باقــلُ ... كأنني في وصفيه للعجز باقــلُ
اما وعــذار فوق خــدّك انه ... لانكا فعلي مقلتيــك لفاعــلُ
ومــا خيلت نفسي اليّ بانــه ... ستفعل افعال السيوف الحمائلُ

١٠٠ ١ – حمدة بنت زياد بن بَقيّ العوفي المؤدّب

من أهل وادي آش واحدى المتأدبات المتصرفات المتفنّنات . واسند عن طريق جدي عن ابن البرّاق انهـا خرجت متنزّهة بالرملة فرأت ذا وجهٍ وسيم اعجبها فقالت :

اباحَ الدمعُ اسراري بوادِ … به للحسن آثارٌ بوادي
فمن وادٍ يطوف بكلّ روضٍ … ومن روضٍ يطوف بكل وادِ
ومن بين الظباء مهاة رملٍ … سبت عقلي وقد ملكت فؤادي
لها لحظ ترقّده لامرٍ … وذاك الامر يمنعني رقادي
اذا سدلت ذوائبها عليها … كمثل البدر في الظلم الدّآدي
تخال الصبح مات له خليلٌ … فمن حزن تسربل بالحدادِ

وذكر لها :

ولما ابى الواشون الّا فراقنا … وقد قلّ اشياعي لديك وانصاري
غزوتهم من مقلتيه وادمعي … ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

قال : وحدثني بعض الناس ان هذه الابيات لمهجة بنت ابن عبد الرزاق من نواحي غرناطة .

١٠٠ ٢ – نزهون بنت القليعي

قال : وعاصرتْ حمدة هذه او قاربتْ عصرها نزهون بنت القُليعي وكانت واحدة صنعها في ادبها . كتب اليها ابو بكر بن سعيد اخو ابي مروان كاتب ابي زكريا بن غانية :

يا من لها الفُ شخصٍ … من عاشقٍ وعشيقٍ
اراكِ خلّيتِ للناس … سدَّ ذاكَ الطريقِ

فاجابته برسالة فيها :

حللت ابا بكر محلاً منعته سواك وهل غير الحبيب لهُ صدري
وان كان لي كم من حبيب فانما يقدم اهل الحق فضل ابي بكر

ولها في قبيح الصورة عرض لخطبتها :

عذيري من انوك اصلع سفيه الاشارة والمنزع
يرُوم الوصال بما لو اتى يروم به الصفع لم يصفع
برأس فقير الى كيَّة ووجه فقير الى برقع

ولها :

لله درّ ليال ما احيسنها وما احيسنَ منها ليلة الاحد
لو كنت حاضرنا فيها وقد غفلت عينُ الرقيب فلم تنظر الى احد
ابصرت شمس الضحى في عاتقي قمر وريمَ جماية في ساعدي اسد

وقال فيها المخزومي استاذنا :

على وجه نزهون من الحسن مسحة وان كان قد اضحى من الصون عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا

فقالت ترد عليه مستطردة له :

ان كان ما قلت حقاً من نقص عهد كريم
فصار ذكري ذميماً يعزى الى كل لوم
وصرت اقبح شيء في صورة المخزومي

١٠٠ — خادم ابي محمد بن مسلمة الشاطبيُّ الكاتب

حكى لي ابو محمد ابن ابي بكر الداني الطبيب ان الوزير ابا عامر بن ينق كتب اليها من مجلس انس ليستدعيها :

يا هند هل لك في زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا نغمات عودك في الثقيل الاول

فكتبت اليه في ظهر الرقعة :

يا سيداً حاز العلى عن سادة شم الانوف من الطراز الاول
حسبي من الاسراع نحوك انني كنت الجواب مع الرسول المقبل

١٠٠ – حفصة بنت الحاج الركوني

واما حفصة بنت الحاج الركوني من اهل غرناطة فلعلها بقيت بعد حمدة وهي القائلة ابياتها المشهورة :

يا سيد الناس يا من يؤمل الناس رفده
امنن عليّ بصكّ يكون للدهر عدّه
خطت يمينك فيه والحمد لله وحده

✦

انتهى ما قيده أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن ابراهيم البلفيقي من كتاب « تحفة القادم » لابي عبد الله بن الأبار حسبما اختار ، ومن المنقول نقلته ، وعمل بحمد الله تعالى وحسن عونه . والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا ومولانا رسول الله وعلى آله واصحابه الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً .

وكان الفراغ من نسخه لخزانة السلطان مولانا امير المؤمنين
ناصر الدين الباسل الضرغام المرتضى لايالة الاسلام
ابي العباس المنصور الشريف الحسني أيد الله امره
واعلامه واسعد لياله وايامه ، في ثالث عشر
جمادى الاولى عام تسعين وتسعمائة
بالحضرة البيضاء فاس حرسها الله
وخلد للاسلام ذكرها

✦

مخطوط أُنف

كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني

تأليف

الشيخ الامام والحبر الهمام العالم العلامة

الشيخ عبد الغني النابلسي

قدس الله سره العزيز امين

تعريف له

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني

وجدنا في مكتبة كرسي بطريركية الروم الكاثوليك ، في عين تراز (لبنان) هذا الكتاب الخطي من تأليف الشيخ عبد الغني النابلسي الشهير شارح ديوان ابن الفارض ، وصاحب المؤلفات الصوفية العديدة . ولم نعرفه مطبوعاً ، بل لم نرَ له ذكراً بين آثار المؤلف ، في كتابات من ترجم له من مؤرخي الآداب العربية الا بروكلمان ، فانه احصى للشيخ عبد الغني ٨٥ اثراً ذكر فيها تحت الرقم ٦٨ (الجزء الثاني من تاريخه ص ٣٤٨) اسم «الفتح الرباني والفيض الرحماني» ، مشيراً الى ان له مخطوطة في مكتبة برلين .

اما المخطوط الذي وقفنا عليه فقد كتب بحرف نسخي جميل اسود يشبه حروف المطابع ، وعناوينه بالحبر الاحمر ، يحتوي على ١١٢ صفحة ، بطول ٢١ سنتيمتراً ، بعرض ١٥ سنتيمتراً ، وعرض هامشه ٦ سنتيمترات ، على ورق حجج ، بدون تجليد ، يشتمل على سبعة ابواب :

١ : في بيان الذنب .
٢ : في التوبة .
٣ : في العقيدة الصحيحة .
٤ : في بيان الكفر .
٥ : في بيان الاسلام .
٦ : في بيان الايمان .
٧ : في بيان الاحسان .

وكانت غاية كتابته في ١١ رجب الفرد سنة ١١٥٦ للهجرة ، بيد اسماعيل بن خليفة الحموي الشامي ، وقد ذكر الناسخ على احد هوامشه : انه بلغ مقابلة على النسخة التي هي بيد المؤلف نفسه . وان الشيخ النابلسي صدّر كل باب من ابواب مؤلفه هذا ببضعة ابيات من الشعر ضمّنها خلاصة ما احتواه كل باب من المعاني والشروح. والصفحة من هذا الكتاب تحتوي على ٣٧ سطرًا وفي كل سطر ١٦ كلمة ، وعلى هامشه بعض شروح لمطالبه . ورأينا تحت اسم المؤلف الذي نعته الناسخ بالنعت المذكور اعلاه ، في صفحة عنوان الكتاب الاولى ، هذه الكتابة مذيلة ببضعة ابيات من الشعر وهي بخط مختلف :

« لخادم نعال مؤلفهِ ومنسوب صيغةً محمد بن محمد الشافلاني الازهري.

لعمرك هذا الفتح والفيض والهدى ... حباهُ لنا عبد الغني مع النـدى
تسلسل من بحر الغيوب علومه ... فأروت قلوباً شفَّها وهجُ الصدا
ونظَّم عقد الدرّ منه لغائصٍ ... وفتَّح روض الفضل من روضهِ الندى
ونادى لسان الحال منه أمن صدٍ ... اكوثرنا المورود عذباً مبرّدا
مزجنا به البحرين بحر حقيقةٍ ... وشرعٍ فيا طلّاب مدوا لنا يدا
وما مسلكٌ الّا كشفنا غويصةُ ... ولا موعرٌ الّا بنا قد تمهّدا
فقل لغويّ [1]فيضه بدا ... فان انت لم تدركه خانُك ملحدا »

ولا نتعرض لذكر ما يتضمنه كل باب من ابواب هذا المخطوط خوف الاطالة ، لكننا نثبت مقدمته مع الباب السادس منه في الايمان ، ليقف القارئ على سياقه ونهجه ، غير متعرضين الرد على المؤلف في بعض آرائه ومناحيه .

١) كلمة غير مقروءة.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اظهر العالم من كنز الوجود واخرجهُ من محض العدم، ووصف به نفسهُ لنفسهِ في موطن الامكان لتتميَّز بذاتها حضرة القِدَم ، واثبت لنوره نورًا قائمًا بنفسه غير متصل به ولا منفصل عنه ، وجعلهُ مرآةً لظهور وجوههِ فيه بانواع تجليات الكنه ، ثم اخرج من ذلك النور نورًا آخر ليس عين ذلك النور ولا غيره، وكوَّن فيه عرشهُ العظيم وكرسيه الذي جمع شرَّهُ وخيره . ثم خلق السماوات السبع في جوف ذلك الكرسي واتقن التكوين، وأودع العناصر الاربعة في جوف فلك القمر لتركيب المولدات فتبارك الله احسن الخالقين . ثم جعل نشأة آدم آخر مولد في العالم وجعلهُ نسخةً لجميع صور هذا الوجود، وقابل به حضرة صفاته واسمائه وافعاله واحكامه فكان هو المقصود . ثم نسخ منه صحفًا كاملة وكتبًا محمولة بالعناية حاملة ، وسكب في قوالبه اسرار النبوة وأودع في ثيابه انوار الفتوة واطلع كواكب الازل من سموات صورته المشرقة ولم يزل يتطور في الهياكل الفاضلة حتى طلعت شمس الأحديَّة على فلك تلك القامة المشرقة صلى الله وسلَّم عليه وعلى كل من تبختر بحُلَّته الطاهرة وتمشَّى على انهار حديقته الظاهرة ولبس نعليه وثبت على صراطٍ بقدميه خصوصاً غذاء ارواح المحبين وشراب تسنيم المقرّبين ، مدّ الكل بجزئه الذي لا يتجزأ ومن الى حقيقته كل حقيقة في الكونين تعزى، المتقدم بالنور المتأخر بالظهور ، محمَّد المحمود ، حدقة عين الوجود ، ورضوان الله تعالى عن آله الآئلين اليه بالروحانيات وان اختلفوا بالاجسام ، واصحابه الذين هم معه بالاستعداد التام وعن التابعين لهم باحسان في كل زمان ومكان .

اما بعد فان العبد المفتقر الى مولاه والراجي عفو ربه وهداه ، عبد الغني ابن اسماعيل بن عبد الغني بن اسماعيل بن ابرهيم بن احمد النابلسي ، الحنفي

مذهباً ، القادري مشرباً ، الدمشقي وطناً ومولداً ، ادخله الله تعالى في منشور السعداء ، ورحم اسلافه الماضين ، ولطف به وبجميع المسلمين امين ، يقول في اول كلامه على مقتضى حاله ومقامه :

بـدر تمٍّ لاح في الغسقِ ... فوق غصنٍ بالجمال سقي
وبه الالبـاب هـائمةٌ ... سكرت منـهُ فلم تفقِ
عطّرت روضي نسائمـهُ ... حين وافت بالشذا العبقِ
وفؤادي فيـه ذو شغفٍ ... دائماً والجفنُ ذو ارقِ
واصطبـاري يوم جفوته ... ما بقي والوجد فيه بقي
هائمٌ صبٌّ كثيرُ جوىً ... عنه سُدّت سائرُ الطرقِ
خطفتهُ منـه بارقـةٌ ... غيرهـا في القلب لم يرقِ
فأدارت كاس خمرتـه ... فهو منها اليوم في غرقِ
وأثارت عرف روضته ... في الورى طوبى لمنتشقِ
كيف لا اختال من مَرَحٍ ... ومليح القـدّ معتنقي
فاسألوا عيني فان بهـا ... لمحةً في داخل الحدَقِ
نلتهـا من حسن بهجته ... من لو بدا للكون لم يطقِ
ثمّ ذوقوا ما بقي بفمي ... من بقايا خمر كل تقي
هذه أذني لقـد سمعت ... طيب ذاك الصوت فاسترقِ
واسألوا أنفي فقد نفحت ... فيـهِ رياً نسمة النّلقِ

يا بني قومي خذوا خبري ... عن جوى قلبي وعن قلقي
وانظروا محوي فان خفيت ... شمسُ ذاتي فاشهدوا شفقي
كلما تدرون من حجبٍ ... لسعيدٍ في الورى وشقي
واحذروا في الله ان تقفوا ... عند شيءٍ لاح في الافقِ
فالبرايا كلّهـا فتنٌ ... ايّ جمعٍ غـير مفترقِ
كلّهـا تمضي بأجمعهـا ... ثمّ يبقى الاثمُ في العُنُقِ
واحذروا ان تعبدوا صنماً ... نحتتهُ فكرةٌ فبقي

جلَّ ربي في تنزّهه عن وجودات على طاقِ
فاسرعوا وامحوا الحروف بما عندكم من صفحة الورقِ
قبل ان يبدو المنون لكم يأخذ الباقي من الرمقِ
واسلكوا سبل النجاة على دين طه زاكي الخلقِ
ثم كونوا اسر سنّتهِ وبها فامشوا على نسقِ
وابشوا في دعوةٍ وسلوا في غدٍ امناً لذي فرقِ
وصلاة الله دائمةٌ مع سلامٍ غير منمحقِ
للذي انوارهُ سطعت فأحالت صبغةَ الغسقِ
احمد المختار سيّدنا مَن بهِ قلبي مناهُ لقي
ما بدا الكون منشئهُ خلف سترٍ ابيضٍ يققِ

اعلم ايها الانسان الداخل في حصنٍ حصين من الايمان والمتنعّم ان شاء الله تعالى بنسيم الروح والريحان ، ان كتابي هذا ما جمعته إلّا لمن قصر ليله لطول نهارهِ ووقف في نشأة نفسه الزكية على مراكز اضطراره ، ولم يحتجب بالعين المعجمة عن العين ، ورفع بيد روحانيتهِ حجاب البين من البين ، وربما ينتفع به الاعمى بدلالة البصير ، ويتناول بيدهِ ذيل الكمية صاحب الباع القصير . فالله الله يا ايها الواقفون مع ما ظهر لهم من لمحةٍ من لمحات انوار الشريعة ، والمنحجبون بسبب غشاوة دخان الذنوب التي لا يشعرون بها في مطامير الطبيعة . ويا ايها المستسمنون ورم الزخارف الدنيوية ، ويا ايها المرضون بقلوبهم الجاهلة لاعراضها بتحسين ظنهم بهم عن اللذائذ الروحانية الاخروية فاحذروا ان تفهموا شيئاً من كلامي بالفهم المعوج وتخرجوهُ على خلاف هذا الدين فتفتروا عليَّ وعلى الله ، فاني لم اقصد الّا بيان ما فُتحَ عليَّ مما يوافق الشرع الشريف وان كانت الالفاظ متشابهة ربما يُفهم منها خلاف ذلك فان لي في ذلك عذراً واضح، وكل اناء بالذي فيه ناضح ، وما ذلك العذر الّا ان المعاني التي يتخيّلها الانسان ربّما لا يجد لها لفظاً موافقاً لها تؤدّى به من الفاظ اللسان ، وربما امكن ذلك ولكن اشتغل عنها القلب بما يتراكم عليه من المعارف الحسان وبالله المستعان . وقد عزمتُ على الشروع فيما اردتهُ من هذا الكتاب وجعلتهُ تحفةً مني الى

اولي الالباب ، وهو على سبعة ابواب ، تفاؤلًا ان يكون الثامن هو باب الفتح لجنّة الهداية والاقتراب ، على كل من طالعهُ بالقبول وسلك فيه طريق الآداب ، وقد كنتُ اردتُ ان اطيلهُ اكثر من ذلك ولكن خفت من لحوق السآمة والملل للاخوان والاصحاب . وقد سمّيتهُ : الفتح الرباني والفيض الرحماني . واسأل الله تعالى ان ينفع به اهل العناية ، ويرشد بسببهِ ارباب الغواية ، وان يختم لنا ولاخواننا المسلمين بالحسنى لتلتحق النهاية بالبداية ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وهو حسبي ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

وانى القارئ الباب السادس منه

الباب السادس

في الايمان

نور هذا الوجود بالايمان ... لا بشمس ولا نجوم دواني
وبه الشمس والنجوم جميعاً ... مشرقات من رحمة الرحمان
ولهذا الكسوف لا يعتريها ... قط الّا عن غفلة وتوان
اي قلب من القلوب تجلّى ... فيه ربي بغير ما ايمان
وعلوم الجميع علوًا وسفلًا ... واردات عن ورده كالزهان
فلك الماء والتراب مضيءٌ ... بضياء الايمان في كل آن
وبه لم يزل بدور ويبدي ... صورًا بابتداعهِ ومعاني
امن الكل من قلي وبعاد ... عندما امنوا وهم في تدان
ولهم خلقة المهيمن جاءت ... ثم فازوا من سلبها بالامان
فتراهم بها يميلون زهوًا ... بين نيل المراد والحرمان
وعلى كل حالة هو اولى ... بالذي جاء منهُ للاكوان
وهي ايمانه بهم فلهذا ... ومن جاء عنهُ في القرآن
والمواليد معدنٌ ونباتٌ ... ثم حيوانها مع الانسان
وكذاك الاباء مع امهات ... كلهم في غنى من الحيوان

مؤمنات جميعها بالله واحدٍ ما لهُ كما قال ثاني
ولهذا تأتي غدًا شاهداتٍ مثل ما جاء في حديث الاذان
وشروط الشهادة الآن فيها ثبتت بالدليل والبرهانِ
حيث عنها الاله اخبر بالتسبيح والنطق والغنا في العيانِ
فتحقق بكل ما قلت وافهم تلو لب الكمال والايقانِ

اعلم ان الايمان من اشرف الصفات واعلاها وافخر الخصال واغلاها ، وهو من صفات الله تعالى كما ورد في القرآن العظيم ، ان من اوصافه تعالى المؤمن ومعناهُ المصدّق بان جميع ما يظهرهُ من العدم الى الوجود من مخلوقاته موجود عندهُ في حضرة العلم لا ينقص من ذلك شيء ولا يزداد. ولهذا نقول: انه تعالى علم نفسه فعلم العالم فحقيقتهُ ايمان سبحانه وتعالى ح علمه بعلمه فالايمان قديم ح باعتبار انهُ صفة لله تعالى كالعلم القديم . واما ايمان الانسان والملك وبقية العالم فهو صفة حادثة من غير اشكال حدثت بحدوث المؤمنين لا يتصور ان تكون قديمة ويكون المتصف بها حادثاً ، فان الاصل اذا كان حادثاً يكون الفرع حادثاً بالاولى ، اذ لا يتصور ان يتصف الحادث بقديم كما لا يتصور ان يتصف القديم بحادث ، فمن سأل عن الايمان ح هل هو قديم او حادث يُقال لهُ هذا اللفظ ينطلق على معنيين مختلفين لا يشبه احدهما الآخر ولا بوجهٍ من الوجوه . المعنى الاول تصديق الله تعالى بذاته وصفاته وافعاله وتنفعلاته ، وهذا المعنى قديم لا يتصور ان يكون حادثاً البتة . والمعنى الثاني تصديق المخلوقات بذاته تعالى وبصفاته وبافعاله وتنفعلاته ، وهذا المعنى حادث باحداث الله تعالى ذلك في المخلوقات ، لا يتصور ان يكون قديماً البتة . فاذا اردت في سؤالك عن الايمان اجبناك به ولا نطلق لك الجواب فنقول قديم او حادث لان في موضع التفصيل خطأ ، وايمان الله تعالى بجميع ما امن بهِ من الاشياء في الازل ايمان سمع ورؤية واحاطة على السواء . واما ايماننا بجميع ذلك فهو ايمانٌ بالغيب ، حتى ان شهودنا لتجلياتهِ تعالى ايمان بها بالغيب ، باعتبار انها تمثل لعقولنا بضربٍ من التجليات ايضاً ، فشهودنا للتجلّي تجلّي آخر ، لا عين التجلّي الاول ، ولا يماثل التجلّي الاول ، وذلك لان الله تعالى ما تجلّى لشيئين في آنٍ واحد مرتين

ولا لشيء واحد مرةً في آنين ، بل بكل آن لهُ تجلٍّ خاص في كل شيء خاص ، وايماننا بالاشياء المحسوسة والمعقولة بضرب من التمثيل ايضاً فانها لولا ان الله تعالى يمثّلها لعقولنا عند معاطاة اسبابها لما ادركناها ، فالبصر مثلاً وارادته نحو الشيء سبب لتمثيل الله تعالى ذلك الشيء في عقولنا حتى ندركهُ ، وكذلك السمع وانصاتهُ سببٌ لتصوير الله تعالى صورة ذلك الصوت مع معناه في العقل حتى ندركهُ ، وهكذا جميع المحسوسات وكذلك جميع المعقولات ، لولا ان الله تعالى يصوّر صورة ذلك الشيء في عقلنا عند جولان القوة المفكّرة في مقدَّم الدماغ ثم يخلق لنا ادراكهُ لما ادركناهُ البتّة ، فحقائق ذوات المحسوسات والمعقولات كلها ح انما ادركنا امثالها المخلوقة فينا فلم يتجاوز ادراكنا لانفسنا على ادراكنا للاشياء بواسطة امثالها التي صوّرها الله تعالى في عقولنا فادركنا الشيء بمثله ، ولهذا لم ندرك ذاتهُ تعالى ولا صفة من صفاته لانه لا مثلَ لهُ ولا مثل لصفة من صفاته جلّ وعلا ، وهذه حكمة عدم ادراكنا لله تعالى وعدم ادراكنا لصفة من صفاته ، فايماننا بجميع المحسوسات والمعقولات في الحقيقة ايمانٌ بالغيب بواسطة امثالها التي صوّرها الله تعالى لنا في عقولنا فادركنا الشيء بمثله ، لان كل شيء لهُ مثلٌ إلّا الله تعالى وصفاتهُ ، لانه لا مثل لهُ ولا مثل لصفة من صفاته ، لانّا لا ندرك الشيء إلّا بالمثل الذي يصورهُ الله تعالى فينا ، فبالضرورة ان ما لا مثل لهُ لا يُدرك ابداً

واعلم ان الايمان لهُ حقيقة ولهُ صورة ولهُ احوال ولهُ مقامات ولهُ منازل ولهُ اقسام ولهُ ثمرات ، لا بدّ من بيان ذلك كلهِ فاقول بمعونة الفتّاح العليم : أمّا حقيقة الايمان فهي التصديق وضدُّهُ الجحود والتكذيب ، يقال صدق بالخبر اذا نسب قائلهُ الى الصدق ، وهو مطابقة الخبر للواقع ، فمن صدَّق بجميع ما اخبر به محمد صلّى الله عليه وسلّم فقد نسب اخبارهُ الى الصدق ، يعني الى كونها مطابقة لما هو في حقيقة الامر ، وضدّهُ التكذيب وهو نسبة الخبر الى الكذب وهو عدم المطابقة للواقع ، فعلى هذا الايمان والكفر انما يقالان في مقابلة الخبر . يُقال آمن بكذا او كفر به اذا كان خبر الانشاء ، ويكون الايمان بجميع الانشاءات الالهية التي هي الاوامر والنواهي راجعاً الى الايمان

بالله تعالى ونواهيه قطعاً من غير شبهة، لان مضموناتها ليست اخباراً حتى يتصور الايمان بها بل من انشاءات تطلب بها افعال مخصوصة يعود نفعها على المكلف بها. ولهذا نقول: ان من ترك امتثال الاوامر والنواهي جميعها مع تصديقه بانها اوامر الله تعالى ونواهيه، ليس بكافر بل هو عاصٍ، فان كذب بشيء منها فقد كفر البتة، على ان الايمان بالله هو التصديق، وعلى معنى التصديق انه نسبة الخبر الى الصدق لا انه التصور مع الحكم، لان بعض ما يجب الايمان به لا يمكن تصوره بوجهٍ من الوجوه البتة لذات الله تعالى وصفاته العليا، وليس المراد بالتصديق حيث فسّرنا به الايمان التصور مع الحكم، لان بعض ما يجب الايمان به لا يمكن تصوره بوجهٍ من الوجوه البتّة كذات الله تعالى وصفاته، فيلزم ان لا يمكن التصديق به، لان الحكم فرع التصور بل المراد ما ذكرنا، ان التصديق نسبة الخبر الى الصدق. فالتصديق بالله تعالى نسبة الخبر الثابت عند العقل بوجود الله تعالى المتّزه الى الصدق، وكذلك التصديق بصفاته وبانبيائه وبجميع ما أُخبرَ به عن الله تعالى سواء عَقلنا مثلهُ او لم نعقل، فتصور الشيء ح ليس بشرط للايمان به اي التصديق بمعنى نسبة مخبرهِ الى الصدق.

واما صورة الايمان فهي على قسمين · صورة باطنية وهي الاذعان لذلك الشيء الذي صدّق به والاستسلام والانقياد بقلبه. وصورة ظاهرية وهي العلم بموجب ذلك بالجوارح، وهاتان الصورتان هما صورتا تلك الحقيقة الايمانية حتى لا تكون ثابتة بدونهما عند من جعل العمل من الايمان، والصواب ان الصورة الباطنية كافية في ثبوت حقيقة الايمان، فاذا زالت زالت حقيقة الايمان، اذ كل حقيقة لا بدَّ لها من صورة، والتصديق بغير اذعان لا يكون البتة، بخلاف الصورة الظاهرة فانها لا تتوقف عليها تلك الحقيقة بل توجد بدونها. قال الله تعالى: فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره، فالايمان خير والمعصية شرّ، فلا بدّ من رؤية كلّ منها، فلو كان العمل شرطاً في ثبوت حقيقة الايمان لكانت المعصية تنافيه فلا يرى خيره وليس الامر كذلك.

وصل

في معنى قول النبي صلّى الله عليه وسلّم : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ونحو ذلك من الاخبار الدالة على امتثال الامر واجتناب النهي من الايمان .

اعلم ان اسم الايمان ينطلق على معنيين : ايمان توقيف وايمان توفيق . وايمان التوقيف قسمان ، توقيف الجنس كايمان المقلدين الجازمين المطابقين ، وتوقيف غير الجنس كايمان اهل النظر الذين اخذوا ايمانهم من الادلة والبراهين العقلية ، وهذان القسمان ايمانهم ايمان العامة . غير ان القسم الاول مختلف فيه ، والقسمان تقليد محض في حقيقة الامر لمن لا يصلح تقليده من غير معصوم من نظر عقل يمكن عليه الخطأ وناظر مشغوف بعصارات الافكار . وامّا ايمان التوفيق فهو ايمان اهل الكشف والعيان المتلقين ذلك من حضرة الرحمان استنتاجاً من الاعمال الصالحة المرضية الخالية من البدع . وهذا الايمان هو المراد بقول النبي صلّى الله عليه وسلّم : لا يزني الزاني ، وهو مؤمن ايمان كشف وعيان بل ينحجب في وقت المعصية فيمتنع عليه الشهود ويقع في الغفلة ، حتى اذا انقضت المعصية رُدّ عليه كشفه وعيانه فرجع اليه ايمانه فيرى قبح الذنب فيندم ويستغفر . وهكذا كلما وقع في معصية . وهذا معنى قول النبي صلّى الله عليه وسلّم كما لا ينفع مع الشرك شي‌ء كذلك لا يضرّ مع الايمان شي‌ء . خرّجهُ الاسيوطي رحمه الله تعالى ، في الجامع الصغير . والمراد بالايمان الكامل الحقيقي كما ذكرنا .

وصل

ليس من شرط صاحب الايمان الكامل الحقيقي اجتناب الذنوب والمعاصي والا لثبتت العصمة له ، والعصمة ليست ثابتة الا لنبي او مَلَك واصحاب الايمان الكامل محفوظون لا معصومون ومعنى الحفظ ان لا يضرّهم ذنب ابداً ، لا معنى الحفظ ان لا يصدر منهم ذنب ، فان ذلك معنى العصمة لا الحفظ . ارأيتَ قوله تعالى : ان الله يحب التوّابين ، والتوّابُ الكثير التوبة ، والكثير التوبة كثير الذنوب فاوجب كثرة الذنب محبة الله تعالى على حسب ما ذكرنا في اهل الشهود ، فانهم اذا رجعوا الى شهودهم بعد غفلتهم وانحجابهم في

المعصية لا بدّ ان يندموا ويستغفروا قطعاً من غير شبهة فيحفظهم الله تعالى بذلك من شؤم المعصية ، فهم محفوظون لا معصومون بخلاف اهل الغفلة من العامة كمثلما. الافكار ونحوهم ، فانهم اذا وقعوا في المعصية ازداد حجابهم وكثرة غفلتهم وليس لهم حال شهود يرجعون اليه ليروا فيه قبح الذنب ، فربما يوفقون للتوبة بعد حين وربما لا يوفقون فيأخذون بذنوبهم وتوبتهم سيأتهم . ومما يزيد ما ذكرناه قوله عليه الصلاة والسلام : خياركم كل مفتن توّاب ، كما خرّجه الاسيوطي رحمه الله تعالى ، في جامعه الصغير .

ولا شك ان اصحاب الايمان الكامل الحقيقي هم خيارنا من غير شبهة ، فلا يشترط فيهم الحفظ من اتيان الذنوب ، وانما يحفظون من شؤمها وضررها . وقد ذكر قدوة اهل التحقيق الشيخ محيي الدين ابن العربي ، في كتاب المحكم المربوط فيما يلزم اهل طريق الله من الشروط قال : ويجب على المريد ان يعتقد في شيخه انه عالم بالله ، ناصحٌ لخلق الله ، ولا ينبغي له ان يعتقد في شيخه العصمة في احواله ، وكيف ينبغي ان يعتقد ذلك وقد سمع الله يقول : وعصى آدم ربّهُ فغوى . وقد قال بعض السادة : وقيل لهُ أيعصي العارف . فقال : وكان قدر الله قدراً مقدوراً . وصحب تلميذٌ شيخاً فرآه يوماً قد زنى بامرأة فلم يتغيّر في خدمته ولا اختل في شيء من مرسومات شيخه ، ولا ظهر منهُ نقص في احترامه . وقد عرف الشيخ انه رآه . فقال له يوماً : يا بني عرفتُ انك رأيتني حين فسقتُ بتلك المرأة ، وكنتُ انتظر نفارك عني من اجل ذلك . فقال له التلميذ : يا سيدي ، الانسان متعرّض لمجاري اقدار الله عليه ، واني من الوقت الذي دخلتُ الى خدمتك ما خدمتُك على انك معصوم ، وانما خدمتُك على انك عارف بطريق الله ، عارف بكيفية السلوك عليه الذي هو طلبي ، وكونك تعصي شيء بينك وبين الله تعالى ، لا يرجع علي من ذلك شيء . فلما وقع يا سيدي منك شيء يوجب نفادي وزوالي منك ، وهذا هو عقدي . فقال لهُ الشيخ : وفّقتَ وسعدتَ ، وهكذا هكذا والا فلا فلا . وبرع ذلك التلميذ بعد ذلك وجاء منه ما تقرّ العين به من حسن الحال وعلوّ المقام . انتهى .

واما ما يحتجّ به بعض اهل الرسوم من قول ابي يزيد البسطامي رضي الله عنه : اذا نظرتم الى احد تربّع في الهوى فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدون هذا الامر والنهي. فليس معناه حتى تجدوهُ معصوماً ، او حتى تجدوه محفوظاً من الوقوع في المعاصي والذنوب ، وانما معناه حتى تجدوه بتارك الامر ويفعل النهي مصراً على ذلك من غير توبة . والاصرار امرٌ خفيٌ لا يحكم به بمجرّد المداومة على فعل المعصية ما لم يطلع على النيّة والقصد ، فقد يفعل الانسان المعصية في اليوم الواحد الف مرّة ويتوب منها في كل مرّة ، فلا يكون مصراً عليها وقد يفعلها في السنة مرّة وهو مصرٌ عليها . ومن العجائب ان الذي يحتج بقول ابي يزيد هذا بحسب غرضه في انكار احوال معاصريه من اهل الله تعالى ، يعرضُ عن قول ابي يزيد ايضاً : ما في الجبة الا الله ، ونحو ذلك من مقالاته التي ينكرها هذا القائل ويعترض فيها على ابي يزيد من جهله بكلام اهل طريق الله تعالى . وقد ثبت ذلك عن ابي يزيد ،وله معنى صحيح يذوقهُ اهل الله تعالى في ساعة غيبتهم عن الاكوان ، وربما يقال وهو الاقرب ، ان معنى قول ابي يزيد ذلك : انكم اذا رأيتم رجلاً تربع في الهوى فلا تغترّوا به ، وتقولوا لو كان ولياً لله تعالى كما يزعم لما كان جاهلاً بشيء من امره ونهيه ، لما كان جاهلاً بمعاني صفات ربه واسمائه ، لما كان جاهلاً بمعاني التجليات الالهية ، لما كان جاهلاً باطوار الولاية والنبوّة والرسالة ، لما كان جاهلاً بحقائق الكائنات المَلَكية والملكوتية اذا ظهر لكم جهله بشيء من ذلك ، وتقولوا لو كان ولياً لله تعالى لما كان منكراً شريعة نبي من الانبياء عليهم السلام ، لما كان كافراً بربه جاحداً لشيء مما يجب الايمان به ، لما كان مجسماً في اعتقاده بربه ، لما كان مشبهاً لله تعالى ، لما كان يعتقد في الله تعالى مكاناً او جهة او كل مكان او كل جهة او حلولاً او انحلالاً او اتحاداً ، اذا ثبت شيء من ذلك عندكم انه يعتقده وليس لهُ تأويل البتة ولو الى سبعين وجهاً فحينئذ لا تغترّوا به ، وسمّوا ما رأيتم منهُ استدراجاً كما يصدر من بعض الرهبان الكافرين بالله تعالى ، المنكرين نبوّة محمد صلّى الله عليه وسلّم ، المكذبين بالقرآن العظيم من الامور الخارقة للعادة كالطيران في

المراء بسبب كثرة الرياضة والدخول في عالم الصفاء الذي هو اكشف حجاب عن الله تعالى من عالم الكدر من ذلك اهل طريق الله تعالى ، ولا تقولوا لمن رأيتموهُ يعصى الله تعالى بفعل كبيرة او صغيرة مع ثبوت التصديق في قلبه بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبجميع ما جاء به عن الله تعالى معترفاً ذلك بلسانه ، لو كان هذا ولياً لله تعالى لما عصى ربه كيف وقد سمعتم الله يقول : وعصى ادم ربه فغوى ، فاتقوا الله في اهل طريقه ولا تحاربوا لهُ ولياً ، فانه ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلّم ، عن الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد اذنته بالحرب ، اي اعلمته اني محارب له ، ومن حاربه الله تعالى فهو هالك في الدنيا والآخرة ، وهذا مقدار ما يجب علي في نصيحتكم ، فاعملوا على ذلك ترشدوا ان شاء الله تعالى .

وأما احوال الايمان فالاشتياق الى الله تعالى ومحبة لقائه ومحبة كلامه القديم ومحبة انبيائه عليهم السلام ومحبة المحافظة على اوامر الشريعة ونواهيها والحزن عند انتهاك حرمة من حرمات الله تعالى ، والخوف من الله تعالى والرجاء منهُ ورؤية التقصير من نفسه في اداء حقوق مولاه وان اتى بعمل الثقلين لما يشاهد من عظمة المعبود واليأس من تأثير غير الله تعالى في نفع او ضرر ومدافعة الله تعالى عنهُ ونصرة الله لهُ ، الى غير ذلك . فأمَّا الاشتياق الى الله تعالى فهو أمرٌ يجدهُ المومن في قلبه احياناً فتهمّ روحهُ بالخروج فيمنعها هذا الجسم الذي هو سجنها في عالم التكليف لاخراج ما في خزائنها من الاعمال المودعة لله تعالى من خيرٍ وشرّ حتى يفرغ ما فيها ، ولهذا كان بعض الصوفية اذا اخذهُ هذا الحال ، يعني حال الشوق الشديد المزعج المنبعث من مقام التنزيه التام يصرخ ويدور في الحلقة ويتواجد ولا يكاد يضبط نفسه من زيادة الحنين الروحاني الى حضرة المستوى الرحماني . وقد روي عن مالك ابن انس رضي الله عنه ان سُئل عن هؤلاء المتواجدين فقال دعهم يفرحوا بربّهم ، وكذلك نقول في اهل التواجد الصحيح . وأما ما يفعله الجهلة بالله تعالى وبصفاته وبرسله وبانبيائه وشرائعه ممن ينتسب الى الصوفية وهم بعد لم يصحّ ايمانهم فلو فتشتهم وجدتهم يعتقدون في الله تجسيماً او تشبيهاً او جهةً او مكاناً وربّما يصرّحون

بذلك اعتقاداً منهم ان ذلك محض الايمان لكمال جهلهم بالله تعالى ، فانما يفعلون من الرقص والتواجد شيء ممنوع منه شرعاً لعدم صحته لهم في معرفة الله تعالى واصحاب الحال الصحيح لا يقومون للتواجد الا عن ضرورة وغلبة حال فيُعذرون في ذلك ويفرّون على ذلك ان فعلوهُ في الزوايا او في البيوت او في المساجد او في اي مكان كان ، لان ذلك عبادة الارواح عند وصولها الى حضرات التجلّي اندهاشاً وتحيراً مما ترى ، وهذا لا يعتري في الغالب إلّا اصحاب البداية . وأما الراسخون في العلم فهم اهل تمكين لا تلوين فلا يعتريهم شيء من ذلك ، وأما محبة لقاء الله تعالى فهو حال يعتري المؤمن احياناً ولا يلزم ان يدوم له ، فان بعض الانبياء كره الموت . قال الشاعر :

وخوف الردى آوى الى الكهف اهلهُ وعلّم نوحاً وابنهُ عملَ السفن
وما استعذبتهُ روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتي عدن

ومتى اعترى مؤمناً هذه الحال كان دليلا على ان الله تعالى أحبَّ لقاءهُ كما ورد في الحديث : ان من أحبَّ لقاء الله تعالى أحبَّ اللهُ لقاءهُ ، فكان ذلك من الله تعالى نظير اشتياق العبد الى ربّه ، فان المحبة يتبعها الشوق من الجانبين . قال تعالى : يحبّهم ويحبونهُ ولهذا قال تعالى في حق الكفار : ولتجدنهم احرص الناس على حياة ، وذلك لان الله تعالى لا يحبُّ لقاءهم فلهذا لا يحبّون لقاءهُ . وقد بيَّن الله تعالى لنا سبب ذلك منهم بقوله : ولن يتمنوهُ ابداً بما قدّمت ايديهم ، فعلمنا ان سبب عدم محبتهم لقاء الله تعالى ، كثرة ما يعملون من مخالفة الله تعالى في عصيان رسله عليهم السلام والتكذيب بهم . وأما المؤمنون اذا كرهوا الموت في بعض احوالهم فان ذلك طمع منهم في ارشاد الناس الى الله تعالى وفي اطالة خدمته تعالى في الارض ، لا بسبب ما يقترفون من الذنوب ، لان التوبة تصحبهم في جميع شؤونهم واعمال الخير المكفرات للذنوب . فقل ان يباتوا مصرّين على شيء من الذنوب عملاً بقوله تعالى : وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون .

وأما محبة كلامه القديم فهي حال تعتري المؤمن في بعض اطواره اذا انفتحت بصيرته لشيء من لطائف معانيه فيكاد يأكل اوراق المصحف من

شدَّة الشوق والانزعاج ، ويكاد يختطف الفاظ التالي من حرصه على المعاني القرآنية . واما البكاء عند التلاوة والسماع فهو اقلّ حال من احوال المؤمنين ، والمعتبر في ذلك بكاء المحبة والشوق والهيبة والخشوع لا بكاء الخوف والرجاء فان ذلك من حظوظ النفس . قال تعالى : الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق . وهذه الآية صريحة في صحة احوال المؤمنين التي هي خارجة عن بقايا الانفس .

واما محبة انبيائه عليهم السلام ، فهي الحالة الصحيحة الدالة على قوّة الايمان كما ورد في الحديث . قال النبيُّ صلى الله عليه وسلّم : لن يكمل ايمان احدكم حتى أكون أحبَّ اليه من نفسه وولده والناس اجمعين . والمراد بهذه المحبة وجدانها في القلب حتى تكون دليلًا على كمال حال الايمان ، لا التكليف لها بجعل القلب عليها ، ومن منّة الله تعالى على كل مؤمن ان تحدثه نفسه انه لو كان حيًّا في زمان النبيِّ صلى الله عليه وسلّم لفداه من كل ما يؤذيه بروحه وبدنه وماله وولده والناس اجمعين محبةً فيه صلّى الله عليه وسلّم ومن محبته صلى الله عليه وسلّم يتوصل المؤمن الى محبة جميع الانبياء الماضين لانه صلّى الله عليه وسلّم جاءنا بشرح احوالهم كما كانوا عليها من غير زيادة ولا نقص ، فيجد المؤمن محبتهم في قلبه من غير تكلّف المحبة التامة . قال الشاعر :

سمعتُ اوصافك الحسنى فهمتُ بها والأذن تعشق قبل العين احيانا

والسرُّ في ذلك انهم كانوا عليهم السلام ، مظاهر امر الله تعالى في عالمنا هذا من التجلّي الجمالي فهم محبوبون لكل مؤمن أحبَّ الله تعالى ، ويلزم من محبتهم محبة الصالحين من اممهم الذين صدقوا في جميع ما جاءوا به من عند الله تعالى . قال الشاعر :

أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبِّلُ ذا الجدارا وذا الجدارا
وما حبُّ الديار أهاج شوقي ولكن حبُّ من سكن الديارا

ومن احوال المؤمنين ايضًا في مقابلة ذلك بغض الكافرين بالله تعالى والمدَّعين للالوهية كفرعون ونمرود واتباعهم ، وكذلك كل كافر الى يوم القيامة لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله الآية

وهـذا البغض على مقدار محبة الانبياء والصالحين ، فـان كانت هذه المحبة كثيرة كان ذلك البغض كثيراً وان قلت قلّ هذا البغض طرداً وعكساً .

والسرُّ في ذلك ان هؤلاء الكفار المكذبين بانبياء الله تعالى مظاهر الله تعالى ايضاً في عالمنا هذا لكن من التجلي الجلالي فهم مبغوضون لله تعالى ، كما ان اصحاب التجلي الجمالي محبوبون لله تعالى ، ولا يكمل العارف حتى تتم فيـه الصورة الالهية فيحب من أحبّ الله ويبغض من ابغضه الله وجداناً وروحانياً لا تكلُّف فيه ، كما قال تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم : قل ما اسألكم عليه من أجر وما انا من المتكلّفين. وكل من احبّ كافراً فان ذلك لنقص في ايمانه اذا فتّش نفسه وانصف حاله وجد ذلك بغير شبهة .

وأما محبة المحافظة على اوامر الشريعـة ونواهيها فهيَ من احوال المؤمن اللازمة له سواء وفّقه الله تعالى للعمل بموجب تلك الاوامر واجتناب النواهي او لم يوفّق لذلك ، أو وفّق للبعض دون البعض فلا يزال يحب حالة الموافقة التامة ويُقبل عليها حتى يصادفها ان شاء الله تعالى .

وأمّا الحزن عند انتهاك حرمة من حرمات الله تعالى فهو امرٌ وجداني يجده المؤمن في نفسه لعظم شأن الدين المحمدي عنده . قال تعالى ذلك ومن يعظّم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ، وهي جمع شعيرة بمعنى مشعرة من الشعور وهي العلم ، اي معالم الله التي تدلّ عليه وتعلمنا به ، وهي احكامهُ من الامر والنهي ، فترى المؤمن يحزن عند صدور المخالفة ولو صدرت منه ويداخله الغمّ الشديد من اجلها بغضاً فيما يبغضه الله تعالى .

وأمّا الخوف من الله تعالى فهو خوف الاجلال والعظمة والهيبة . قال تعالى : وخافوني ان كنتم مؤمنين . ولم يرد عن الله تعالى انه امر بالخوف من النار، وانما امرنا بالخوف منه لا من النار ، ولكن قال تعالى : فـاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، وتقوى الشيء التحرّز منه بمجانبة اسبابه . ومن قال لا اخاف النار ولكن اخاف الله فهو من المحققين في مقـام التوحيد ، وذلك لان النار لا أثر لها في ايلام احد من اهلها ولكن التأثير لله تعالى عنـد النار لا بها ، والمؤلم في الحقيقة هو الله تعالى بعد تجليه في صورة النار ، فالنار صورة

والتألم بها صورة مثلها ؛ وكذلك الألم صورة ثالثة . والمقصود بهذه الصور الثلاث واحد لا تقيّده هذه الصور الثلاث لانه لا صورة له في ذاتــه ، وان كانت الصور كلها له عندنا ، فافهم الاسرار تكن من اولي الابصار .

وأمّا الرجاء، منهُ تعالى فمن احوال المؤمن لتحققه بنهاية فقره واحتياجه في كل جزء لا يتجزّئ من الزمان الى من يحفظ عليه وجوده واعانــه وعقله وحواسه وصحته وانفــاسه وتدبيره في شؤونه كلها في اطواره كلها في عوالمه كلها ، وليس ذلك الّا الله تعالى ، وكلما كثر اطلاعه على احتياجه اليه كثر رجاؤهُ فيه وطمعهُ فيما لديه . وأمّا رؤية التقصير من نفسه على كل حال فلما يشاهدهُ من عظمة الله تعالى وجلال شأنه . قال تعالى : وما قدروا الله حق قدره . وهذا المشهد اذا أُتيم في العبد صغرت في عينه ملوك الارض بل جميع العوالم حتى يصير لا يعظّم ما وجب عليه تعظيمه واحــترامه من العوالم الّا امتثالًا لامر هذا العظيم الذي اوجب عليه ذلك ، ولولا انه اوجب ذلك عليه ما عظّم ولا احترم شيئاً من ذلك لتحققه بانــه راجع الجميع تحت سطوة قهر سلطانه تعالى ، حتى لا يكاد يكون لشيء من الاشياء وجود البتّة مع هيبة جلاله تعالى . ومن اعترض على الشاعر في قوله :

أيّ عظيمٍ أتقي ايّ مكانٍ ارتقي
وكلُّ مــا قد خلق اللهُ ومــا لم يخلقِ
محتقرٌ في همــتي كشعرة في مفرقي

فقال عنهُ قد اساء الادب باحتقاره من وجب تعظيمــه من الانبياء والملائكة عليهم السلام، نقولُ له : ولو اراد لقال كل من ، ولم يقل كل ما ، لان من لمن يعقل، وما لمن لا يعقل . ومما يُحكى عن ابي الحسن الدينوري رحمه الله تعالى ، انه وقف ليلةً كاملة بعد احرامه بالصلاة على رؤوس اصابعه فسأله من حضرهُ عن سبب ذلك فقال: طافت روحي السماوات والارضين والجنة والنار . وقيل لي هل اعجبك شيء . فقلتُ : لا . فقال لي ح انت عبدي حقاً . ثمَّ ان صاحب هذه الشهود على مقدار معرفته بعظمة الله تعالى من حيث تجليــه تعالى في جميع الاشياء تصغر عنــه الاشياء كلها من حيث هي اشياء لا من

حيث هي مظاهر الحق ومجاليه عنده فتراه يعظم الشيء من حيثية ويحتقره من حيثية اخرى ، فالاشياء مجالي الحق تعالى عند اصحاب البصائر فهي معظمة مبجلة وهي بعينها حجبه عند العوام فهي محتقرة مستنقصة وهي عندهم اغيار وعند اصحاب البصائر اعيان ، والاغيار بمنزلة الثياب عليها تنتزع عنها في وقت الشهود . وصاحب الحال انما يحتقر جميع الاشياء بعد لبسها تلك الثياب فاذا نزعتها عظّمها واحترمها ، واما صاحب المقام فهو يحترمها دائماً اذ الثياب في عينه تشفّ عمّا تحتها ، وأمّا العامة فهم يعظمونها دائماً اذ نظارهم الى الثياب الظاهرة فقط

وصل

قال تعالى : وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله وليّ المتقين ، والولاية هي تنفيذ القول على الغير شاء او أبي ، ولهذا الظالمون بعضهم اولياء بعض ، لان بعضهم تنفذ فيه اقوال بعضهم ويأمر بعضهم بعضاً وينهى بعضهم بعضاً اذ لا يعرفون الذي يأمر وينهى منهم من حيثية ان له الولاية عليهم ينفذ قوله فيهم ، وانما يعرفونه من حيثية ظهور الامر والنهي منه وصدورهما عنه . وأمّا المتقون الذين جعلوا الله وقاية من نسبة الامر والنهي الى غيره فتوقوا به عن غيره فلا غير عندهم في بصائرهم فان الله وليّهم ولهذا قال الله : ولي الذين آمنوا . يعني بانه هو لا غيره يخرجهم من الظلمات يعني ظلمات الاغيار وهي كثيرة كما قال ظلمات بعضها فوق بعض الى النور وهو واحد وهو النور الحقيقي الذي هو نور السماوات والارض . الآية .

وأمّا اليأس من تأثير غير الله تعالى في نفع او ضرر والمراد من حيث انه غير . واما من حيث انه عين والغيرية ثوبه فهو المؤثر في العوالم في تلك الحضرات التي يقتضيها ذلك الثوب كالسكين مثلا فان تأثيرها من حيث انها سكين محال ، لان السكينة غير ، وأمّا من حيث انها بيد الله تعالى داخلة تحت تصريف قدرته في حضرة القطع التي اقامها الله تعالى فيها فهي عينُ المؤثر الواحد والغيرية كالثوب الساتر لما وراءه . وعلى هذا جميع الاسباب الظاهرة والباطنة . قال الله تعالى : والله من ورائهم محيط .

وأمَّا مدافعة الله تعالى عن المؤمن فهو من جملة احواله . قال تعالى : ان الله يدافع عن الذين آمنوا. وذلك لان الايمان هو شفوف ثوب غيرته فلم يدافع الله تعالى الا عن نفسه ، بخلاف الكافرين فـان الله تعالى لا يدافع عنهم ، لان الكفر هو الستر وقد ستروه عنهم بثوب غيريتهم فلم يشف ثوبهم عما وراء، فجهلوه في عين معرفتهم له ، وهذا من اعجب العجائب .

وأمَّا نصرةُ الله تعالى المؤمن فقد قال تعالى : انَّا لننصر رسلنـا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويقوم يقوم الاشهاد. الآية . فقد اثبت النصرة للمؤمنين في كلا العالمين ، عالم الدنيا وعالم الآخرة . والمراد النصرة على جميع الاعداء. من النفس والهوى والشيطان والكافرين والمعاندين والجاحدين والحاسدين والمبغضين ، وهذا في الدنيا . واما في الآخرة فالنصرة على الذنوب والآثام والحقوق والتبعات حتى انـه تعالى يرضي عنهم اخصامهم يوم القيامة ايضاً ويدخلون الجنة ببركة هذا الايمان فينصرهم على جميع ذلك حتى يُلحقهم بانبيائهم في مقام الايمان ، وان فاتهم الانبياء عليهم السلام بمقام النبوَّة ولهذا عطفهم عليهم في الآية . فكما ان الانبياء عليهم السلام، لا يضرُّهم ذنب في الدنيا ولا في الآخرة فكذلك اصحاب هذا الايمان الكامل الحقيقي لا يضرُّهم ذنب في الدنيا ولا في الآخرة كما قدَّمنا . وهذا معنى الحفظ الذي نظيره العصمة في الانبياء والملائكة عليهم السلام .

وأمَّا مقامات الايمان فهي كثيرة . منها مقام التوحيد ، ومقام الصبر ، ومقام التوكل ، ومقام الزهد ، ومقام الرضا، ومقام الخشية ، ومقام الاخبات، ومقام الاعتصام ، ومقام الحيا، ، ومقام المحبة، ومقام الذل والافتقاد ، ومقام المناجاة في الاسحار ، وربما نبيَّن ذلك في بعض مصنفاتنا ان شاء الله تعالى. فان هذا المختصر لا يسعه .

وأمَّا منازل الايمان فهي جميع جوارح العبد الظاهرة والباطنة واصلها القلب واول ما ينزل الايمان فيه ثمَّ يتفرَّق منه في بقية الاعضاء ، وله في كل صورة جارحة مخصوصة لائقة بتلك الجارحة فيسمَّى فيها باسم خاص لا يُسمَّى به في الجارحة الاخرى ، فهو في القلب تصديقٌ ، وفي العقل اذعانٌ وتسليم ، وفي

النفس طمأنينة وانقياد ، وفي العين نظرٌ الى بدائع صنع الله تعالى ، وفي الاذن سماع كلام الله تعالى وكلام نبيّه صلّى الله عليه وسلم وكلام الصالحين من الأئمة ، وفي اليد تناول ما فيه من طاعة الله تعالى ، وفي الرجل المشي في مرضاة الله تعالى ، الى غير ذلك من الشعب الكثيرة المنشعبة من الاصل الذي في القلب . فمن اعتبر هذا أدخل العمل في مسمّى الايمان لانـه صور الايمان اختلف باختلاف الاعضاء والجوارح . ومن نظر الى الاصل ولم يعتبر الصور الظاهرة لهذا الشيء الواحد وانما اعتبر ذلك الشيء الواحد فقط كابي حنيفة النعمان رحمه الله تعالى ومن تابعه لم يدخل العمل في مسمّى الايمان بناءً على ان صور الشيء اذا زالت لا يلزم ان يزول الشيء بنفسه ، لان الصور عرَض في الذات والذات ثابتة والصور تُخلع وتُلبس . ارأيت ان المكلف في غير اوقات العبادات اذا زالت عنه صور الايمان الظاهرة او في حالة النوم او الغفلة لا يزول عنه مسمى الايمان ، بل ولو زالت عنه الصور الباطنة في حالة النوم والاغماء . مثلاً فان حكم الايمان باقٍ ما لم تتبدّل صورة التصديق بالتكذيب وصورة الاذعان والتسليم بالعناد والمكابرة وصورة الطمأنينة بالزيغ والحيرة والشك فحينئذٍ يزول عنه الايمان ويوجد فيه الكفر والعياذ بالله .

وأمّا اقسام الايمان فثلاثة : كامل وناقص وما هو في حكم ذلك . أمّا الايمان الكامل فهو نورٌ يقع في القلب ويظهر شعاعه في العقل والحواس بحيث اذا عقل شيئاً أو احس بشيء باحد حواسه الخمسة ادرك حقيقة ذلك الشيء من حيث ملكوته ولم تحجبه صورته من حيث ملكه فهو مع الاشياء كلها من حيث هو عينٌ واحدة والاشياء كلها معـه من حيث هي عيون كثيرة . قال تعالى : ومن يؤمن بالله يهتد قلبه ، يعني الى الحق في كل شيء ، وهـذا الوعد من الله تعالى لا شبهة فيه فعلم ان من لم يهتد قلبـه الى الحق في كل شيء بحيث لا يرى شيئاً ويرى الحق مع ذلك الشيء فهو دليل على انه لم يؤمن بالله بل امن بشيء آخر غير الله صوّره لـه عقله وخياله . فان الله تعالى لا يتعقل ولا يُتخيَّل بل هو اعظم من ان يحيط به العقل والخيال .

وصل

في خبر السوداء والجواب عنه ، روى ابو حنيفة رضي الله عنه باسناده ، عن عطا ابن ابي رباح : ان رجالًا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوه ان عبدالله ابن رواحة كانت له راعية تتعاهد غنمه وان امرها بتعاهد شاةٍ من بين الغنم فتعاهدتها حتى سمنت الشاة واشتغلت الراعية ببعض الغنم فجاء الذئب فاختلس الشاة وقتلها ، فجاء عبدالله ابن رواحة وفقد الشاة فاخبرته الراعية بامرها فلطمها ثم ندم على ذلك ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم النبيّ ذلك وقال : ضربت مؤمنة . فقال : انها سوداء لا علم لها . فأرسل اليها صلى الله عليه وسلم فسألها اين الله . فقالت : في السماء . قال : من انا قالت : رسول الله . قال : انها مؤمنة فعتقها . انتهى . فهذا دليلٌ من النبيّ صلى الله عليه وسلم ، انه لا بدَّ من اعتقاد التنزيه في حق الله تعالى عن المكان حيث سألها بقوله اين الله مع علمه ان الله تعالى منزَّه عن الاينية ليختبرها في ايمانها بالله تعالى هل ايمانها به صحيح موافق لما هو في حقيقة الامر ام غير صحيح ، بل هو مجرَّد تشبيه وتجسيم كما يعتقده كثيرٌ من الناس . وكان يعلم النبيُّ صلى الله عليه وسلم منها الايمان الصحيح قبل ذلك ، ولذلك عظم لطمها الذي لطمها مولاها وقال عنها قبل ان يراها انها مومنة ، ثم اراد النبيُّ صلى الله عليه وسلم ان يري ذلك مولاها فارسل اليها وسألها كما يسأل الجنس عن الجنس مع علمه بكمال تنزيه الاله الزاماً لمولاها فيما قال عنها انها لا علم لها . وكان جوابها انها قالت في جواب قوله اين الله ، انه في السماء ، تريد انه في العلو والسمو والارتفاع عن ان تُدرك له أينية . فان الله تعالى خلق عالم الاجسام وخلق فيه سماء وارضاً ، كما خلق عالم الارواح وخلق فيه سماء وهي العقل وأرضاً وهي النفس . فلفظ السماء في الاصل اسم لسماء الارواح ، لان الارواح مخلوقة قبل الاجسام بألفي عام كما ورد في الحديث ، ثمَّ انطلق لفظ السماء على هذه السماء المحسوسة سماء الاجسام ، لان عالم الاجسام خُلق مثالًا لعالم الارواح والمقصود ذلك العالم ، ولكن انما يفهم بهذا العالم . فالله تعالى فوق سماء الارواح ، يعني فوق العقول قال تعالى : أأمنتم من في السماء ان

يخسف بكم الارض . والمراد من في سماء العقول ، يعني فوقها ، كما قال في الآية الاخرى : يخافون ربّهم من فوقهم . وهذه ابنية الله تعالى انه فوق جميع ما تتخيله العقول . ولم يرد ان هذه السوداء اشارت بيدها او بشيء منها الى هذه السماء حتى تقول انها ارادت السماء المحسوسة لا سماء العقل .

وأما الايمان الناقص فهو التصديق المستند الى البراهين العقليـة والحجج القطعية فهو تابعٌ لها بحيث لو طعن فيها طاعن دخل الطعن في ذلـك التصديق المستند اليها ، وهو ايمان اهل النظر من اكابر علماء الرسوم ، كما يُحكى عن الامام فخر الدين الرازي : انه دخل عليـه بعض تلامذته فوجده يبـكي فسأله عن سبب ذلك . فقال : مسئلة اعتقد فيها من مـدة كذا كذا سنة ظهر لي الآن فساد دليلها ، وانا اخاف ان تكون مسائلي كلها من هـذا القبيل . فانظر انصافه رحمه الله تعالى مع غزارة علمه ، وتأمل اهمـال علماء الرسوم شأنهم في تحصيل مقام الايمان الكامل مع انه كسبيٌّ يحصل بمعاطاة اسبابه وازالة موانعه ، واسبابه الاعمال الصالحة لانه نتيجتها ، وموانعـه الاخلاق الرديئة التي في النفوس كالرياء والسمعة والعُجب ونحو ذلك . ومما يعين على تحصيله صحبة اهله وخدمتهم واحترامهم والاخلاص في اعتقـادهم والقطع بانهم آثار الالهية لا تأثير لهم البتة . قـال تعالى : وجعلَ لكم مما خلق ظلالاً . وانما هم خزائن الله تعـالى في ارضه اودع فيهم اسراره ، وهو الذي يفتح ابوابهم بمفاتيح عنايته لمن شاء ويغلق ابوابهم عمن يشاء . ومما يعين على ذلك تعظيم مصنفات المشايخ ارباب السلوك ، كمصنفات قدوتنـا العارف محيي الدين ابن العربي وامثاله من علماء الحقائق والاعتناء بها وبمطالعتها بعـد التأدّب بالاحكام الشرعية ومعرفة ما لا بدّ منها ، واستعمال الآداب الشرعية في فهم معاني تلك المصنفات ولا يعترض عـلى شيء لم يفهـه منها ، ولكن ينسب التقصير اليه في عدم الاستعداد ويُحسن ظنه واعتقاده في المشايخ الائمة اصحاب الحقائق من المتقدمين والمتأخرين ، فان الله تعالى لا يخلي منهم زمانـاً من الازمنة الى يوم القيامة ، لانهم قائمون بعلم النبوّة المحمديّة ، كما ان علماء الشريعة قائمون بعلم الرسالة المحمدية ولا يجوز لاحد ان يقول ان الارض تخلو

في زمن من الازمان من علماء الشريعة ، فكذلك لا يجوز ان يقول انها تخلو في زمن من الازمان من علماء الحقيقة ، لان كلا العلمين ورد عن محمد صلى الله عليه وسلم . ولا يلزم من عدم اطلاع الجهّال على ذلك فقدُ ذلك من الارض، فان العالم بالشريعة ربما يكون بين الجهلة سنين ولا يلتفتون اليه ولا يعلمون به لانهاكهم فيما هم بصدده من اللهو والغرور وزخارف الدنيا ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .وقد كتبتُ في هذا المبحث رسالةً سمّيتها :«التنبيه من النوم في حكم مواجيد القوم» لا يكمل الانسان الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إلّا بالايمان بما فيها، كما لا يكمل لاحد الايمان بالله تعالى إلّا بالايمان بما شرحناه من تنزيه الله تعالى في ضمن كتابنا «الردّ المتين على منتقص العارف محيي الدين» .فطالع هذين الكتابين ترشد والله يتولّى هداك .

وأمّا ما هو في حكم ذلك . فهو الايمان الكامل والناقص في حال الغفلة والنوم والموت .أمّا حال الغفلة فصاحب الايمان الكامل فيها لا يُسمّى كافراً، ولكن يقال كما ورد في الاحاديث ، لا ايمان له نحو قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . كما ذكرنا ، يعني وهو مؤمن ايماناً كاملاً ايمان كشفٍ وشهود تأمين . وصاحب الايمان الكامل لا يخلو من الغفلة ولكن منهم مَن يومه وليله سواء ، ومنهم مَن يومه اطول من ليله ، ومنهم مَن ليله أطول من يومه . والويل كل الويل لمن عمره كلّه ليل . قال الشيخ عمر بن الفارض رضي الله عنه :

على نفسهِ فليبكِ من ضاع عمرهُ وليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ

وليس منهم مَن عمره كله يوم لانــه لا يكون في الدنيــا . ومرادنا اصحاب الايمان الكامل في الدنيا لا في الآخرة ، فان الآخرة لا ليلَ فيها ، والليل من احكام الدنيا . وهذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول وهو اكمل الخلق ايماناً : انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله في اليوم والليلة مئة مرّة .

وأمّا صاحب الايمان الناقص فهو في غفلة عن الله تعالى دائماً ، وانمــا هو مستيقظ في بعض احيان للحجج والبراهين العقلية لا لله تعالى . وهذه يقظته التي هي اعلى احواله فهو في حالة غفلته غير مؤمن ايمان دليل وبرهان بل هو

مقلد في ايمانه لنفسه المستحضرة للدليل والبرهان في بعض الاحيان. وايمان المقلد قد اختلف فيه العلماء، والذي اذهبُ اليه، صحّة ايمان المقلّد بشرط ان يكون جازماً قطعاً من غير تردُّد مطابقاً باعتقاده اعتقاد اهـل السنّة والجماعة من غير تغيّر. وأمّا اذا فقد الجزم والقطع وكان شاكّاً متردداً متحيراً فهو ليس بمومن اجماعاً. قال تعالى: ان يتبعون إلّا الظن. وان الظنّ لا يغني من الحق شيئاً، وكذلك اذا كان اعتقاده الذي قلّد فيه غيره ليس مطابقاً لاعتقاد ذلك الغير. كمن يعتقد في الله تعالى جهةً او مكاناً، او تجسيماً او تشبيهاً ويزعم انـه يقلّد بذلك اهل السنّة والجماعة ويعدُّ نفسه من المسلمين النـاجين عند الله تعالى، هيهات هيهات فان النجاة منحصرةٌ في اعتقاد محمد صلى الله عليه وسلم، واعتقاد اتباعه، وهو لم يعتقد في الله إلّا ما هو متصف به سبحانه وتعالى. والله تعالى خلق الجهات كلها والاماكن كلها والصور كلها والتشابيـه كلها والتخيّلات كلها. قال تعالى: الله خالق كل شيء. فلو كان متصفاً بشيء منها فانـه قبل ان يخلقها اين كان كان ولا شيء. وهو الآن على ما عليه كان. وقال تعالى: ليس كمثله شيءٌ وهو السميعُ البصير. فتيقّظ لما ذكرناهُ فانه نافعٌ جداً، والله الهادي ولا ربَّ غيره.

وأمّا في حالة النوم والموت، فان المومن الكامل يبقى موءمناً في حال نومه وموته، بل ربما صفا ايمانه في حالة نومه وموته، لتجرُّد روحانيته عنْ مقتضيات البشريَّة وكدورتها فيعود الى فطرته التي فطرهُ الله تعالى عليها. ولهذا كانت الرؤيا المنامية من اجزاء النبوّة لان فيها صفاء الروحانية وحسبَ الموت كالًا في ترقية المومن قوله عليه السلام: انكم لن تروا ربكم عزَّ وجلّ حتى تموتوا. فكيف ينقص الايمان بالنوم والرؤيا فيه جزءٌ من النبوّة، كما روى البخاري في صحيحه في كتاب التعبير بسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: رؤيا المومن جزءٌ من ستّة واربعين جزءاً من النبوّة. او ينقص بالموت ولا يرى المومن ربَّه إلّا إذا مات؟ فالنوم والموت على هذا من المكملات للمومن لا من المنقصات لايمانه. وكذلك في الايمان الناقص حالة النوم والموت اكمل من اليقظة لظهور سلطان الفطرة الاصلية فيها وخمود الموانع البشريّة.

وأمّا ثمرات الايمان فهي قسمين : ثمرات تحصل للمومن في الدنيا ، وثمرات تحصل له في الآخرة . فأمّا التي تحصل في الدنيا فالطهارة من نجاسة الشرك . قال تعالى : انما المشركون نجس ، والموادّة مع الله تعالى في المكالمة معه على الكشف والشهود في اهل الايمان الكامل وفي محبة تلاوة كلامه والاقبال على عبادته في اهل الايمان الناقص . قال تعالى : والذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً . ومن ذلك الكرامات والخوارق للعادات التي يكرّم الله تعالى بها من يشاء من عباده المومنين الاحياء او الاموات في الدار الدنيا بين يدي اعداء الله تعالى واصدقائه كما يُحكى عن بعضهم من المشي فوق الماء والطيران في الهواء واستحالة بعض الاحجار ذهباً ونحو ذلك . وامثال هذه الثمرات الدنيوية مما لا يُحصى كثرةً .

وأمّا التي تحصل للمومن في الآخرة فهي كثيرة ايضاً ، منها النجاة من عذاب النار ومن الخلود فيه بحيث ان حرّ النار يصير على صاحب الايمان الكامل اذا قدّر الله تعالى عليه الدخول فيه كحر الحمام كما ورد في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انما حرجهم على أمّتي كحرّ الحمام ، بل ورد ان عصاة المومنين يموتون في النار اذا دخلوا فلا يحسون بالالم حتى يهذّبوا بمقدار ذنوبهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا أدخل الله الموحّدين النار اماتهم فيها اماتة فاذا اراد ان يخرجهم منها أمسّهم ألم العذاب تلك الساعة . والحديثان في الجامع الصغير للاسيوطي رحمه الله تعالى . ومنها ما أعدّه الله تعالى للمؤمنين في الجنة من النعيم الدائم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ومنها وهو اعظمها رؤية الله تعالى من الجنة على حسب ما هو عليه سبحانه وتعالى من التنزيه المطلق بلا كيف ولا كيفية ، وليس بينه وبين خلقه قربٌ ولا بعدٌ . الى غير ذلك من الثمرات التي لا تُحصى والفوائد العجيبة التي لا تُستقصى .

* * *

وجاء في آخر باب بيان الاحسان ، وهو الباب السابع والاخير من هذا الكتاب ما نصّه بحرفيته :

وقد وقف بنا جواد الفترح في هذه الساحة التي بابها ان شاء الله تعالى لكل احد مفتوح وتمّ ما قصدناه في هذا المختصر من دهن ثمر التوفيق الذي هو من شجر طوبى معتصر ، والحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع اصحابه وكل الآل وسلم تسليماً . قال مؤلفه رضي الله عنه وارضاه وجعل الجنة منقلبه ومثواه استاذنا وقدوتنا الى الله تعالى ، خاتمة المحققين الشيخ عبد الغني ابن النابلسي رحم الله روحه ونوّر ضريحه ، واعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته وبركات علومه امين . وقد وافق الفراغ في صبيحة نهار الجمعة اواخر شعبان المبارك من شهور سنة خمس وثمانين والف من الهجرة النبوية على صاحبها الف تحية . وكان الفراغ من كتابة هذه الرسالة المباركة نهار الخميس ، الحادي عشر من شهر رجب الفرد سنة اربع وخمسين ومابة والف ، على يد العبد الفقير اسماعيل ابن خليفه الحموي الشامي ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين امين امين امين

شذرات

اليوبيل المئوي للمعهد الفرنساوي في اثينة

احتُفل في أثينة من ١٠ الى ١٧ ايلول ١٩٤٧ بمرور مائة سنة على انشاء المعهد الفرنسوي فيها . فكان ذلك شهادة على ما تكنّه الامم من احترام للقيم الانسانية الباقية فوق المنافسات وتنازع المصالح والمبادىء التي تتقاسم عالمنا الحاضر . وقد اشتركت اليونان ، حكومةً وشعباً ، في انجاح هذا الاحتفال، على رغم المصاعب السياسية والاقتصادية. ذلك ان المعهد الفرنساوي في اثينة يحتلّ مركزاً مرموقاً في تاريخ الثقافة اليونانية المعاصرة .ويكفي ان نذكر، من اعماله المجيدة ، انه اخذ على عاتقه كشف الاكروبول الاثيني،ثم قام بالحفريات في مقادس الهيلينيين القدماء، ديلوس ودلف، هيكلا ابولون الشهيران .

ومما يزيد المعهد علوقاً بقلوب اليونانيين ان تاريخه مقترن بتاريخ استقلال بلادهم ، وأن تأسيسه كان من نتائج ذلك الاهتمام الذي كان يدفع بالكثيرين من رجال الادب والسياسة في فرنسة، منذ السنة ١٨٢٠ ، الى مساعدة اليونان في استعادة حرّيتهم والعمل على نهضتهم الجديدة . على ان قرار الملك لويس – فيليب بانشاء المعهد ، ومرسوم الملك أوتون بالموافقة عليه ، لم يصدرا الّا في ١١ ايلول و٣ تشرين الثاني من السنة ١٨٤٦ ؛ بعد ان مهّدت لهما مساعٍ عديدة في تبادل النظر وإعداد الرأي العام العلمي . وكان في طليعة الساعين سانت بوف (Sainte - Beuve) ، وغيزو (Guizot) ، ولا سيما البارون بيسكاتوري (Piscatory) احد المجاهدين في حرب الاستقلال الاولى سنة ١٨٢٥ ، ووزير فرنسة المفوّض في أثينة ، والكونت دي سالفاندي (de Salvandy) وزير المعارف العامة في باريس ؛ وقد عاونهما في ذلك شخصيّتان من اشهر العاملين على النهضة الهيلينية هما كوليتيس (Colettis) الذي كان وزيراً مفوّضاً لليونان في باريس ثم صار رئيس الحكومة في أثينة ، واللغوي الشهير كورَيس (Coraïs) .

وسرعان ما اتخذ المعهد اتجاهه النهائي . فظهر لا مدرسةً تُلقى فيها العلوم على الطلّاب ، بل مركزًا للتحريّات العلمية والدراسات يقوم بها عدد من « الداخليين » ، حملة الشهادات العالية في الأدب ، او خريجي دار المعلمين العليا ، خائضين في موضوعات الآثار ، والرُّقم ، والتاريخ القديم . وهكذا تطوّر النفحة الرومانطيقية التي أنشأت المعهد ، فيظهر قرار السنة ١٨٥٠ ، مؤيدًا هذا التطوّر ، معتبرًا المعهد مؤسّسة للتحريّات الاثرية تعدّ طلابها للتعليم العالي . ومن ثمّ فان حقّ الاشراف على اعماله يعود الى اكاديميّة الرقم والآداب ، ويقول راوول - روشيت محدّدًا واجب طلّابه : « حوادث مدروسة حقّ الدرس ، ونصوص مفهومة حسنَ الفهم ، وآثار مراقبة كلّ المراقبة ؛ هو ما ينبغي ان يُطلب من اعضاء هذا المعهد ، أولى من ان نطلب صفحات مهارة تتلاعب فيها المخيّلة في أبخرة الجمالية . »[1]

ولا يسمنا المجال للتبسّط في تحقيق هذا المنهاج ، ولا لذكر ما آتاه من ثمار في تاريخ الهيلينية عامّةً ، ومظاهر مدنيّتها خاصّة . انما نشير الى ما قام به النحّات ريمون ديلامار (Delamare) في وضعه مدالية التذكار المئوي من تلخيص جامع لأعمال المعهد مدة قرن كامل . فنحت في وجه المدالية صورة أپولون يحيط به صورتا علم الآثار ، وعلم الرّقم ؛ ونقش في الفراغ اسماء اشهر اماكن الحفريّات : رتيوس ، تيجه ، ديلوس ، تاسوس ، دلف ، مالية ، فيليبّس ، بتروين ، ميرينة ، ماتينه ، غورتيس ، كيره ، كلاروس ، ستراتوس . ورقم في قفا المدالية ، اسماء مديري المعهد منذ تأسيسه . والى مديره الحاضر ، السيد روبر دوماجيل (Demangel) ، يعود الفضل بالسهر على المعهد ، على حياته واستقلاله ، والمحافظة على مكتبته الغنيّة برغم المتاعب الجمّة في سنوات الشدّة (١٩٤٠—١٩٤٤) ، كما يعود الفضل باعداد هذه الاعياد اليوبيلية الجديرة

١) Raoul - Rochette, *Journal des Savants* , 1850 , p. 352 وقد قال الكاتب نفسه موجّهًا دروس الاعضاء هذا الاتجاه الحاسم : « ليُرجَع دائمًا الى عمل المراقبة اليقظى والنقد الصارم ، لدى الاماكن والنصوص ، بالدروس والابحاث التي قد تميل الى التيه في غموض النظريّات وجاذبية الأوهام . » (ص ٣٥٨)

بجلال المؤسسة ووقارها . مما اهاب باعضاء الوفود الرسمية ، وافراد المدعوين ، الى شكر القائمين على تنظيم اليوبيل ، لما لاقوه من حسن الاستقبال ، وتحققوه من دقة الترتيب . وقد اقبل الوفود بثماني عشر أمم ، من أسوج ، وانكلترة ، وبلجيكة ، وتركية ، والدانمرك ، وسويسرة ، ونروج ، وهولاندة ، والولايات المتحدة ، واليونان . واوفدت فرنسة وفداً رسمياً مؤلفاً من السيد جوكس (Joxe) ، مدير العلاقات الثقافية في وزارة الخارجية ، يرافقه السيدان أبراهام، مدير الدائرة الجامعية في العلاقات الخارجية ، وأوجيه (Auger) مدير التعليم العالي ، وعدد من رؤساء الدواوين في الوزارات، وممثلي الاكاديمية الفرنسوية ، والمجمع ، ومتحف اللوفر ، والمعاهد العليا ، وكل الجامعات في فرنسة وافريقية الشمالية تقريباً[1] . وشاءت الاوساط العلمية في عالم البحر المتوسط ألّا يفوتها الاشتراك بهذه الحفلات ، فجاءت الوفود من مصلحة الآثار في مراكش ، ومن متحفي استانبول وأنكرة ، ومن المعهد الفرنسي في بيروت ، ومن جاره معهد الآداب الشرقية بجامعة القديس يوسف ، ومن المعهد الاميركي في رومة ، ومن المعهد الانكليزي والمعهد الاميركي في اثينة نفسها ، ومن المعهد الفرنسي في القاهرة ، والمعهد الكتابي والآثاري في اورشليم .

اما الحفلات الرسمية فقد افتُتحت صباح ١١ ايلول بتدشين نصب أقيم تذكاراً لخرّيجي المعهد الذين قضوا في ساحة الشرف والواجب مدة الحربين الاخيرتين ، او في اثناء عملهم مدة وجودهم في اليونان .

وتبع هذه الحفلة المؤثرة افتتاحُ اليوبيل الرسمي برئاسة السيد بيير جوغيه (Jouguet) عميد خرّيجي المعهد ، ثم مدير المعهد الفرنسي في القاهرة مدةً طويلة . وقد تشرّف الافتتاح بحضور صاحبي الجلالة الملك والملكة ، وحضور نائب رئيس الوزارة اليونانية ووزير خارجيتها ، السيد تسالداريس ، وسفير فرنسة السيد كارا دي ڤو سان سير (C. Carra de Vaux Saint Cyr) وجمهور غفير من

١) وضع السيد رامادييه (Ramadier) رئيس الوزارة الفرنسوية ، اذ ذاك ، تحت تصرف الوفد الفرنسوي ، طيارة رئاسة الحكومة الخاصة ، مع طيارة حربية .

الشخصيات الفرنسية واليونانية والاجنبية من السلك الدبلوماسي ، والاكليروس والاوساط الادبية والفنية . فقام السيد دوماتجيل بتحية صاحبي الجلالة وشكر الملك بول عطفه على المعهد ، جرياً على مآثر اسلافه . ثم قام السيد ستيفنس (Stevens) المدير الشرقي المعهد الاميركي ، فتكلّم باسم البعثات الاثرية الاجنبية في أثينة ثم الاستاذ أويكونوموس (Oikonomos) باسم مصلحة الآثار والجمعية الاثرية في أثينة ، فالسيد ميرلّن (Merlin) باسم مجمع فرنسة ، فالسيد غرينوار ، الاستاذ في جامعة بروسل باسم الفرع الاجنبي للمعهد ، فالاستاذ سيداروبولوس (Sidéropoulos) باسم جامعة أثينة . بعد ذلك تقدّم السيد كاليتسوناكيس (Kallitsounakis) رئيس أكادمية أثينة ، فمنح المعهد باسم الاكادمية المذكورة ، المدالية الذهبية التي لم تُمنح حتى اليوم الّا المؤسّسات الوطنية ، شهادةً رفيعة على التقدير والاحترام . وعلى اثر إدلاء اعضاء الوفود باسماء الجامعات والمؤسّسات العلمية التي يمثلونها ، وقف السيد بيكار (Ch. Picard) ، مدير المعهد السابق ، فاثنى على اليونان التي ما فتئت تحيط المعهد بحسن ضيافتها وكريم صداقتها منذ تأسيسه . وقبل ان ينصرف صاحب الجلالة ، دشّن في باحة المعهد ، منصب اليوبيل التذكاري . وبعد الظهر ، استقبل صاحبا الجلالة ، محاطين بانجالها ، جميع اعضاء الوفود والمدعوّين ، في قصرهما الصيفي بتاتوي .

وتوالت الايام مليئة بالحفلات والابحاث حتى لا يسمنا الالمام بها ، فنكتفي بذكر محاضرة السيد دي لاكرتيل (J. de Lacretelle) ، مندوب الاكادمية الفرنسية ، وبالاشارة الى الحفلة التي نظمتها ، في قاعة البرناسوس ، العصبة الفرنسوية - الهيلينية بالاشتراك مع الاتحاد الفرنسي - الهيليني للشبيبة .

ومن وقائع الحفلات الجديرة بالذكر زيارة قصيرة لدِيلوس بعد رحلة جميلة في مركبين سريعين وُضعا تحت تصرّف الاعضاء ، بفضل البحرية اليونانية والبحرية الفرنسوية ، ثم زيارة لإپيدور المشهورة بمعبد الاله الشافي اسكولاب . وهناك قامت الجوقة المسرحية للفنّ القديم التابعة للسوربون بتمثيل رواية « الفرس » للشاعر اليوناني اشيل (Eschyle) . وقد قامت الجوقة نفسها بتمثيل رواية اخرى للشاعر نفسه اسمها أغاممنون في مسرح هيرودس أتيكوس في أثينة .

ولنشر ايضاً الى زيارة حفريّات الأغورا بإشراف المعهد الاميركي ، وزيارة مختلف المتاحف ، ولا سيما المتحف الوطني وكان لا يزال فارغاً بسبب الحرب . الا انه رُتّب فيه عدد من مكتشفات النقّابين الفرنسويين في دلف كآثار العاج المنحوتة التي كشفت عنها الحفريّات الاخيرة . ولا ننسى الاحتفال البسيط المؤثّر بتدشين النصب التذكاري لاعضاء المعهد من الاجانب المتوفين في خدمة بلادهم . وقد تكلم فيه السيد دي مانجيل ، والسيد ايانس ، مندوب أوثن ، ووزير باجيكة المفوّض في اثينة .

وما ساد هذه الحفلات جميعها انما هو شعور الاعضاء حيث حلّوا ، وكيفما اتّجهوا ، بملاطفة اليونانيين المشبعة بالصداقة الخالصة . وقد شهدوا مرّةً زحف جمهور كبير من فلّاحي الارغوليد يُقدَّر بستة الى سبعة آلاف ، يجتازون مسرح أبيدور ليستمعوا ، بخشوع وفرح باديَين ، الى تمثيل رواية « الفرس » باللغة الفرنسوية . وفي صباح اليوم نفسه بينا كانت جماعة وافرة من الاعضاء تسير الى الكنيسة الكاثوليكية الصغيرة في نُوبلي لتحضر القدّاس ، كان جمهور من اليونانيين يستقبلونها بقرع الاجراس ، ونشر الاعلام ، ونثر الازهار بين أهازيج الفرح ، بادياً عليهم السرور بتحية هؤلاء الفرنسويين الذين سقط آباؤهم الى جنب آباء اليونان ، فحُفظت اسماؤهم محفورة في الكنيسة الصغيرة . هذه المظاهرة اللطيفة ، الى ذلك الاعجاب بالثقافة الفرنسوية والعلم الفرنسوي الذي كان يعبّر عنه خطباء اليونان والاجانب باللغة الفرنسوية احياناً كثيرة ، ملأ افئدة الفرنسويين ثقةً برسالة أمتهم في سبيل الانسانية . جمع الله هذه الاعياد التي جمعت ، في جوّ من الإخلاص والمحبّة ، عدداً كبيراً من الامم والاشخاص ، تحت شعار الثقافة العامة والثقافة الفرنسوية خاصّة ، من مظاهر التفاؤل بعودة السلام الى بلاد اليونان المضيافة ، ذلك السلام الذي يتمنّاه لها جميع ابنائها المخلصين واصدقائها العديدين .

الاب كلود مونديزير اليسوعي

وفاة فرانس كومون الروحية

في العشرين من شهر آب سنة ١٩٤٧، توفي في بروسيل، في التاسعة والسبعين من سنيه، عالمٌ كبير وصديق صدوق لبلاد الشرق الادنى بأسرها، هو الاستاذ فرانس كومون (Franz Cumont).

كان الفقيد الكبير بلجيكي الجنسية. الا انه قضى اكثر ايامه في رومة وباريس حيث ترك الاثر العميق في جيلين من علماء الاثريات ومحاكي المؤرخين، بفضل ما اتصف به من علم صحيح، وجهد متواصل، وقبول حسن المريدين، مع الرغبة في إفادتهم.

وإن الشرق الادنى لا ينسى تحرياته الدقيقة وابحاثه النفيسة في تاريخه واثرياته. وقد نشر مؤخرًا الاستاذ دي رويت (F. de Ruyt) مقالًا ينوّه فيه بذكر العالم الكبير ملخصًا أعماله في هذا المجال قال فيه[1] ان فضل كومون ظاهر في انه كان اول من تعهّد حفريات دورا - اوربوس، الواقعة في الصحراء على الفرات الاوسط، بناء على طلب اكادمية الرقم والآداب الباريسية، التي كان من اعضائها البارزين؛ وذلك قبل ان تتعهد الصعوبات الناتجة من حرب السنة ١٩١٤. وكان قد نشر، قبل ذلك، في السنة ١٩١٧، «الابحاث السورية». فاضاف اليها تلك الآثار العديدة الناتجة من حفرياته: معابد وهياكل، وبقايا أسوار، واسلحة ورقاً؛ قبل ان تظهر تصاوير الكنيس اليهودي والكنيسة المسيحية المكتشفة، بعد حين، على يد العلماء الاميركيين الذين قدموا من جامعة ييل فساهموا في تلك الحفريات. وهو معروف ان كنيس دورا نُقلت بقاياه الى دمشق ورُمم هناك فغدا من اروع آثار المتحف الدمشقي. وفي السنة ١٩٢٦ نشر كومون مؤلّفه الكبير في «حفريات دُورا». ثم نال من الانتداب الفرنسي ان يُحفظ حقّ الحفريات في اطلال افامية (قلعة المضيق) لعلماء الآثار من البلجيكيين. وهكذا امكن الاستاذَين مايانس ولاكوست ان يُغنيا، منذ السنة ١٩٢٩، متحفَي دمشق وبروسيل بالكثير من مكتشفات أفامية. ولنشر

(١) في مجلة *L'Antiquité classique*, XVI, 1947, I

الى ان كتاب الفقيد في « الديانات الشرقية في الوثنية الرومانية » – الذي بلغ طبعه الرابعة بالفرنسية ، والثالثة بالالمانية ، وله طبعة اميركية واخرى ايطالية – يُفسح المجال واسعاً للعبادات الخاصة بلبنان وسورية.

ومن فضائل الفقيد العالم ذلك العمل السمح الذي وهب به ، في حياته ، مكتبته الخاصة – النادرة القيمة على قول الخبراء ، والتي انفق اكثر من ستين سنة في جمعها – الى الاكادمية البلجيكية الناشئة في رومة. فنظمت الاكادمية حفلة شائقة لتدشينها في ٧ ايار ١٩٤٧ . الا ان الراهب اقعده المرض عن حضور الحفلة. فأرسل الى الاكادمية رسالة قيل فيها انها تكون « وصيته الروحية » . وها اننا نأخذ منها صفحة رسم فيها الراهب قيمة هبته ومرماها العلمي. قال :

« هذه المجموعة من الكتب الداخلة في عهدة الاكادمية البلجيكية تمتاز اولًا بعدد لا بأس به من مؤلفات الاقدمين . وفيها الكثير من الكتب التي لا تظهر قراءتها لذة غير مشوبة . الّا ان اساتذتي – وكانوا من ذوي الاختصاص باليونانية واللاتينية – كثيراً ما رددوا على مسامعي انه اذا لم يلجأ الانسان دائماً الى المصادر كان عرضة للضلال ، وان علم الآثار القديمة ، اذا حُرم معونة علم اللغة ، دُفع الى كثير من التخمين والتقدير حتى ان نتائجه لا تصل الّا الى درجة الاحتمال وفقاً لمهارة المؤلفين او بلاغة الخطباء . ولا تندر الامثلة المعاصرة على مثل هذا التعسّف في الاستنتاج.

« ثم جمعت هذه المكتبة كثيراً من المؤلفات الشرقية ، ولا سيما السريانية . وقد لا يكون فيها رائعة واحدة وقد يكون منها ما انتجته عقول متوسطة . على ان هناك حقيقة فرغت من ايضاحها التحريات الاخيرة ، وهي التشابك الوثيق بين مدنية اوربة ومدنية آسية . وقد مرّ الزمن على الزعم القائل بالمعجزة اليونانية ، المتخيل ان الثقافة الهيلينية نشأت نشأة مولدات المختبرات في الآنية المقفلة . فأصبحنا نتحقق ، يوماً فيوماً ، المؤثرات الآتية من بلاد الشام ، وبلاد الاناضول ، وبابل ، بل من الهند القاصية ، والعاملة على تكوين مدنية لا تحطّ كثرة مركباتها شيئاً من جلالها وعظمتها.

« وان ما يولي مكتبة الاكادمية البلجيكية قيمة خاصة هو غناها بالمؤلفات

المتعلقة بتاريخ الديانات ولا سيما عبادات الوثنية الرومانية . وليس بعيدًا ذاك الزمن الذي كان يُنظر فيه الى مثل هذه الدروس بشيء من الحذر ، كما لو كان آلةً حربية معدّة لمهاجمة الكنيسة . على ان الموضوع يفوق مرمى الدروس التي يخصّها المؤلف بظواهر المجتمع البشري . والمهمّ في الامر ان نعرّف هل ان أحداث العالم منقادة لقوات عمياء أشبه بما كان يسمّيه القدماء بالقدر ، أم ان هناك عناية الهية توجّهها نحو هدف معيّن مقصود ؟ فان كانت ارادةٌ الهية توجّه هذا التطوّر ، فقد لزمنا ضرورةً ان نرى في اكتساح العبادات الشرقية لبلاد الغرب تمهيدًا للمسيحية ، وانتقالًا كان من شأنه ان يؤمّن انتشار الايمان الجديد في قسم مبهم من الانسانية .

« ويدفعني هذا الاعتبار الى اليقين بان مكتبةً كمكتبة الاكاديمية البلجيكية ، لم يكن لها من مكان تقوم فيه افضل من رومة ، من هذه المدينة الخالدة ، التي بعد ان نقلت ، في وثنيتها ، الى العالم اللاتيني المدنية الهلينية ، اخذت تنشر في مسيحيتها ، على اوربة ، هذا الدين الذي هو ديننا »[1] .

الاب رينه موترد اليسوعي

---

(1) *L'Antiquité classique*, XVI, 1947, pp 24-25

مؤتمران ثقافيان

شهد لبنان في هذا الصيف مؤتمرين ثقافيين عملا، كلٌ في حدود نظرته، ومجال تأثيره على توضيح الكثير من مشاكل التربية والتعليم، واتخذا مقررات من شأنها تعريف الفكرة اللبنانية الصحيحة في الاهداف التربوية، وتحديد مدى التعاون بين لبنان وجيرانه ابناء الدول العربية في مختلف مظاهر الثقافة. فافادا، على تباين النظرات، ومعاكسة الغايات احياناً، ما يفيده كل اجتماع راقٍ يكون رائد المخلصين من اعضائه تبادل الآراء، وتشارك الفكر في البحث الجدي الرصين، والتحري العلمي الصحيح عن وسائل التعاون ومعدات النهضة في مجال الثقافة الحق.

مؤتمر رابطة التعليم الحرّ

اما الأول فهو «المؤتمر الثقافي الثاني لرابطة التعليم الحرّ» المنعقد في بيروت في ٧ و٨ و٩ تموز ١٩٤٧، وموضوعه «المدرسة اللبنانية في خدمة الامة.»

ولا يخفى ان رابطة التعليم الحرّ تشمل الاكثرية الساحقة من جماعة المنتمين الى مؤسسات التربية في لبنان، اساتذةً وطلّاباً، فاذا ما تكلمت فانما تتكلّم بلسان هذه الاكثرية، واذا ما قرّرت فانما تقرّر ما يمكن اعتباره لبنانياً صحيحاً.

وقد توافد الى مؤتمرها مئات الوفود من مدارس العاصمة والملحقات، ولا سيما محافظة الجبل. وعلى اثر الابحاث والمناقشات المتتابعة مدة ثلاثة ايام اقرّ المؤتمر في جلسته الختامية العامة ما يلي[1]:

---

١) نشر المؤتمر الثقافي ابحاثه في كتاب ظهر عن المطبعة المخلصية، دير المخلص، قرب صيدا، وتضمّن ما يلي:

البيان السنوي ١٩٤٧ : الاب اسبيريدون الرياشي – نظرة الى صندوق الرابطة: الاستاذ بديع هاشم – افتتاح المؤتمر : الاب اغناطيوس مارون – علاقة المدرسة بالحكومة : الاب افتيموس سكاف – روح الامة اللبنانية : الاب اغناطيوس مارون – لغة التعبير عن الروح اللبنانية : الاستاذ فؤاد افرام البستاني – حيوية الامة اللبنانية في ماضيها وحاضرها:

مقررات المؤتمر الثقافي الثاني لرابطة التعليم الحرّ

اسفرت اجتماعات المؤتمر الثقافي الثاني لرابطة التعليم الحر المنعقد في بيروت في السابع والثامن والتاسع من تموز ١٩٦٧ عن اقرار المبادئ والرغبات الاتية :

اولاً — اعلان المبادئ الانسانية والوطنية التي تقوم عليها تنشئة طلاب المدارس اللبنانية .

١ً الانسانية : معرفة الانسان نفسه انه انسان اي فرد ، وانه الانسان اي شخص حي تتمثل فيه الاخلاق والفضائل الذاتية والاجتماعية من عيلية ومهنية ووطنية وانسانية

٢ً الوطنية : يجب ان ينشأ الطالب اللبناني على هذه المبادئ :

ا – الشعور فالايمان فالعقيدة بانه ابن امة لبنانية لها كيانها وطابعها الخاص .

ب – التضامن في الداخل ، والتعاون مع الخارج . والتضامن في الداخل يعني جمع العناصر المختلفة من فكرية ومذهبية ومهنية وما اليها في حيوية الروح اللبنانية الموحدة . والتعاون مع الخارج يعني التبادل الفكري مع كل امة حية ، يبدأ بالجار ، ما دام حسن الجوار ، ويمتد الى جميع شعوب الارض ما تيسرت الاسباب .

ج – حب الوطن وليد الاطلاع على امجاد الجدود والتضحية في سبيل الوطن بالقضاء على الانانية في الطالب ، وبعث الروح الاجتماعية وحماية الوطن من التفرّق والتمزّق الداخلي ومن الابتلاع والذوبان الخارجي ، ومن الانكماش الجافّ ، والطموح الى الامام بتفهم الرسالة التي يحملها وطنه ويسير بها في تقدم مطرد .

ثانياً — المحافظة على امتياز الثقافة اللبنانية بنهضة ثقافية تتناول اعمالها الحقول التالية :

١ً التربية والتعليم

ا – ايجاد مؤسسة تربوية تعنى بدرس نفسية الولد اللبنانيـة وامكانياتها ، على ضوء النظريات الحديثة والعلم والاختبار .

ب – الاتصال بالاوساط التربويـة العالمية للافادة من احدث نتاج تربوي ، واقتباس الموافق للروح اللبنانية .

ج – وضع منهاج ثقافي يسير عند الاقتضاء في جانب المنهاج الرسمي .

د – عقد اجتماعات يشترك فيها ذوو الاختصاص من الاساتذة للبحث في اساليب التعليم وتوجيهها توجيهاً ثقافياً صحيحاً .

٢ً الكتاب

انشاء دار للتأليف والنقل والنشر تشجيعاً للمؤلف اللبناني ورغبة في التبادل الفكري .

السيدة نظيرة زين الدين عقيلة شفيق بك الحلبي – التعبير عن حيوية لبنان في تدريس التاريخ والجغرافية : الاستاذ رشدي معلوف – مهمة المدرسة في الوطن : عبدالله بك الحاج – المواطن اللبناني في بوتقة المدرسة : الاستاذ جورج فرح

٣ً الفكر

اظهار الميزة اللبنانية في الفلسفة والادب والفن والعلوم والاجتماعيات . وتسهيل سبل التعارف والتقارب بين رجال الفكر اللبنانيين في الوطن والمهجر لتتجلى خصائص الروح اللبنانية .

ثالثاً — ابقاء المدرسة منفصلة عن السياسة للاسباب التالية :

١ً لاختلاف الغاية بين الدولة والمدرسة .

٢ً للمحافظة على المبادئ الثقافية الثابتة وفصلها عن تقلبات السياسة .

٣ً للمحافظة على النشاط الشخصي وفتح المجال امام المواهب الفردية

رابعاً — حرية المدرسة في اختيار اساتذتها واساليبها التربوية وكتبها ، شرط ان لا تمس الاخلاق والاديان والروح الوطنية .

مقررات المؤتمر في الناحية الادارية

١ً الاعتراف للحكومة بحق وضع الشروط لفتح المدارس ، على ان لا تتعارض مع مبدأ حرية المدرسة التي يضمنها الدستور في مادته العاشرة . وان ترفع الرابطة الى الحكومة مشروع تعديل المرسوم رقم ٧٠٠٠ ضماناً لهذه الحرية .

٢ً الاعتراف للحكومة بحق وضع شروط لتعيين مديري المدارس الخاصة . اما تعيين الاساتذة فيراعى فيه الشهادة او ما يعادلها من كفاءة وخبرة .

٣ً الاعتراف للحكومة بحق سن قانون للمعلمين مراعاة للتطورات الاجتماعية ، على ان تنظر للمصلحة المشتركة بين المدرسة والاساتذة والاهلين ، كما تقرر في مؤتمر الرابطة في زحلة سنة ١٩٤٦ . وان يكون لاصحاب العلاقة المشتركة حق الاشتراك في وضع هذا القانون .

٤ً المطالبة بتحقيق الاقتراحات التالية في الامتحانات الرسمية :

ا — في الامتحانات الاعدادية ، ان تكون اللجان الفاحصة اما حيادية محضة واما مؤلفة من ممثلي المدارس الرسمية والخاصة .

ب — في الامتحانات التكميلية والثانوية ان يكون الى جانب اللجنة الفاحصة لجنة اختصاصيين عليا يعينها وزير التربية الوطنية ويكون لها صلاحية كافية للنظر في جميع المشاكل الطارئة مدة الامتحان .

امانة سر المؤتمر

ولما كان الاشتراك بالمؤتمر الثقافي العربي الاول المزمع عقده في بيت مري في اوائل ايلول ١٩٤٧ ، من ابحاث الساعة ، رأت رابطة التعليم الحر ان تحدد موقفها بصراحة من المؤتمر المذكور ، ولاسيما بعد ان رأت في ما نُشر عن جدول اعماله ما يمس بالكيان اللبناني ، فأردفت مقرراتها بالتصريح التالي نصّه :

تصريح

عن موقف رابطة التعليم الحرّ من المؤتمر الثقافي العربي

لقد سبق للرابطة انها اعلنت جلياً رغبتها في المساهمة باعمال المؤتمر الثقافي العربي حباً منها للتعاون الى اقصى حدّ في ميدان الثقافة الصحيحة ، وعملاً على اظهار الخصائص الثقافية التي يمتاز بها لبنان .

ولكن لما كانت ابحاث المؤتمر الثقافي العربي ، كما ظهر تصميمها في جدول الاعمال الذي عُمّم على المدعوين الى الاشتراك فيه ، تتنافى ومقررات المؤتمر الثقافي الثاني لرابطة التعليم الحر ؛

ولما كان المؤتمر الثقافي العربي قد نظّم جدول اعماله على نقاط وفرضيّات جعلها حقائق مفروغاً منها ، ولم يدع للمؤتمرين الا مجال البحث في كيفية تحقيقها ؛

ولما كانت هذه الفرضيات تعاكس الواقع اللبناني وترمي الى تجاهل الخصائص اللبنانية الثقافية وتمس الكيان اللبناني المعترف به في ميثاق القاهرة ،

لذلك تأسف رابطة التعليم الحر ان ترى نفسها مضطرة الى التنحي عن المساهمة في ابحاث هذا المؤتمر ،

الا اذا تحققت لها الرغبات التالية :

١ – ان تجيب وزارة التربية الوطنية جواباً مرضياً واضحاً عن كل سؤال سبق للرابطة ان قدمته اليها في كتابها بتاريخ ٤ حزيران المنصرم .

٢ – ان يكون للرابطة ممثلون في المؤتمر يراعى في اختيارهم كون الرابطة تضم من المدارس اللبنانية ما يناهز الالف في مختلف درجات التعليم .

٣ – ان لا يكون لرئيس الوفد اللبناني في المؤتمر المذكور الحق بتصديق المقررات الا اذا نال موافقة الوفد اللبناني باجماع اصواته .

٤ – ان لا يتقيد بمقررات المؤتمر الا من يوافق عليها من وفود الدول ، كما قرر مثل ذلك في ميثاق القاهرة .

امانة سر المؤتمر

وولي ذلك مقابلات عدة ومباحثات بين وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة ولجنة الرابطة المذكورة ، قررت الرابطة على اثرها الاشتراك بالمؤتمر الثقافي العربي .

المؤتمر الثقافي العربي الاول

وهو الذي عُقد في بيت مري من ٢ الى ١١ ايلول ١٩٤٧ ، واشتركت فيه وفود من جميع الدول الداخلة في الجامعة العربية ، مع بعض الممثلين غير الرسميين من فلسطين ، وليبية ، ومراكش ، ومن لجنة المدارس الكاثوليكية السورية ، وجمهور من الاعضاء المشتركين.

افتتح المؤتمر رسمياً صاحب الفخامة الشيخ بشاره الخوري ، رئيس الجمهورية اللبنانية فرفع المؤتمرين الى جوّ رحب وأفق واسع ، سانّاً لهم اوضح السبل الى الثقافة الصحيحة ، قائلاً :

« انكم من اجل توطيد الثقافة ، تعملون في هذا المؤتمر ، الثقافة الحقيقية ، التي تردّ الانسان الى مصادر وحيه ، وتقيم السعادة على أسس متينة من الصفاء الروحي الذي لا ينظر الى المادّة الّا بمقدار ما تُشيع من الحب والطمأنينة بين البشر . »

ثم القى معالي الاستاذ حميد فرنجيه ، وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة ، رئيس المؤتمر ، خطاباً حدّد فيه مهمّة المؤتمر ، متفائلاً بجهود المؤتمرين ، داعياً الى « الانطلاق الفكري » كي نتمكن من « حمل رسالتنا الثقافية الى العالم اجمع » متخطّين « الدائرة الاقليمية الى الدائرة الانسانية . ولا معنى لرسالتنا ان لم يكن ذلك هدفها . فكما ان الحياة لا تتجزأ ، وكما ان الحرية لا تقبل المساومة ، كذلك مقوّمات الحياة والحرية ، والثقافة طليعتها ، لا يمكن عزلها عن غاياتها . »

وتوالى على المنبر رؤساء الوفود الرسمية وبعض الاعضاء . فتطرّق غير واحد ، من غير المسؤولين دبلوماسياً ، الى مزالق سياسية لم تُراعَ فيها المهمة الثقافية التي اجتمع المؤتمرون من اجلها .

ولم يكد ينصرف الاعضاء ، بعد حفلة الافتتاح الرسمية ، الى اول اجتماع عملي ، حتى ادركوا اي بون يفصل بعضهم عن البعض الآخر ، لا في الشؤون السياسية فحسب ، بل في تفهّم الثقافة نفسها ، وفي تصوّر اساليب نشرها

وتعميمها . ولولا تدخّل بعض الاعضاء اللبنانيين لانحرف المؤتمر ، منذ جلسته الاولى ، الى اجتماع سياسي هدفه الاحتجاج على وجود انكلترة في فلسطين ، وفرنسة في افريقية الشمالية ، واسبانية في المغرب...

وحينما أعلن توزيع اعضاء الوفود على لجان خمس تناولت « التربية الوطنية » و« الجغرافية » و« التاريخ » و « اللغة والقواعد » و« الادب » ، تحقق الحاضرون ان نعت « الثقافي » كان فضفاضاً بالنسبة الى مشاغل هذا المؤتمر التي لم تتناول مشكلة واحدة من مشاكل الثقافة الانسانية الصحيحة . انما هو اقرب الى مؤتمرات التعليم والتربية . ولم تكن مناقشات الاعضاء الّا لتوضح ذلك التباين الذي ظهر في الجلسة الاولى . على ان المشرفين على اعمال اللجان اظهروا من المرونة ، والكياسة ، والتساهل الظاهر ، وسائر المغريات العاطفية ، ما تلافى الانشقاق وتدارك الانفصال ، وقد اظهروا ، والحق يُقال ، براعة معجبة في تبديل الالفاظ ، وتغيير القوالب التعبيرية للوصول الى ما لا يشتمّ منه شيء من رغبة الاكتساح العروبي ، والافتئات على استقلال كل دولة بسنّ مناهجها ، ووضع برامجها ، وتنظيم اساليب التربية فيها . وكأنّ اللبنانيين كانوا موضوع المداراة العامّة ، وكأنّ كلمة السر كانت بان لا يظهر شيء ينفّر اللبنانيين او يدعوهم الى الحذر . وكانت آداب الضيافة اللبنانية تدفعهم ، تجاه هذه الكياسة الظاهرة ، الى مقابلة المثل بالمثل . وكثيراً ما قبلوا ببعض المقرّرات على مضض . على ان المجتمعات الخاصة والعامة لم تسلم من عواصف تجاوز تأثيرها جوّ المؤتمر الى الصحافة اليومية .

وها اننا ننشر مقرّرات اللجان التي وافق عليها المؤتمر في جلسة يوم الثلثاء في ٩ ايلول ١٩٤٧ ، ليقدر المطالع البون بينها وبين مقرّرات رابطة التعليم الحرّ ، المنشورة قبيل هذا الكلام .

التربية الوطنية

١ – يرى المؤتمر ان الغرض من التربية الوطنية بثّ الروح الوطني في نفوس النشء وايقاظ الوعي الاجتماعي فيهم ، حتى يشعروا بارتباطهم بوطنهم ، ويدركوا واجباتهم العامة ، ويتشاونوا على القيام بها ، ويقدموا مصلحة الوطن على مصالحهم الخاصة . ويراد ببثّ الروح

الوطني في العبارة السابقة تنشئة الافراد على القيام بواجباتهم نحو الوطن المحلي الذي ينتمون اليه اولاً ، ونحو المجتمع العربي الاكبر الذي يضمّ البلدان العربية كافة .

٢ – يرى المؤتمر ان التربية الوطنية عملية تربوية متعددة الجوانب لا تقتصر على ما يُعطى من دروس خاصة بها ، بل تتغلغل في سائر موادّ الدراسة من جهة ، كما يستعان على تحقيقها من جهة اخرى بوسائل تدريبية وعملية مختلفة داخل المدرسة وخارجها . ولهذا يرى في تسمية الجانب الدراسي منها باسم التربية الوطنية تضييقاً لدائرتها ومخالفة لمفهومها ، ولهذا يقترح تسمية المادة الدراسية الخاصة بها باسم المعلومات الوطنية في المدارس الابتدائية ، والدراسات الاجتماعية والمدنية في المدارس الثانوية .

٣ – يرى المؤتمر ان يُقتصر في مرحلة التعليم الابتدائي على تدريس مادة المعلومات الوطنية بشكل منظّم في السنة الاخيرة فقط ، مع مراعاة مدارك التلاميذ ومستواهم العقلي في اختيار موضوعاتها وطرق تدريسها . اما في السنوات الدراسية السابقة فلا تخصّص لها حصص مستقلة بل يعنى بموضوعاتها العناية الكافية ضمن مختلف المواد ، وبصفة خاصة دروس التاريخ والجغرافيا والمطالعة والقصص والاناشيد والمحفوظات والدروس الدينية . وهذا بالاضافة الى الوسائل التدريبية والعملية المختلفة التي سنوردها فيما بعد .

٤ – يرى المؤتمر ان يُخصّص للدراسات الاجتماعية والمدنية في المرحلة الاولى من التعليم الثانوي عدد كاف من الحصص ، وان تشمل هذه الدراسات من المسائل الاجتماعية والاقتصادية في الوطن المحلي وفي البلدان العربية ما يقوي الروح القومية ، كما تشمل دراسة الاخلاق ونظم الحكم عامة ونظم الحكم في البلاد العربية بصفة خاصة .

ويوصي المؤتمر بتدريس علم الاجتماع في المرحلة الثانية من التعليم الثانوي ضمن الدراسات الاخرى ، او على انه علم مستقل يعد الطالب لتفهم الظواهر الاجتماعية وادراك حقائقها .

٥ – يرى المؤتمر ان يترك تفاصيل المناهج الدراسية وطرق التدريس الى المختصين في كل دولة ، مكتفياً بوضع الاسس العامة التالية التي يراها ضرورية لضمان القدر المشترك الذي يحقق ما تهدف اليه التربية الوطنية في البلدان العربية :

اولاً : ابراز الاتصال الجغرافي التام بين البلدان العربية في قارتي آسية وافريقية .

ثانياً : العناية باظهار ان هذه البلدان كانت مهداً لاقدم حضارات العالم ، واخذا قدمت للحضارة العالمية اجل الخدمات .

ثالثاً : ابراز الاشتراك التاريخي بين هذه البلدان . ففي العصور القديمة كانت تربطها اوثق الصلات . وكانت بعد ذلك ، خلال حقبة طويلة من الزمن ، وحدة سياسية تضمها امبراطورية عربية عظيمة كما ظلت في العصور المتأخرة مرتبطة بروابط قوية .

رابعاً : توكيد ان العروبة لم تكن في الماضي ولا في الحاضر مقصورة على طائفة من الطوائف او دين من الاديان، وان التعاون بين المواطنين العرب على تفاوت اديانهم كان قوياً في الماضي، كما كان كذلك في النهضة العربية الحديثة . ولم يفرّق اختلاف الاديان بين العرب الا في العصور التي حكمهم فيها الاجانب . ولهذا ينبغي العناية ببثّ روح التضامن والتعاون بين مختلف الطوائف، واشعارهم بانهم اخوة ، وانه يجب ان يضعوا الاهداف القومية فوق الاعتبارات الطائفية .

والجدير بالذكر انه بعد ان تُليت هذه المادة في الاجتماع التمهيدي لاقرار المقررات ، وقف الاستاذ فؤاد افرام البستاني ، مندوب جامعة القديس يوسف ، واحد اعضاء الوفد اللبناني الرسمي ، واقترح ، تأييداً لهذه الفكرة وضمانةً للمساواة بين ابناء الدولة جميعهم ان تُضاف الفقرة التالية :

« والسعي في إقرار الحرّيات الانسانية الاصيلة في جميع الدول العربية كي تتوصل الى الخروج من طور التيوقراطية إلى فصل الدين عن الدولة ، مجاراةً للتقدّم العصري ، والتفهّم الصحيح لمبادئ الديموقراطية الحقة . »

فقوبل الاقتراح بقليل من الارتياح ، وبكثير من الاستغراب . وبعد أخذ وردّ ، أُحيل الى اللجنة الخاصة بالتربية الوطنية فرفضته ، واقرّ الاجتماع الاخير هذا الرفض . فطلب الاستاذ البستاني عندئذ ان يُدوّن في محضر الاجتماع نصّ اقتراحه ، وان يُدوّن الرفض كذلك ، « شهادة للمستقبل على المؤتمر العربي الثقافي الاول » . وهكذا كان !!! ولا يحتاج هذا الحادث الى تعليق !

خامساً : بيان ان التطوّر العالمي سائرٌ نحو التكتل والاتحاد ، وان جامعة الدول العربية مظهر من مظاهر هذا التطوّر . وليس معنى التكتل فقدان شخصية الاجزاء المكوّنة له ، وانما المقصود منه ان تكون لهذه البلدان خطط مرسومة تنسق فيها جهودها نحو تحقيق الاهداف المشتركة .

سادساً : بيان ان الاستقلال حقٌّ طبيعيٌّ للشعوب ، وان الاستعمار ضرب من الرق يجب القضاء عليه ، وابراز مساوئ الاستعمار ، وما جرّه على البلدان العربية وعلى مجموعها من ويلات ، وانه ينبغي في البلاد العربية جماء العمل على بث روح التعاون لتحرير البلدان العربية التي لا تزال واقعة تحت نيره .

سابعاً : تركيد ان النظام الديموقراطي الصحيح أكفل الانظمة لضمان الحرية والعدالة والمساواة ، واتاحة الفرص المتكافئة للجميع ، والعمل على جعل روح الديموقراطية الصحيحة عقيدة راسخة في نفوس النشء .

٦ – يرى المؤتمر ضرورة العناية بالجانب العملي في التربية الوطنية ومراعاة المبادئ الاساسية التالية في ذلك :

اولاً : ان تكون الحياة المدرسيّة صورة مثالية مصغرة للمجتمع يتعوّد فيها النشء « الحكم الذاتي » ، وممارسة ضروب النشاط الاجتماعي التي تقتضيها هذه الحياة ، ويتدرّب على تحمل المسؤوليات والقيام ببعض الخدمات العامّة في المدرسة وخارجها .

ثانياً : بثّ روح الجماعة في النشء وتعويدهم المشاركة والتعاون والتسامح واحترام حرية الآخرين .

ثالثاً : الاتصال بالبيت ، وتنسيق الجهود بينه وبين المدرسة لتربية النشء تربية وطنية صحيحة . وتحقيقاً لهذه المبادىء يرى المؤتمر الاستعانة بالوسائل العامة الآتية :

الجماعات المدرسية كالفرق الرياضية والكشفية والفنية من تمثيلية وموسيقية وغيرها ، والجمعيات التعاونية والثقافية ، والحفلات ، والاجتماعات ، والرحلات ، ومجالس الطلبة وانديتهم وما الى ذلك .

كما يرى المؤتمر الاستعانة بالوسائل الآتية لتقوية الروابط بين مختلف البلدان العربية :

أ – تبادل الرحلات والنشرات والمجلات والكتب ، وتبادل المدرّسين والطلاب .

ب – اقامة مباريات رياضية وثقافية ، ومؤتمرات عامة ، ومخيمات ومعسكرات كشفية ورياضية ، ومعارض يشترك فيها الطلاب من مختلف البلدان العربية للتعارف والتعاون وتبادل الرأي في الشؤون العامة من اجتماعية وثقافية .

ج – وضع اناشيد وطنية مشتركة ، وتنظيم إذاعات مدرسية لطلاب المدارس في مختلف البلدان العربية .

د – انشاء بيوت مشتركة للطلبة .

هـ – وضع خطة مشتركة لاعداد كتب ومصورات وافلام سينمائية ثقافية تعرّف بالبلدان العربية المختلفة ومظاهر الحياة فيها ونشرها في الاقطار العربية .

و – تشجيع المراسلات الشخصية بين طلاب البلدان العربية .

٧ – يرى المؤتمر ان التربية الوطنية في مختلف المدارس لا تحقق اهدافها ، الا اذا كان المعلم القائم على تربية النشء مؤمناً برسالته ومتصفاً بالصفات التي تؤهله للقيادة ، ومزوّداً بالثقافة الضرورية له في مهنته ومدرباً على طرق التربية واساليبها .

ولذلك ينبغي العناية في انتقاء طلاب دور المعلمين باختبار استعداداتهم وميولهم وصلاحهم لمهنة التدريس ، كما يجب العناية باختيار اساتذة دور المعلمين من اقدر المعلمين واكفئهم .

ويجب العناية ، في دور المعلمين الابتدائية ، باعداد الطلاب لمهنة التعليم اعداداً ثقافياً ومهنياً صحيحاً ، وان يعطوا المادة العلمية الكافية التي تؤهلهم لتدريس المعلومات الوطنية في المدارس الابتدائية ، كما ينبغي ايضاً اعدادهم اعداداً اجتماعياً واسعاً يشمل جميع الوان النشاط المدرسي والاجتماعي ، ويمكنهم من القيام بتنشئة تلاميذهم وفق اساليب التربية الوطنية التي قدمنا ذكرها .

اما في دور المعلمين العالية فيجب ان يهيأ الطلاب لتدريس الدراسات الاجتماعية والمدنية في فرع العلوم الاجتماعية وان يدربوا عملياً على الخدمة الاجتماعية وعلى اوجه النشاط المدرسي وسواها .

وعلى وزارات المعارف في الدول العربية ضمان متابعة المدرّس لثقافته واساليب التدريس والتربية الوطنية وذلك بتنظيم اجتماعات ومؤتمرات تعليمية ورحلات للمدرسين وبعوث علمية لهم وانشاء المجلات الاختصاصية والفنية وما الى ذلك من الوسائل .

ويرى المؤتمر انه من الضروري العناية بحالة المدرسين المادية والاجتماعية وافساح المجال

امامهم للرقي والتقدم ومهان مستقبلهم حتى يتوفروا على اداء مهمتهم الكبرى مطمئنين ، وحتى يكفل بذلك اقبال الموهوبين على مهنة التعليم .

٨ – يرى المؤتمر ان التربية الوطنية عملية مستمرة لا تنقطع بالخروج من المدرسة ، وانه من الضروري مواصلة تدريب الكبار الذين غادروا معاهد العلم وتثقيفهم . ويرى الاستعانة على ذلك بالوسائل الآتية :

اولاً : المحاضرات العامة ، والإذاعة ، والسينما ، والمسرح ، والصحف ، والمجلات ، والنشرات ، والانتفاع بها في تغذية الروح الوطنية .

ثانياً : الانتفاع بدور الآثار ، والمكتبات العامة والمتنقلة ، والمعارض التاريخية والثقافية في بث الروح الوطنية .

ثالثاً – تشجيع الاندية ، والجمعيات التعاونية ، والنقابات ، والفرق الرياضية والكشفية ، والمؤسسات الثقافية الشعبية ، وغيرها ، مما يهيء الفرص للمواطنين للقيام باوجه النشاط الاجتماعي المختلفة والخدمات العامة .

رابعاً : مكافحة الامية ، ونشر الثقافة بشتى الوسائل .

٩ – يوصي المؤتمر بان تتخذ حكومات الدول العربية الوسائل الكفيلة بحمل هذه القرارات والتوصيات شاملة للمدارس الحرة (او الخاصة) من اهلية واجنبية .

الجغرافية

١ – توصي اللجنة بضرورة العناية بدراسة جغرافية الاقطار العربية عامة الى جانب جغرافية الوطن الخاص ، وابراز الروابط البشرية والاقتصادية بين هذه الاقطار .

٢ – تحقيقاً لهذا الغرض توزع الدراسات الجغرافية في مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي على الصورة التالية :

في مرحلة التعليم الابتدائي : تتدرج دراسة البيئة المحلية الخاصة حتى تمتد الى دراسة بيئة الاقطار العربية عامة . ويكون ذلك على شكل سياحات الى هذه البلاد ، تستخدم فيها الصور المشوقة ، ويستعان فيها بالافلام ما امكن .

وعند دراسة حياة السكان يعنى عناية خاصة بدراسة سكان الاقطار العربية ، بطريقة تظهر الروابط التي تجمع بينها ، مع استخدام جميع وسائل الايضاح التي تمثل هذه الاقطار ، ومظاهر الحياة فيها .

في مرحلة التعليم الثانوي تراعى الامور الآتية :

أ – تدرس جغرافية الاقطار العربية في موضعها من الاقاليم الطبيعية دراسة عامة ، ليتسنى للتلاميذ ان يدركوا العلاقات الجغرافية التي تربط بينها وبين الاقطار التي تقع في اقاليم مشابهة .

ب – يدرس العالم العربي كله بشيء كثير من التفصيل في احدى السنوات الاخيرة من التعليم الثانوي ، بان تخصص جميع دروس الجغرافيا في تلك السنة لهذه الدراسة . وان تتناول جميع نواحي الجغرافيا الطبيعية والبشرية لكل قطر من الاقطار العربية .

ج – تدرس جغرافية الوطن الخاص دراسة مفصلة في اثناء المرحلة الاخيرة من التعليم الثانوي . وان يُعنى فيها بالروابط التي تصل هذا الوطن بسائر الاقطار العربية .

وقد روعي في دراسة الوطن الخاص ، والاقطار العربية ان تكون في المرحلة الاخيرة من التعليم الثانوي لكي يكون التلميذ قد وصل الى درجة من النضج العقلي تمكنه من فهم الصلات التي تربط بين هذه الاقطار فهماً صحيحاً .

٣ – رغبة في اعداد المعلم الكفيل بتحقيق الاغراض العامة والقومية الهامة المقصودة من تدريس الجغرافيا ترى اللجنة :

أ – ان يكون في كل جامعة من جامعات البلاد العربية قسم خاص للجغرافيا بحيث تتاح للطالب الذي يميل الى الدراسات الجغرافية فرصة للتخصص في هذا العلم .

ب – ان تُتاح الفرصة في المعاهد العليا للمعلمين والمعلمات للتوسع في الدراسات الجغرافية لمن يميلون الى هذا العلم من الطلاب .

ج – تنظم دراسات صيفية جغرافية للمعلمين والمعلمات ، وذلك لاتاحة الفرصة للقائمين بتدريس الجغرافيا اليوم لكي يزدادوا علماً بمادتهم وبوسائل تدريسها وفق الاساليب العلمية الصحيحة .

٤ – ترى اللجنة ان من المستحسن تخصيص حجرة خاصة للجغرافيا في معاهد الدراسة تحتوي جميع وسائل الايضاح من خرائط ونماذج وافلام وصور ، وتزويد مكتبات المدارس بأكبر عدد ممكن من الكتب والنماذج الجغرافية .

٥ – توصي اللجنة الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية بان تتخذ ما يلزم من اجراء لاعداد اطالس وخرائط جغرافية للبلاد العربية تتناسب مع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والعالي .

٦ – وتوصي بان تسهل كل دولة من دول الجامعة العربية لمن يشاء من الباحثين الجغرافيين زيارة الجهات التي يرغب في دراستها وان تضع تحت تصرفه ما يعينه على واجبه العلمي .

٧ – ونظراً لما للرحلات من صلة وثيقة بالدراسات الجغرافية ترى اللجنة ان تشجع الدول العربية الرحلات ، والمؤتمرات الجغرافية ، للطلاب والمدرسين المتخصصين في دراسة هذه المادة وتدريسها حتى تُهيأ لهم الفرصة لتبادل الافكار وزيارة الاقطار ومشاهدة الظاهرات التي قرأوا عنها .

وتحقيقاً لهذا الغرض تضع كل دولة في ميزانيتها اعتماداً خاصاً للرحلات والمؤتمرات الجغرافية .

٨ – نظراً الى ان هنالك حاجة ماسة الى مؤلف مفصل يتناول جغرافية البلاد العربية جميعاً ، يكون بمثابة مرجع جغرافي يحوي آخر ما وصل اليه العلم ، وتحقيقاً لهذه الغاية توصي اللجنة بان تتولى جامعة الدول العربية تأليف لجنة فنية لاتخاذ الوسائل اللازمة لتنفيذ هذا الاقتراح .

التاريخ

يرى المؤتمر :

اولاً : ان يكون محور دراسة التاريخ في المرحلة الابتدائية تاريخ القطر الخاص الذي يعيش فيه التلميذ ، مع العناية بدراسة الصلات بين هذا القطر وبين البلاد العربية قبل الاسلام وبعده.

ويتمّ هذا الغرض بدراسة القصص المشوّقة وتراجم ابطال التاريخ القومي، وتراجم ابطال العرب ، ممن تجاوز اثرهم حدود بلادهم .

وينبغي الاشارة في ثنايا قصص الابطال الى الحياة الاجتماعية في مختلف العصور ، مع الموازنة بين الحياة الماضية والحياة الحاضرة التي تقع تحت حسّ التلميذ ، والعناية بالحياة المعيشية لطبقات الشعب.

على انه في السنة الاخيرة من المرحلة الابتدائية ، يجوز ان يدرس التاريخ على صورة منظمة مع مراعاة تيسيره ليلائم عقلية الاطفال ومدى خبراتهم.

ثانياً : ان يكون محور دراسة التاريخ العربي في التعليم الثانوي النواحي الاجتماعية والوصفية ، مع بيان اثر الشخصيات الفذّة ، والاحداث والوقائع اللازمة لتصوير الحقائق ، وتبيينها في الاذهان وتقصي مظاهر التطوّر والنضج التام

ثالثاً : ان يشمل القدر المشترك من التاريخ العربي الذي يدرس في المدارس الثانوية في جميع البلاد العربية ما يأتي :

ا – تاريخ العرب قبل الاسلام.

ب – تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام الى الفتح العثماني.

ج – النهضة العربية الحديثة.

اما الجزء الواقع بين الفتح العثماني والنهضة العربية الحديثة فيدخل ضمن المنهج الخاص الذي تضعه الهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة عربية . ويترك توزيع هذا المنهج على الفرق للهيئات المشرفة على التعليم في كل دولة منها .

رابعاً : ان يعنى ، في المرحلة الثانوية ، بالقدر من التاريخ العالمي اللازم لمساعدة الناشىء على فهم مكانة بلاده والدول العربية بين دول العالم ، ومشاكل المدنية الحديثة.

خامساً : انه ينبغي ان يدرس التاريخ دراسة علمية ، ويناقش مناقشة قائمة على منطق انساني عادل .

سادساً : انه يستحسن ان تكون طريقة تدريس التاريخ اساساً للتدرّج من القديم الى الحديث . ولا مانع من التحلل من ذلك عند الاقتضاء .

سابعاً : ان يدرس تاريخ العرب على حسب الدول والعصور المتتابعة وفقاً للطريقة التقليدية.

ثامناً : ان يدرس تاريخ الشعوب العربية ، بعد سقوط بغداد ، على اساس تاريخ الدولة الخاصّ ، مع الاشارة الى تاريخ الدول العربية الاخرى وبيان ما بينها من علاقات.

تاسعاً : ان يدرس تاريخ الحضارة العربية متصلاً بالتاريخ العربي العام بمعنى انه بعد الانتهاء من العرض العام لكل عصر يدرس الطالب حضارة هذا العصر.

عاشراً : انه ينبغي للاستفادة من دراسة التاريخ العربي في تقوية الروح العربية الحقة الاهتمام بالنواحي الآتية :

١ – بيان اثر امم الشرق الادنى وفضلها في بناء صرح المدنية القديمة ومقدار تأثر اليونان والرومان بحضارات الشرق القديم في الشام وفلسطين ومصر وغيرها.

٢ – تتبع الصلات السلالية والتجارية والثقافية بين امم الشرق الادنى تلك الصلات التي وجدت قبل الاسلام ، ثم جاء الاسلام فدعمها وزاد في اواصرها.

٣ – ابراز الاحداث العظيمة والمواقف الحاسمة ، ونواحي البطولة في العصور العربية الزاهرة ، ودراسة الاسباب والنتائج في تفصيل يتضح معه اثر الحياة الشعبية والروح العربية في ارتقاء الدولة او الدول العربية وهبوطها.

حادي عشر : ان من الوسائل التي تساعد على تنمية الروح العربية وتحقيق الاغراض المقصودة من تدريس التاريخ بالبلاد العربية ما يأتي :

١ – تأسيس الجمعيات التاريخية لتبادل الآراء والكشوف والبحوث.

٢ – تنظيم رحلات الاساتذة والطلبة بين البلاد العربية.

٣ – عقد مؤتمرات دورية للدراسات التاريخية من وقت لآخر في عواصم البلاد العربية.

٤ – الاهتمام بالمتاحف الاثرية وانشاء المتاحف التاريخية والاستعانة بالفنون الجميلة لتوضيح التاريخ العربي مثل الروايات التاريخية والقصص التاريخية واللوحات الفنية والافلام.

٥ – العناية بالتقاليد المحلية والازياء الخاصة والاغاني الشعبية ، مع تهذيبها وما يتفق مع المدنية الحديثة والروح العربية.

٦ – العمل على تخليد ذكرى عظماء الشرق العربي ، واحداثه التاريخية ، بطرق مختلفة كاقامة التماثيل واطلاق اسمائهم على الشوارع والميادين وتسمية كراسي الاستاذية في الجامعات باسماء النابغين منهم في مجال البحث العلمي الى غير ذلك من الوسائل التي تبرز المثل العليا التي ينبغي ان يتجه نحوها شباب العرب فيقتدون بمراميهم الاجتماعي ويشعرون نحو هؤلاء العظماء بالجميل فيعملون على المحافظة على هذا التراث بل وعلى الاستزادة منه.

الادب

قسم المؤتمر بحوثه في الادب الى مرحلتين : مرحلة التعليم الابتدائي ، وهي التي ينتهي منها التلميذ عادة حوالي سن الثانية عشرة ، ومرحلة التعليم الثانوي ، وهي التي تليها الى السابعة عشرة تقريباً.

وتعتبر مواد التثقيف الادبي في المرحلة الاولى خمساً : المطالعة ، والقصص ، والاناشيد ، والمحفوظات ، والتعبير ، وفي المرحلة الثانية : الادب نصوصه وتاريخه ، والنقد ، والبلاغة ، والقراءة والمطالعة ، والتعبير.

مرحلة التعليم الابتدائي :

أ – الغاية من التثقيف الادبي في هذه المرحلة تنشئة الطالب على الاخلاق السامية والروح الوطنية والشعور العربي ، مع تربية ذوقه الفني ، وتنمية ملكة التعبير فيه ، وتزويده بطائفة من المعلومات تزيد في ثقافته العامة .

وتحقيقاً لهذا يقترح المؤتمر ما يلي :

١) ان تكون المواد التي تقدم له ذات صلة وثيقة بتلك الاهداف .

٢) ان تشتمل على طائفة من الاناشيد والمحفوظات والقصص وقطع المطالعة ، التي تمتاز بسهولة التعبير وصحته وجماله .

٣) أن يراعى في اختيارها قدرة الطالب الذهنية وبيئته وتربيته .

٤) ان تشتمل بوجه خاص على موضوعات تتصل بالفضائل العربية وبالتراث العربي .

ب – ولكي تنمى ملكة التعبير عند طفل المرحلة الابتدائية يجب ان تهيأ له الفرص للتعبير عن تجاربه ومشاهداته بالكلام وبالكتابة . ويراعى في ذلك ان تكون الحرية اساساً للتعبير ، والا تتقيد بحصة او حصص معينة يقتصر عليها ، فالتعبير باوسع معانيه يتحقق في كل درس وفي كل وقت ، واذا اخذناه بهذا المعنى بدنا به عن جو الشكلية الضيق ومزجناه بالحياة . ويحسن ان يتخذ المعلم اللغة العربية السهلة وسيلة في تعليمه ، وان يشجع التلاميذ على التعبير بها ، وان يتدرج بهم في ذلك الى ان يستطيعوا في نهاية المرحلة التعبير السليم .

وتستخدم التربية الحديثة وسائل كثيرة لتشجيع التعبير بنوعيه الشفهي والكتابي تبنى الافادة منها ، مثل قص الاخبار في الفصل ، او كتابتها لمجلة المدرسة ، ومثل مناقشة ما في كتب المطالعة من صور ، وتكميل القصص القصيرة ، وسرد القصص المسموعة او المقروءة وتمثيلها ، ومثل تحويل القصص الى حوار تمثيلي ، وكتابة الرسائل ، ووصف الوقائع التاريخية وغير ذلك .

ج – الحدف الذي ترمي اليه دراسة القدر المشترك هو اثارة شعور المشاركة بين سكان الاقطار العربية في الحضارة والتاريخ ، وفي منزلتهم من النشاط الدولي الحديث .

وهذا القدر ينبغي ان يكون في المرحلة الابتدائية يسيراً ملائماً لمدارك التلاميذ ، وممهداً لقدر ارقى منه في المرحلة الثانوية .

ويمكن توفير هذا القدر في المرحلة الابتدائية عن طريق :

١) الاناشيد : فتختار منها مجموعة تكون موضوعاتها مناسبة لفكرة التعاون العربي والمشاركة في الشعور ، توقع توقيعاً موسيقياً ، ويحفظها بتوقيعها تلاميذ جميع الاقطار العربية .

٢) المحفوظات : فتختار قطع سهلة ، يلاحظ فيها ان تكون مما يشيد بالاخلاق العربية من نجدة وبطولة وبر بالجار ، وان يكون بعضها لادباء من الاقطار العربية المختلفة ، مع تعريف بسيط بهم ، وهذه يحفظها جميع التلاميذ .

٣) القصص : فيختار منها عدد يحقق الفكرة السابقة ، من تصوير الكرم والاباء وعزة

النفس وغيرهما ... [illegible] الاعجاب بتاريخ العرب وابطالهم قدامى ومحدثين

٤) المطالعة : فتتناول بعض كتبها في كل قطر موضوعات تعين على تقوية الروابط العربية ، كوصف بعض المشاهد والآثار القائمة في مختلف الاقطار العربية ، وكالحديث عن فضائل العرب وفتوحاتهم ودولهم ، وثقافاتهم وفنونهم .

ويلاحظ ان يدرس هذا في مرحلة التعليم الابتدائي مؤيدًا بالصور والرسوم ، او مصاحبًا للموسيقى ، او قائمًا على التمثيل والحوار ، مما هو مقرر في اساليب التربية .

مرحلة التعليم الثانوي :

أ – الادب نصوصه وتاريخه :

١) يجب ان ينظر الى الادب نظرة واسعة ، بحيث لا يكون مقصورًا على الشعر والنثر الفنيين ، بل يتناول ايضًا الموضوعات الفكرية والعلمية المصوغة صياغة ادبية مثل مقدمة ابن خلدون ورحلات ابن جبير وابن بطوطة ، ورسالة حي بن يقظان ، وبعض كتابات الغزالي ، وبعض قطع تاريخية من الطبري والفخري ونحو ذلك .

٢) في المرحلة الاولى من دراسة الادب يكون الاعتماد على نصوص اكثرها من الادب الحديث ، واقلها مما يقرب من هذه النصوص في السهولة من الادب القديم ، على ان تتدرج هذه النصوص في الصعوبة مع تقدم الدراسة ، ويكتفى من تاريخ الادب في هذه المرحلة بما كان تعريفًا موجزًا بقائل القطعة وما كان لازمًا لفهمها .

٣) وفي المرحلة الثانية تختار نصوص ادبية مرتبة حسب العصور من الجاهلي الى الحديث ، يراعى في اختيارها دلالتها على روح عصرها وتصويرها لخصائصه الفنية ، مع مناسبتها لاستعداد الطالب وفهمه ، وتكون دراسة تاريخ الادب مستمدة من هذه النصوص .

ب – النقد والبلاغة :

١) يرى المؤتمر انه يجب الا نتقيد في التعليم الثانوي بالبلاغة الشكلية النظرية ، وان نعود بالنقد الى وظيفته الاساسية : وهي تذوق الادب ، وفهم نصوصه ، وادراك صوره ومعانيه ، والقدرة على محاكاته . والطريق الطبيعي الى ذلك هو العناية بالنصوص نفسها ، وفهم المراد منها ، ومناقشة افكارها ، وتبين ما فيها من جمال او نقص ، تعرف ما بينها وبين شخصيات منشئيها من صلات . ويكون هذا النقد العملي جزءًا اصيلًا في درس نصوص الادب في جميع سني الدراسة .

٢) تحقيقًا لهذا المبدأ يجب ان تستمر في المرحلة الثانية الطريقة التي اتبعت في المرحلة الاولى من دراسة نصوص ادبية مختارة غير مقيدة بترتيب زمني ، لتكون محورًا لدرس النقد الادبي ، ووسيلة لتنمية ملكات النقد الادبي والبلاغة عند التلميذ ، مع مراعاة ما تتطلبه سن التلميذ ونمو استعداده في اختيار هذه النصوص ومنهج دراستها .

وهذه تسير الى جانب النصوص الاخرى المرتبة ترتيبًا زمنيًا ، والتي تختار عمادًا لدرس تاريخ الادب في هذه المرحلة .

٣) يخصص من دروس النقد العملي بالسنتين الاخيرتين من التعليم الثانوي درس يعنى فيه المدرس بتعريف التلاميذ اجمالاً بالعناصر العامة من البلاغة ، كالايجاز والاطناب ، والحقيقة والمجاز ، والتشبيه والاستعارة والكناية وبعض المحسنات البديعية ، وبالعناصر العامة من النقد : كالاساليب واختلافها ، وفنون الكلام من شعر ونثر وما بينها من فروق . على ان يكون هدف هذه الدراسة لا معرفة العناصر البلاغية والنقدية لذاتها ، ولكن لتعين الطالب على ادراك اسرار الجودة والجمال في الادب.

٤) يقترح المؤتمر ان تكون هناك في كل سنة من سني المرحلة الثانية من التعليم الثانوي دراسة تحليلية لاديب من ادباء العصر او العصور التي يدرس تاريخ ادبها في هذه السنة ، تكون غايتها خدمة الدراستين التاريخية والنقدية.

٥) يراعى في اختيار النصوص النقدية في السنة النهائية من التعليم الثانوي ان تكون عرضاً لنماذج من الصور المختلفة لفن من الفنون الادبية ، تبنى عليها دراسة موجزة سهلة لتطور هذا الفن ، وتجدد وزارات المعارف تحديد هذا الفن في براجها من حين الى آخر.

٦) عند الكلام على ما بين الشعر والنثر من فروق يعنى المدرس ببيان نظام القصيدة العربية في اوزانها الموسيقية وفي قافيتها . فيحاول من طريق عرض قصائد كثيرة من اوزان مختلفة ان يطبع في اذهان التلاميذ صوراً لموسيقى الشعر العربي ، مبيناً لهم ان كل وزن منها له اسم خاص ، ممثلاً ببعض الاوزان واسمائها من غير استقصاء ، لافتاً نظر التلاميذ الى طابع القصيدة العربية في قافيتها . والغاية من هذه الدراسة ان يتبين التلاميذ عنصر الموسيقى في الشعر العربي ، ويتعودوا قراءته بصورة صحيحة ، ويتمكن من تقويم شعرهم الذي قد يحاولون نظمه .

ج – القراءة والمطالعة :

يرى المؤتمر :

١) ان تنوع القراءة والمطالعة الى صامتة وجهرية ، والى داخلية (في الفصل) وخارجية ، ليكون ذلك عوناً على تحقيق الاغراض المختلفة من هذه المادة .

٢) ان ينبه الى الاستكثار من القراءة الجهرية في المرحلة الاولى من التعليم الثانوي ، وتخصص لها كتب ، ويعنى في المرحلة الثانية بالقراءة المستقلة والخارجية ، في كتب ذات وحدة موضوعية ، بجانب كتب النصوص .

٣) ان تتخذ الوسائل المختلفة لترغيب التلاميذ في القراءة الخارجية .

د – التعبير :

لاحظ المؤتمر ان تسمية الانشاء باسم « التعبير » افضل ، لما في هذا من توسيع لمدلوله ، وخروج به عن دائرة الشكلية والتكلف ، وتنبيه الى نواح من النشاط تساعد على نمو الملكة المعبرة المبتكرة عند التلميذ .

والمؤتمر يقترح في شأنه ويوصي بما يلي :

١) ان الاساس الاول في تنمية قوى التعبير عند التلاميذ في جميع سني الدراسة الثانوية هو استغلال كل الفرص الطبيعية الممكنة : مثل حلّ النصوص الادبية وشرحها ونقدها ، ومثل تلخيص القصص والكتب ، والتعليق على الحوادث الجارية ، وكتابة التقارير عن الرحلات والمشروعات واشرطة الخيالة (؟) (١) ، واعداد المقالات والاخبار لمجلة المدرسة ، وكالخطابة والمناقشة والمناظرة وغيرها مما يدخل في نشاط الجمعيات الادبية في المدرسة .

٢) غير ان النشاط التعبيري لا ينبغي ان يقتصر على مجرد استغلال الفرص ، بل يجب ان يخصص له وقت في جدول الدراسة في جميع السنوات . وان يشمل – بجانب ما تقدم – القصد الى التدريب الفني والابتكار ، من طريق اقتراح موضوعات على التلاميذ ، يكتبون فيها ، بعد اعداد او من دون اعداد ، مع الحرص على استقلالهم في التفكير والتعبير . وهذه الموضوعات قد تأخذ شكل مقالات او رسائل او قصص ، او بحوث في موضوعات الدراسة الادبية المقررة :

٣) ينبغي ان يكثر النوع الاول في سنوات المرحلة الاولى من التعليم الثانوي ، على حين يبدأ الثاني قليلاً ، ثم يأخذ في الكثرة تدريجاً حتى يغلب في المرحلة الثانية .

٤) ينبغي ان يوجه مدرسو التعبير الى العناية بتقدير الافكار وبطريقة بناء الموضوع ، الى جانب عنايتهم بأسلوب التعبير .

٥) يوصي المؤتمر ان يعمم – في الدول العربية التي لم تأخذ به – نظام تحضير ورقة لامتحان التعبير ، تحتوي موضوعات متنوعة – بين ادبية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك – يختار الطالب منها واحداً للكتابة فيه .

هـ – توصيات عامة :

١) يوصي المؤتمر ان يسار في دراسة القدر المشترك في المرحلة الثانوية على النهج الذي قرر في مرحلة التعليم الابتدائي مع التوسع في هذا بما يقتضيه ترقي الدراسة واتساع مدارك التلاميذ وآفاقهم .

٢) في البلاد العربية التي تفرق – في عدد دروس اللغة العربية واهميتها في دراستها وامتحاناتها – بين القسم الادبي والقسم العلمي ، وبين مدارس البنين ومدارس البنات يوصي المؤتمر ان يؤخذ بنظام المساواة في هذه الاقسام والمدارس .

٣) يوصي المؤتمر بان يعطى لغة العربية – وهي عماد الثقافة القومية – اكبر مقدار ممكن من زمن الدراسة في مناهج التعليم .

---

١) اشرطة الخيالة : كذا ، ولعلهم قصدوا الافلام السينمائية ! قلنا : ولمَ لم يقولوا : السينما ، كما قال اعضاء لجنة التاريخ ، او الافلام كما كتب اعضاء لجنة الجغرافيـة . والام نظلّ لغة « الادب » بعيدة عن لغة الحياة ؟ . . . .

اللغة والقواعد

١ – يرى المؤتمر ان قواعد اللغة العربية ، من نحو وصرف واملاء ، تحتاج الى تيسير وتبسيط ، يقربانها من مدارك الطلاب ، على الا يمس ذلك بحال من الاحوال جوهر اللغة.

٢ – ويرى ان القصد من تعليم اللغة العربية في مختلف المراحل الاهداف الآتية :

أ – ان تجعل الطلاب قادرين على القراءة الصحيحة في سهولة ويسر ، وان يفهموا ما اشتملت عليه الكتب من افكار ومعان .

ب – تمكين الطلاب من التعبير عما يجول في نفوسهم ويقع تحت حواسهم بعبارة صحيحة مع الدقة وطلاقة اللسان وقوة البيان .

ج – ان تكون دراسة العربية وسيلة للثقافة ، وتوسيع المدارك وتنمية الذوق السليم وتزويد الطلاب بكثير من المعلومات القيمة . لا ان تكون بحض دراسة لالفاظ وتراكيب ومقررات ، عمادها الزينة والزخرف الشكلي ، وهي في الحقيقة فارغة لا روح فيها ولا حياة .

د – وان يتصل الطلاب اتصالاً وثيقاً بالحياة الادبية والعلمية المحيطة بهم ، وان يسايروا النهوض الادبي الحديث ، لا ان يكونوا بمعزل عما حولهم ، فتكون المدرسة في ناحية ، والحياة الادبية الواقعية في ناحية اخرى .

هـ – وان تكون المدرسة مثيرة روح الشوق الى القراءة والاستزادة من الثقافة ، والوقوف على ما جاء به الكتاب والمفكرون في العصور المختلفة .

٣ – ويرى المؤتمر انه لا بد من تدريس قدر من قواعد اللغة (صرفها ونحوها) في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، لتحقيق الاهداف السابقة ، على ان يراعى في تدريسه التبسط والتيسير . وان توجه العناية الى تقويم اللسان على اساس المحاكاة والتدريب والتكرار .

٤ – ويرى المؤتمر قدراً ملائماً من قواعد النحو والصرف والاملاء لكل من مرحلتي التعليم الابتدائية والثانوية ليكون حداً مشتركاً في جميع البلاد العربية . واتفق على وضع منهج مفصل موزع على الصفوف توزيعاً روعي فيه استعداد الطالب وحاجته في كل فرقة من الفرق الدراسية . (وهذه الجلسة لا تتسع لتفصيله) .

٥ – ويرى المؤتمر توجيه العناية الى تجويد النطق وحسن الاداء منذ مرحلة رياض الاطفال الى نهاية مرحلة التعليم الثانوية ، رغبة في ان تتقارب لهجة الناطقين بالعربية في مختلف اقطارها وان تكون ادنى الى النطق الصحيح .

٦ – ويرى المؤتمر ان القدر المشترك انما يصلح منهجاً لطلاب الثقافة العامة . اما الطلاب الذين يرغبون في التخصص او يعدون لتدريس اللغة العربية فيكون لهم منهاج اوسع واعمق .

٧ – ويرى ان من الوسائل العملية لتطبيق المنهج تأليف كتب تعالج موضوعاته ليستفيد منها المعلمون والطلاب .

٨ – ويرى ان الاتفاق على منهج واحد لا يكفي لتقريب الثقافة والنهوض باللغة العربية اذا لم يعد لتعليم هذا المنهج معلمون على حد كبير من العلم وسعة الافق والقدرة على التدريس. ولذا قرر انه لا بد من انشاء معاهد علمية موحدة النظام في الاقطار العربية لتخريج ذلك النوع من المعلمين.

٩ – ويرى عقد مؤتمرات دورية لمعلمي اللغة العربية تشخص اليها وفودهم من مختلف البلاد للبحث وتبادل الرأي في اساليب التعليم كي يستفيد بعضهم من تجارب بعض وكي يتحدوا في الوسائل والغايات وينهضوا باللغة العربية وآدابها.

واردفت لجنة اللغة والقواعد مقرّراتها بملحقين تناول الاول «منهاج الصرف والنحو والاملاء للصفوف الابتدائية والثانوية» والثاني «وسائل تجويد النطق» ولم نرَ منهما فائدة كبيرة فتركناهما. وذلك ان اللجنة لم تأتِ بجديد، ولم تحلْ، بل لم تحاول التعرّض للمشاكل العالقة منذ القِدَم بتدريس هذه المواد!

فهارس المشرق

للسنة الحادية والاربعين
١٩٤٧

فهرس أول

لمواد الاجزاء

الجزء ١ (كانون الثاني – آذار) : فنّ الطبخ واصلاح الاطعمة في الاسلام ، بقلم حبيب زيّات (١–٣٦) = الاسكندرية في اواخر القرن الثاني للمسيح ، بقلم الاب كاود مونديزير اليسوعي (٣٧–٥١) = مظاهر النشاط الادبي ، لمحة نقدية بقلم فؤاد افرام البستاني (٥٢–٧٣) = الفنّ القصصي اللبناني في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بقلم فيكتور كلارجي كرم (٧٤–١٠٥) = ثياب الوشي ، بقلم حبيب زيّات (١٠٦–١١٥) = معرض الفنون الجميلة في المتحف اللبناني (مصوّرة) ، بقلم رشدي معلوف (١١٦–١٢٦) = ثياب الشَّرْب ، بقلم حبيب زيّات (١٢٧–١٤١) = معهد الآداب الشرقية : منهاج شهادات الليسانس ومنهاج التعاليم للسنة ١٩٤٦–١٩٤٧ (١٤٢–١٤٤)

الجزء ٢ (نيسان – حزيران) : من الخزانة الشرقية ، بقلم حبيب زيات (١٤٥–١٧٠) : الجوالي او جزية رؤوس النصارى في الاسلام (١٤٥) – خصائص بعلبك قديمًا في الصناعة والزراعة (١٥٧) – السرقين والسماد في الزراعة قديمًا (١٦٣) = يوسف المنيف وامرأة فوطيفار : نشيد للشاعر رومانوس المرنّم ، نقله عن اليونانية وعلّق عليه الاب نيقولاوس قادري قب (١٧١–١٨٩) = المدرسة اللبنانية في ظلال المعابد والاشجار في القرن التاسع عشر ، بقلم لحد خاطر (١٩٠–٢٠٠) = صناعة الخزف في بيت شباب (مصوّرة) ، بقلم الاب موريس دي فنويل اليسوعي (٢٠١–٢١٧) = لمحة في حياة الانسان الاول في العصر الطرّاني القديم : حفريات كسار عقيل فوق انطلياس (مصوّرة). بقلم الاب ج. فرانكلين يوونغ اليسوعي (٢١٨–٢٤٨) = وثائق تاريخية عن حلب في القرن

فهرس ثانٍ

كتبة المشرق ومقالاتهم

فهرس ثالث

للمطبوعات التي ورد وصفها في السنة الحادية والاربعين

على ترتيب اسماء مؤلفيها

المطبوعات الشرقية

٢ — المطبوعات الاوروبية

فهرس رابع

لجميع موادّ السنة الحادية والاربعين من المشرق